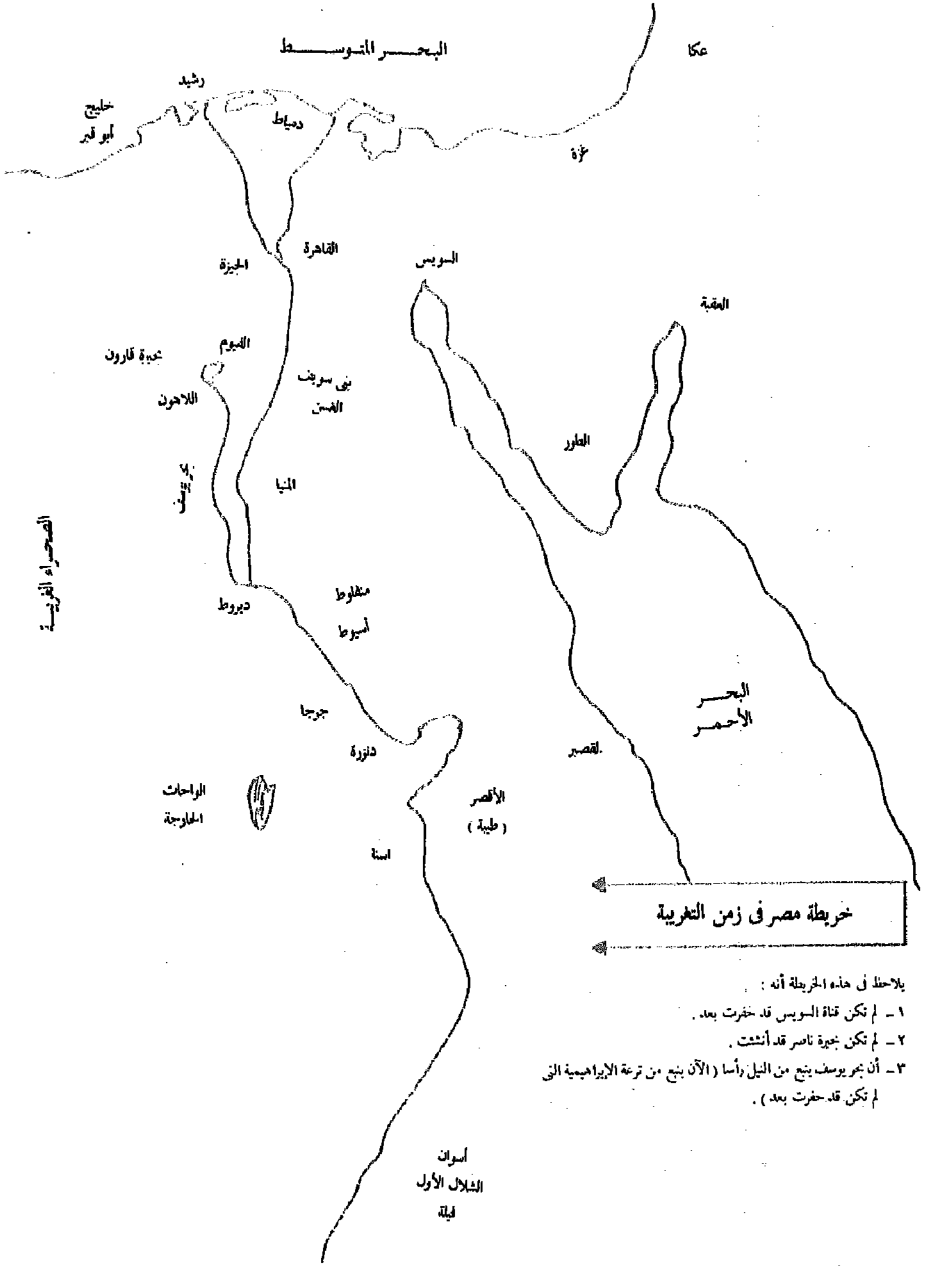
تغريبة بني حتحوت



رواية

دار الشروق

مجيد طوبيا



خريطة مصر فى زمن التغريبة

يلاحظ فى هذه الخريطة أنه :

١ ـ لم تكن قناة السويس قد حفرت بعد .

٢ ـ لم تكن بحيرة ناصر قد أنشئت .

٣ ـ أن بحر يوسف ينبع من النيل رأسا (الآن ينبع من ترعة الإبراهيمية التى لم تكن قد حفرت بعد) .

تغريبة بني حتحوت
إلى بلاد الشمال

نسخة منقحة ومحققة تنشر لأول مرة

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨
برقياً: شروق - تلكس: SHROK UN 93091
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

مجيد طوبيا

تغريبة بني حتحوت إلى بلاد الشمال

حيث الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة
وخوض الأهوال وانقلاب الأحوال
وتسلط الفأر على القط وركوع الأسد للقرد

دار الشروق

- ١ -

في تلك الأيام القديمة عندما ولد رضوان رأته أمه أجمل أطفال القرية، فخافت عليه من الحسد وجعلت زوجها يشتري بخورا وبخرته، ومع أن الأيام أظهرت أن جماله ليس من فلتات الحسن إلا أنها حملته ذات شروق وتوجهت غرباً لمدة ساعتين أو أكثر إلى أن وصلت إلى بحر يوسف، وهناك سألت عن شيخ مشهور بفن السحر وأعطته بطة سمينة فكتب لها رقية دسها في كيس جلدي مثلث الشكل، علقته في رقبة رضوان وعادت به، وبفضل الله نجحت هذه الرقية في صد عيون الحاسدين، فكبر رضوان وشب، وما أن بلغ الرابعة عشرة حتى رأت أن تزوجه من فتاة لم تكن أجمل الصبايا لكنها طيبة ومستورة، يزرع أبوها أربعة فدادين ويمتلك بقرة وحماراً ومعزة وطيوراً كثيرة، فلما استشارت ولدها رضوان ظل يتهرب ويماطل ولا يبقى في الدار إلا للأكل أو النوم، فراقبته ووجدته كثير الشرود، فقالت: هذا والله حال العاشقين.. ورفض أن يبوح بمكنون فؤاده، لكنها لاحظت أنه ميال إلى «أم الخير» لأن وجهه يصبح في لون الليمون كلما مرت من أمامه، فحرصت في اليوم التالي على أن تمعن النظر

إليها، فذهلت من حسنها وشهقت وعذرت ولدها، وفي الليل سالت دموعها حزناً عليه لأن والد أم الخير لن يرضى لها إلا بأغنى الرجال، وولدها بلا مال فماذا يكون الحال؟؟[1].

هذا عن رضوان بن حتحوت، أما حكاية أم الخير فإنها ولدت بعد أربعة ذكور وجاء بعدها ذكر ثم ثلاث أناث، فكانت الأجمل، ومنذ صغرها وملامحها تشي بهدوء الطبع وبحسنها الفتان، وما أن بلغت الثانية عشرة حتى استوت صبية رشيقة القد وردية الوجنتين كحيلة الطرف سوداء العينين، وكي تكتمل محاسنها أتقنت عن أمها فن الطهي وعرفت فن المنسج، تشغل وتطرز المناديل والشيلان ثم تعطيها للدلالة كل شهر تبيعها لها في المدينة وتربح وتدخر، كما أنها تعلمت متى تهش وتبش ومتى تنهر وتصد، فتهافت عليها شبان القرية والقرى المجاورة وشابان من مدينة المنيا ذاتها، لكن والدها شعر أنها ميالة إلى رضوان، وكان يرتاح إليه ويثق أنه يعرف قدرها ومن أجلها صار ألصق به من أبنائه الذكور، يعاونه في الحقل ويشتري له لوازمه من المدينة، لكنه خجول لا يجد الكلام ولا يتقدم لطلبها، فأدرك الرجل أنه عزيز النفس يخشى الرفض لرقة الحال..

وفي ليلة صيفية والنيل المبارك قد أوفى بفيضانه وطميه، والأرض ارتوت وانتعشت، كان الرجل سائراً فإذا به يرى «رضوان» منزوياً وحيداً مهموماً، فخمن حاله وجلس جواره وسأله عما يشغله وألح فقال الفتى بصوت كسير:

---

(١) القرية هي قرية تلة وتبعد حوالي خمسة كيلومترات غرب مدينة المنيا بالصعيد، وأحداث التغريبة تبدأ حوالي عام ١٧٥٤.

ـ سأهجر البلدة وأعمل مراكبي مع عمي جابر.
سأله مشفقاً:

ـ أهربا من مليحة أم سعيا وراءها؟؟

زاغت عيناه ارتباكاً، فعاجله الرجل:

ـ عندي دواؤك.
تهلل رضوان.. قال الشيخ:

ـ وصفة الغرام أعرفها، خذها من مجرب، ولا تحمل هم النقود فالوصفة زهيدة الثمن يقدر على تكاليفها أفقر الناس.

ثم راح يعطيه المزاح في ثوب الجد:

ـ ولكن تنبه تماماً لمقادير الوصفة ولا تخلط فيها، ونفذ ما أقول.

ـ طبعاً طبعاً.

ـ تذهب إلى المنيا وتمشي إلى العطار.

ـ ما دخل العطار؟!

ـ تشتري منه ثلاثة أوقيات من هبوب الريح ومثلها من شعاع الشمس...

ـ أي كلام هذا؟!

ـ وأربعة أوقيات من زهر المريخ ونصفها من نور السراج، وتعود بها إلى هنا، ثم تبحث عن هون بلا قعر وتدقها جميعاً معاً ثلاثة أشهر حتى تنسحق وتصبح مثل الطمى الناعم، ثم تذيب منها ملء ملعقة في

نصف كوز لمدة ثلاث سنوات، وتشربه هنيئاً فتشفى من علة الغرام بإذن الله . . ما رأيك؟؟

فأسند رضوان ذقنه إلى كفه حزيناً، وتنهد تنهيدة لفحت حرقتها الشيخ، ثم قال :

ـ لا يشعر خالي البال بحيرة العاشق الولهان!

فربت الرجل على كتفه في حنان الأب وقال :

ـ اسمع يا ولدي، شاب شعري والشيب نذير الموت، وأنا مطمئن اليك، وإن كان قصدك ابنتي أم الخير فهي لك، مبروك .

فجمد العاشق وقتاً ثم هب مهللاً . . وكادت أمه أن تطير من الفرحة مثل الحمام . . وعاونه أبوه حتحوت في تجهيز داره، فجعل السقف من جذوع النخيل المتينة وغطاها بالجريد والسعف وعيدان الذرة، وقضى الأيام يكسوها بالطين المعجون بالتبن، ثم اشترى الرحا الحجري لطحن الحبوب، وبنى الفرن للخبيز وللنوم فوقه في برد الشتاء . . وتم الزفاف وخرج حماه إلى جميع الناس رافعاً يده بدليل الشرف الأكيد، دماء بكارة العروس في المنديل الناصع البياض، فتعالت الزغاريد وأطلق الرجال رشات الرصاص، وعرفت جميع الأنحاء ما كانت تعرفه من قبل أن أم الخير عذراء عفيفة .

وظل ثلاثة أسابيع لا يعمل شيئاً وينادونه بالأمير، ثم انتهت الامارة وعاد فلاحاً، يزرع ويكدح حتى الغروب، وأم الخير تطحن وتخبز وترعى الدجاج، وتذهب لاحضار الماء من القناة عدة مرات، وتذهب إليه بالفطور، وتعود بأرواث الجاموس وتخلطها بالقش وتحولها إلى

اقراص الجلة للوقود، فإذا انتهت جلست إلى المنسج تطـرز وتنسـج وتبيع آخر الشهـر، ومـا عاد رضـوان من حقلـه مرة إلا ووجـد الخبيز مخبوزاً والأكل على الطبلية والماء في الكوز برائحة البخور لحرصها على تنظيف الزير وتبخيره كل عدة أيام.

بعد ثمانية أشهر وضعت وليدها الأول ناقصاً شهر، أراد رضوان أن يسميه حتحوت على اسم والده لكنها سبقته وأسمته مرسى على اسـم أبيها، وجاء جده حتحوت في المساء وباركه، وكان من مبدئه ضعيفاً ضئيل البدن، وظل معتل الصحة طوال عاميه الأولين وهي تحنو عليه وترعاه حتى تعلم الحبو، فلما أطمأنت عليه حبلت من جديد ووضعت ولداً مات من قبل أن تختار له اسماً فتعلمت الحزن، وواساها بحكمة الأسلاف:

ـ لا تحزني يا أخية فمن عادة الدهر اقبال وادبار.

وكان مرسي قد تعلم المشي واللعب مع الدجاج والبط والأرانـب والشرب من لبن العنزة. . وبعد عام آخر وضعت بنتاً اسمتها على اسم حماتها، عاشت حتى صار عمرها عاماً كاملاً وظنت أن مرسي سيشعر بالغيرة منها لكنه لم يبد أي اهتمام، وظل ينظر إليها مثلما ينظر إلى الزير والبلاص والرحا، غير أن هذه الطفلة أصيبت في مستهل عامها الثاني بإسهال شديد لم يدريا كنهه ولم يعرفا له علاجـاً وضـاق عليهمـا باب الحيل، ثم هبت نسمة من الآخرة أطفأت سراج عمرها، فتعلمـت أم الخير البكاء وبللت الدموع وسادتها في عتمة الليل، وطيب رضـوان خاطرها بكلام الأسلاف: ومن ذا الذي من نكبات الزمان نجا؟!

لكنها نسيت الدموع يوم ختان مرسى وقد بلغ السابعة وصار يلعب مع الأولاد عند القناة، وبدت عليه دلائل الذكاء، وهو أقلهم حجماً وأضعفهم بنية لكنه يغلبهم بالحيلة.

وكل شهرين تجمع أم الخير الدجاج الزائد وتضعه في قفص تحمله وتأخذ مرسي وتتركه عند أمها، وتذهب مع زوجها، فيسأل الولد أين ذهبا، وترد الجدة:

- إلى السوق بمدينة المنيا.

وبعد العصر يعودان بالقفص خال ومعهما بعض الخيوط والقماش لزوم المنسج والشمع والزيت للمصباح، ويسمعهما يتحدثان عن لقاء الريس جابر شقيق جده حتحوت الذي يملك مركباً تسبح في بحر النيل الكبير. . وفي المرة التالية بكى وصرخ ومرغ نفسه في التراب كي يأخذاه معهما، فأخذاه ورأى مدينة المنيا لأول مرة وكأنها الجمل وقريتهم الكتكوت الصغير، كذلك النيل والقناة الرفيعة التي تخرج منه لتصل بالمياه اليهم، وخيل إليه أن مركب الريس جابر في حجم دارهم، وظل يحكى للأولاد عن ذلك حتى الزيارة التالية، وأحب الريس جابر كثيراً.

بعد عام ونصف وضعت أم الخير مولوداً ذكراً فرحت به ولم تدم فرحتها إذ سرعان ما لحق بأخوته الراحلين عند الملائكة، فجزعت وبكت كثيراً، وضاقت بها الدنيا، وسمعها رضوان تنوح من القلب:

- جاء الليل على قليلة الحيل، يا رب يا موجود هون الأحوال

واصرف الأهوال، يا رب يا مولاي رد الحائل المائل وشر العين وكل حائل . .

ثم أنها نفرت من الحبل والولادة وعافت الجنس، وصارت ترفض حنان زوجها، ونذرت نفسها لرعاية وحيدها الذي أصبح البكري وآخر العنقود معاً، وبقيت ممتنعة على زوجها، فكتم حزنه في نفسه وجنح إلى الصبر عدة أسابيع ثم عاد يطلبها في الفراش فخجلت واستسلمت من غير رغبة، فلما شعر بها باردة مرتعشة امتنع، وفي الصباح بكت ونكست رأسها وتهدج صوتها وعرضت عليه أن تزوجه من امرأة ثانية يباشر معها ذكورته، فنهرها وسبها وخرج، فبكت لكنها قامت نشيطة تعد الطعام وقد زادت محبته في قلبها، فلما عاد ابتسم لها وقال:

ـ أنت الوحيدة الغالية، والله ما أحببت النوم إلا طمعاً في الحلم بك .

وبعد استشارة لكبيرات النساء صارت تجامعه في أوقات معينة من دورتها الشهرية تمتنع فيها الخلفة . . كل ذلك ومرسي يساعد والده في الحقل، ويدير الرحا لطحن الغلال في البيت، فوجدت وقتاً أكبر للعمل على المنسج، وعملت له طاقية بديعة تباهى بها على أقرانه، وكان يقرب من العاشرة عندما لبس والده رضوان جلباباً مغسولاً وأخذ حمارته ولحق بجده وتوجها معاً إل المدينة وغابا معظم اليوم، بينما انهمكت أم الخير في إفساح مكان في الزريبة خلف الدار ونظفته وجهزت وعاءاً كبيراً ملأته بالماء، فلما سألها أين ذهب والده قالت:

ـ ذهب يستأجر أرضاً خاصة بنا .

وقبل الغروب عاد رضوان يسحب من خلفه عجلاً صغيراً فرحت به أم الخير فرحة بلا حدود، ثم سحبته إلى خلف الدار ووضعته في المكان النظيف، وعرف مرسي أن جده حتحوت توسط لوالده لدى الصراف ليؤجره ثلاثة أفدنة، وقال الأب متباهياً:

ـ الآن أصبح أبوك من مساتير القرية.

وبعد شهور رأى رجلاً في ملابس أثرياء المدينة النظيفة يدخل القرية على فرس، واثنان من الخدم يجريان أمامه يفسحان له الطريق بين كمد الفلاحين، فجرى إلى والده في الغيط وصاح:

ـ عاد النصراني..

فاكتأب وترك الأرض وعاد إلى الدار، وجعل أم الخير تخرج صرتها المخبأة في شق الحائط وتفكها وتسلمه بعض المال أخذه وخرج قاصداً الصراف الذي جاء لتحصيل ايجارات الفدادين، وبعد ساعة جاءهم أحد الخفراء طالباً بطة لزوم وجبة الصراف فأعطته على مضض وتركهم، وجرى مرسي خلفه وظل يتتبعه حتى رآه يجمع جدياً وثلاث بطات وقفصاً ممتلئاً بالديوك وكمية كبيرة من الفطير وزلعة سمن وأخرى جبن، وذهب بكل ذلك إلى مضيفة شيخ القرية، ورأى الفلاحين يترجون الصراف كي يؤجلهم وهو يرفض، ولما لمح سخاء الوجبة أجلهم لمدة شهر واحد فقط لأنه كان قد أجلهم قبل ذلك ثلاثة شهور، وانصرف والخادمان يحملان الوجبة، وعاد والده بالمال لأنه لو دفع وحده ظنوه غنياً وطالبوه بأكثر من المطلوب، فأعادته أم الخير إلى الصرة بشق الحائط بعد أن استحسنت فعله، وسأل مرسى:

ـ لماذا هو نصراني؟؟

ـ لأنه يعرف القراءة والكتابة والحساب.

ـ لكن عم مرقص نصراني أيضاً.

ـ هذا فلاح مثلنا.

ثم عرف أن الأرض ليست ملكاً للنصراني، وإنما لمن يحكم بر مصر كلها، شيخ البلد الكبير المقيم في مدينة مصر، وهو يؤجر كل إقليم لمن يدفع أكثر من القادرين فيسمى البك الملتزم، وهو تركي أو مملوكي من الحكام.. وهذا بدوره يؤجرها للفلاحين مساحات صغيرة، والنصراني يجمع له هذه الايجارات مقابل معاش محترم يجعله في بحبوحة، لكن زيارته للقرية أثقل من الهم على القلب وأمر من طعم الحنظل[1].

وما هي إلا سبعة عشرة يوماً بالتمام والكمال إلا وجاء شاب غريب على فرس.ومعه الخادمين، فتبعوه حتى مضيفة شيخ القرية، وفهموا أنه الصراف الجديد وأنه ابن النصراني السابق وجاء في طلب الايجارات، وجلس قرفاناً ينظر إليهم في مقت، بينما دار الخفير يجمع الوجبة المعتادة بعد أن غمز له شيخ القرية أن يضاعفها علها تفرد وجه هذا الشاب العبوس، ثم سألوه عن والده فلعنهم بأعلى صوت:

ـ صنف لئيم كاذب، البراغيث أفضل منكم.

---

(١) تسمي التغريبة القاهرة: مدينة مصر، وشيخ البلد يعادل حاليا رئيس الوزراء، وكان الحاكم الفعلي للبلاد، أما شيخ القرية فهو العمدة.. كما تسمي الترك بالروم وتسمى المماليك بالغز، والملاحظ أن مؤرخي هذه الفترة كانوا يستعملون ذات المسميات..

فسكتوا عليه حتى هدأ ثم سألوه ثانية فانفجر هائجاً في سبابه، فسكتوا وقتاً ثم سألوه من جديد، فأوضح لهم وصوته يتهدج.

ـ كان والدي قد جمع الايجارات من جميع النواحي إلا قريتكم السفيهة، وعندما عرف البك الملتزم أنه أجّلكم أول مرة سبه وأهانه، فلما تماكرتم وأبيتم الدفع في المرة الثانية اتهمه بالتساهل معكم مقابل رشوة ثم أمر بجلده.

استنكروا جلد الرجل العجوز فقال:

ـ لأنه كان طيباً معكم، ولم يشفع له أنه خدم البكوات طول عمره، وجلدوه وعاد إلى البيت مهدوداً تنزف الدماء من ظهره، مقهوراً وقد أهينت شيبته، وعند الغروب أصيب بالشلل، وهو الآن راقد على الفراش بسبب خبثكم يا ملاعين!

فظلوا يطيبون من خاطره ويبدون أسفهم وهو حانق فائر الدم، وعندئذ أعربوا جميعاً عن استعدادهم للدفع، فأخرج أوراقه وريشته ومحبرته ثم تأملهم ملياً وأخبرهم أن البك الملتزم أمر بمضاعفة الايجارات عقاباً لهم.

وجموا وقتاً ثم قالوا:

ـ لا نملك الآن، تعرف جنابك هذا.

فطوى أوراقه وأغلق محبرته وظل يؤرجح ساقه التي كانت فوق الساق الأخرى وهو صامت لا يتكلم ولا يرد على استعطافاتهم، فأوعزوا خفية إلى زميلهم مرقص عله يفلح معه وهو من ملته فابتسم ساخراً، فركبتهم الهواجس وصاروا كالجالسين في مأتم، وشعر الأولاد المتجمعين بالملل فانصرفوا يلعبون، وبعد وقت رأوا غبارة عالية تملأ

الجو عن بعد كغبار الخماسين، ثم بدأ يتضح منها عدد من الفرسان يتقدمهم رجل في ملابس مزركشه، وسمعوا قرعاً على الطبول أخذ يعلو مع اقتراب الغبارة الرهيبة، فجروا إلى أهاليهم صارخين:

ـ وصل السلطان، وصل السلطان.

فاتسعت ابتسامة الصراف وقال:

ـ إنه البك الملتزم وهو الكاشف في نفس الوقت، الآمر على جميع الأطيان وأنا منفذ مشيئته(1).

ثم نهض يستقبله خارج المضيفة، وبعد الوجوم وشلل الخوف تبعه شيخ القرية مرتجفاً وباقي الفلاحين، ثم جاءت الغبرة بعشرة من الفرسان المسلحين يحيطون بالبك الملتزم وجميعهم من المماليك، وحملق الفلاحون فرأوا رجلاً طويل القامة واضح الوسامة على رأسه عمامة ضخمة صفراء من حول قلنسوة خضراء، وسرواله فضفاض أحمر، والقماش الحريري المزركش يحيط خاصرته فوق القفطان، وفي يديه قفاز من الجلد. زاد عجب الأطفال وتجمعت النساء ورأوا في قدميه مركوبين أحمرين مدببين معقوفين إلى أعلى، وفي يده سيف طويل محدب، وفي كل جانب غدارة بمقبض مزخرف بالفضة والنحاس في رسوم بديعة لم يروا شبيهاً لها في حياتهم، بمجرد أن ترجل اندفع شيخ القرية مرعوباً يقبل يده، فدفعه بعيداً ونظر إلى الصراف الذي قال:

---

(1) كان الكاشف مثل المحافظ الآن إن كان يحكم الأقليم كله، أو مثل المأمور إن كان يحكم جزءاً من الأقليم، وفي أغلب الأحوال يكون هو الملتزم بجمع الايجارات.

ـ يرفضون .

سارع شيخ القرية يقول :

ـ جاهزين لدفع العادي يا سعادة الأمير، فوجئنا بطلب الضعف، تفضل جنابك حالاً تجهز الوجبة .

فلم يلتفت إليه وارتكن على فرسه المسرجة ذات الركاب الذهبي وسأل بلكنة الأعاجم :

ـ أين المشاغبون؟

ـ لا يوجد مشاغبون يا جناب الأمير.

ـ بل يوجد ثلاثة ، أحضرهم .

وقال له الصراف :

ـ أي ثلاثة يا حمار ليكونوا عبرة!

فتلفت شيخ القرية إلى الأهالي ، وخطرت على باله فكرة خبيثة ، فاختار ثلاثة من الذين يكرههم ، سحبهم العبيد وجلدهم الجند، وكان نصيب كل واحد عشرين جلده .

عند ذاك نادى الصراف على أول مستأجر فاندفع راكعاً عند قدمي الكاشف يطلب مهلة لباقي القيمة ، فأخرج الكاشف سيخاً حديدياً من ركاب الفرس ونخزه به فتراجع واقعاً متألماً . ثم تقدم أحد العبيد بكرباج كبير وما أن بدأ يضرب حتى صرخ الفلاح :

ـ أمهلني حتى أذهب إلى الدار .

وتركوه وذهب يجري وعاد بعد حين بالباقي، أما الخمسة التاليون فقد جروا رأساً إلى دورهم، وعاد رضوان بجميع ما لدى أم الخير في شق الحائط من مال فلم يكف، وصرخ ابنه مرسى عندما رأى العبد يرفع الكرباج، لكن رضوان تجنب الجلدة وعرض دفع معزة عوضاً عن الباقي ووافق البك، فهرول إلى زوجته وطلب منها قفل باب الزريبة خشية أن يروا البقرة، ففعلت وأخفت المنسج أيضاً والأقمشة والخيوط والأصواف، وانصرف بالمعزة تمأمىء. أما جارهم عوض فإن جميع ماله والجدى الذي يملكه وبطاته لم تفِ بالمطلوب فظل يتوسل إلى شيخ القرية أن يقرضه خمسة ريالات على أن يردها ستة فقال ثمانية ثم أضاف:

ـ وهذا لوجه الله.

فبلع عوض المر في حلقه لأن سؤال اللئيم أمر من الصبر، لكنه أفلت من الجلد، بينما جلد تسعة فلاحين وهرب أربعة فاستولوا على جميع ما في دورهم من دواجن وجبن وخبز قليل بين عويل نسائهم وصراخ عيالهم..

وقبل الغروب أمر البك بجلد شيخ القرية ذاته عشرين جلدة لإهماله في المرتين السابقتين، ثم انصرف في غبرته بمعظم مال القرية وبقطيع من الجاموس والخرفان والماعز وأكثر من عشرين قفص دواجن، وباتت القرية تبكي وتدعو عليه، والمجلودون يتأوهون ومنهم شيخ القرية الذي نام على بطنه وراحت زوجته تدلك ظهره بالزيت. ورأى مرسي أمه أم الخير في صمت كئيب وأباه رضوان يعبث بلحيته في ذل

المنكسر، فتذكر الريس جابر عم والده وقر في نفسه أن الملاحة أفضل من الفلاحة، وتمنى لو عمل على النهر.

ثم أن أم الخير انكبت تهتم بالدجاج وتجمع البيض، البيضة التي بها بذرة تتركها للدجاج يرقد عليها لتفقس كتكوتا، وتعمل الجبن والزبدة، وعندما تنتهي من كل ذلك تركع على ركبتيها أمام المنسج، وينتهي النهار وتذهب الشمس بنورها فتعمل على نور اللمبة، فيحز الألم في قلب مرسي ولا تستجيب له أو لأبيه بأن تستريح، وفي ليلة ابتسمت له وقالت:

- كبرت يا مرسي وأنت الوحيد، عامين أو ثلاثة وأبحث لك عن زوجة، وسوف يلزمك المال، وعلينا فوق هذا أن نكون جاهزين لزيارة الصراف القادمة، إننا مثل النمل يا ابني ما نجمعه في عام يأخذه الجمل في خف.

وفي الزيارة التالية دفعت القرية ما عليها دون تلكوء، ومن لم يقدر ترك زراعته وطفش بزوجته وأطفاله ونزل إلى مدينة المنيا يتسول، منهم عوض ومدكور ومندور، فحنق مرسي ونادى بقتل الملتزم فزجره أبوه ونصحه بعدم الغضب لأن الغضب وليف الجنون!.. لكن ما هو إلا شهر أو أكثر إلا وعاد مدكور ومندور إلى البلدة وحكيا إن البك الملتزم قد مات مذبوحاً، وظل الشيوخ يسألونهما ويطالبونهما بالتفاصيل وهم في أشد الخوف من أن يكونا الفاعلين، وقال حتحوت الجد:

- إن كان واحد منهما فالويل لنا جميعاً، سمعت عن بكوات يقتل

أحدهـم الآخـر لكن هذه أول مرة أسمـع فيهـا أن واحــداً من صنف الصعلوك يقتل واحداً من صنف المملوك!

- ٢ -

كان الوقت شتاء والبرسيم نبتاً صغيراً في الأرض عندما شاهد الأطفال زوبعة الغبار تعلو من الأفق، أعلى من أية زوبعة وتمتد حتى آخر الشوف، ومع اقترابها سمعوا قرع الطبول فقال أصغرهم:

- النصراني .

فرد أكبرهم:

- النصراني لا يسبقه الطبل، إنه الكاشف الجديد.

ثم جروا ينذرون أهاليهم الذين تجمعوا يراقبون ضخامة الموكب، وأنصت حتحوت العجوز إلى دوي الطبول وقال:

- هذا ما لم يحدث طوال حياتي، كأنه السلطان نفسه .

اقتربت الغبرة فرأوا جيشاً حقيقياً لم يروا مثله من قبل، جميعه من المماليك، على رأسهم رجل قوي البنية كالثور، بلحية شقراء كثة وعينين قاسيتين يعلوهما حاجبان ضاربان ويطل منهما مكر الثعالب، وثيابه بهية زاهية، وعلى أحد خديه ندبة طويلة ربما من ضربة سيف

قديمة أو من رشة رصاص، والجواهر ترصع مقابض سيفه وغدارتاه وبندقيتاه تومض تحت أشعة الشمس. .

مرعوباً هرع نحوه شيخ القرية وانحنى أمامه كما لم ينحن لأحد من قبل:

ـ جناب الملتزم.

فسبه أحد الأتباع:

ـ هذا مراد بك يا حمار، شيخ بلد القطر كله(١).

فانهار شيخ القرية راكعاً على ركبتيه وانحنى جميع الفلاحين عدا الأطفال الذين وقفوا مشدوهين، وعدا مرسى الذي ظل مقطباً حتى جاءت عينا مراد القاسيتين في عينيه فارتعب وركع، ثم هز صوت مراد بك جميع الأركان يأمر شيخ القرية:

ـ أخرج قتلة الكاشف.

ارتجف وظل صامتاً، فقال مراد بك:

ـ سأقتلكم واحداً واحداً حتى تعترفون.

---

(١) كان مراد بك يشاطر ابراهيم بك في حكم البلاد، واغلب الظن أنه من اصل قوقازي، وان تجار الرقيق خطفوه أو اشتروه، فكان عبداً لأحد عبيد علي بك الكبير الذي كان بدوره عبداً، وكان المملوك تنتهي طفولته في الثامنة حيث يجهز ليكون سيداً على المصريين رغم أنه عبد، وكان إن ركب في طرقات القاهرة ترجل العامة عن مطياتهم حتى يمر، ويكون في طفولته طفلاً لسيده الذي اشتراه، يقوم أحياناً مقام الخليلة له، دون أن تمنعه لوطيته من أن يصبح أباً قبل بلوغ الرابعة عشرة، فإذا ترقي وحصل على قيادة نفر من الاتباع صار حرا من حقه اقتناء العبيد، وأطلق لحيته، وتصبح علاقته بسيده علاقة ولاء التابع. . ثم استفحل أمر المماليك حتى صارت حرفتهم حكم الديار المصرية.

ثم أطلق أحد أتباعه النار على أقرب فلاح ليخر صريعاً، وعلى الفور صاح جاره رعباً:

ـ هما مذكور ومندور.

فسارع الاثنان بالفرار، وقبل أن يبتعدا كانا قد قتلا!! . . وبعد أقل من ساعة زمنية كانت غبرة مراد بك وعسكره تبتعد بمعظم الطيور والدواجن والزبدة والعسل وألياف النخيل، وقبل كل ذلك البهائم ومنها بقرة أم الخير، الأمر الذي غاظ مرسي! . . وعندما همدت الأم وتلفتت حولها لم تجد وحيدها، ولم يجده رضوان في بيت جده حتحوت، ولم يجد فائدة من سؤال الأهالي والجميع مهمومون بنكبتهم . . ومضى الليل ولم يعثرا عليه!

مقتفياً آثار مراد وصل مرسى الغلام إلى المنيا يسيطر عليه هدف أكبر من سنه، أن يعيد لأمه بقرتها، ولم يكن يعرف كيف. وكانوا قد سبقوه بمسافة طويلة، وعندما وصل وجد طرقات المدينة خالية من الأهالي ومن الكلاب أيضاً، والدكاكين وبوابات الحارات وأبواب العطوف جميعها مقفولة، فسار حتى ميناء البلد المسمى «موردة الحنش» قاصداً عم والده، وعندما التفت شمالاً رأى مئات العسكر قد نصبوا خيامهم خارج المدينة وفي الأرض المزروعة قصباً، فسار جهتهم وهناك رأى مئات الرؤوس من الأبقار والجاموس والماعز والحمير والبغال والجمال، إلى جانب خيول العسكر المطهمة، وفهم أن بقرة أمه لا بد هناك، وحام عن قرب في حذر، ثم توجه إلى جسر النيل المنحدر وسار حتى اقترب فتسلقه ورفع رأسه يراقب، رأى الحراس في كل مكان وأدرك استحالة مقصده فنكص حزيناً حتى موردة الحنش، وبحث عن

مركب الريس جابر الذي دهش هو ونوتيته لأن الشمس كانت في مغيب والعودة إلى القرية صارت خطيرة، وتحولت الدهشة إلى كمد بعد أن حكى مرسي لهم جميع ما جرى، وعرف بدوره أن الغز هاجموا أكثر من ثماني قرى فعلوا فيها نفس الفعل، وعندما عرف الريس جابر سبب مجيئه فرد كفيه المعروقتين عجباً:

ـ تريد جنابك أيها اللبيب أن تستغفل الغز وهم شيوخ منسر وتسرق من وراء ظهورهم بقرة كبيرة طويلة عريضة؟![1]

فنكس رأسه مستسخفاً الفكرة، ولما عرف جابر أنه لم يستأذن والديه انهال عليه تقريعاً:

ـ أعرف أنك ولدت قبل موعدك بشهر، ابن ثمانية، لكن لا تجعل التسرع عادتك، فكر وتروَّ قبل إتيان الأفعال، واعلم أن العقل يغلب الشجاعة.

ثم سكت وقتاً وقدم له الطعام، وأثناء احتساء القهوة ومع نقيق الضفادع أشار مرسي إلى معسكر الغز:

ـ هل مراد بك معهم؟

ـ يبيت طبعاً في بيت الكاشف المقتول الذي صار بيت الكاشف الجديد، ويخدمه الآن حريمه وعبيده وجواريه.

ـ أهو حاكم مصر كلها؟؟

ـ هو وشريكه ابراهيم بك.

---

(١) يقال شيخ منسر أي كبير اللصوص.

ـ فكيف وجد الغز في بر مصر؟؟

ـ لا أعرف[1] . . لكني سمعت أنه كانت لهم دولة في مصر وكان السلطان منهم، وهذا ما ذكر على لسان الأسلاف، وسبب انقضاء دولتهم قدوم السلطان سليم العثماني التركي لامتلاك الديار المصرية، فخرج إليه سلطان مصر وقتها ولاقاه في معركة عظيمة هزم فيها بسبب غدر خائن بك[2] . . ولم يزل سليم يحارب حتى تملك الديار المصرية من بعد البلاد الشامية، وأقام خائن بك نائباً له في مصر فصار الباشا الوالي يجمع الخراج مالاً كثيراً لتركيا من الفلاحين وأرباب الحرف، وعند رحيل السلطان ترك حامية من عسكره رئيسها يسمى الأغا، ومع الزمن صاروا يتطاحنون مع الباشا الوالي، فاستعاد المماليك قوتهم وصار كبيرهم يعمل شيخاً للبلد بيده الأمر والنهي والحل والربط، وصار الوالي الرومي لعبة في أيديهم، يأتي كل عام من الديار الرومية فيصل إلى ثغر رشيد ومنه في النيل إلى ثغر بولاق . . ومنذ سنوات شاهدت استقبال أحدهم إذ جاءت سفينته تختال من أمام عدة مراكب مزدانة بالأعلام وفيها الطبول والزمور، واستقبله شيخ البلد وصناجقته من الغز[3]، وقدم له الأغا مفاتيح القلعة ثم هبط إلى البر ودخل مدينة مصر

(١) قيل أن الفاطميين هم أول من استخدموا المماليك، وبعد ذلك توسع الملك الصالح نجم الدين أيوب في اقتنائهم وبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة كي لا يختلطون بالأهالي!

(٢) سلطان مصر المقصود هو قانصوه الغوري آخر المماليك الشراكسه، وكان قد لاقي سليم في موقعه «مرج دابق» بحلب سوريا، لكن امراءه خانوه وعلى رأسهم خير بك، ولذلك أسماه المصريون خائن بك.

(٣) صنجق كلمة تركية بمعنى لواء ـ الصنجقية: أقليم أو محافظة والتغريبة تكتبها أحياناً بالسين مكان الصاد.

في موكب يتقدمه المشاة في صفين بالموسيقى والرايات، ومن ورائهم آلاف الفرسان برماحهم الطويلة وملابسهم الفضفاضة وشواربهم الكبيرة، ثم البكوات المماليك من فوق خيولهم ذات السروج المرصعة باللؤلؤ والجواهر والذهب اللامع، ثم تلاهم الباشا الجديد يمشي جواده في اختيال عظيم وعلى عمامته شبه الريشة ولكنها مرصعة بقطع الماس الكبيرة . .

ـ استقبال عظيم .

ـ منتهى العظمة ، لكنه ما أن يصعد إلى القلعة حتى يظل حبيساً فيها لا يغادرها إلا بإذن شيخ البلد الذي هو من الغز .

بلل الريس جابر ريقه ببلعة ماء ثم قال :

ـ وكان الغز أحياناً يعزلون هذا الباشا الوالي ويطردونه بأن يرسلوا له رسولاً اسمه «أبو طبق» ، لأنه كان يلبس فوق رأسه لبادة سوداء مثل قبعة الفرنجة ولها حافة تشبه الطبق ، وكان يصعد إلى الباشا في القلعة ويدخل إلى مجلسه ويحييه باحترام كبير ويقول له : انزل يا باشا ، وبهذا يصبح مخلوعاً .

ـ بهذه البساطة ؟[1]

ـ وقد جاء وقت في شبابي انفرد فيه شيخ البلد على بك الكبير بحكم

---

(١) صار منصب الباشا الوالي نوعاً من النفي بعيداً عن تركيا، فهو لا يد له في شئون الحكومة، ومرتبة يأخذه من ربع جمرك السويس والمتاجر التي تأتي من البحر الأحمر، لكن البكوات المماليك كانوا يمدونه بأكثر من ذلك لأنه كان يدفع رشوة للسلطان التركي في سبيل هذا المنصب، وجرت العادة على تغييره كل عام وذلك كي ينال السلطان التركي رشوة جديدة .

مصر وطرد الباشا الوالي وامتنع عن دفع الخراج للروم وفتح الجزيرة العربية وضرب النقود باسمه بعد أن كانت باسم السلطان العثماني، وكان ذلك في نفس العام الذي تزوج فيه رضوان، أبوك يا مرسي من أم الخير[1] . . ثم كانت الخيانة عندما أرسل مملوكه محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا فتحالف هناك مع الروم وعاد وقتله وصار هو شيخاً للبلد يدفع الخراج للروم من مال الفلاحين حتى مات بعد ست سنوات، فخلفه إبراهيم بك وشاركه مراد بك الذي ينام الآن في بيت الكاشف والذي نهب بلدكم هذا النهار وأخذ بقرة أم الخير.

- فماذا جاء به هنا؟؟

- لا أحد يعرف، لكن لا شيء يخفى في بلدنا، والآن عليك أن تنام لتعود مبكراً إلى أمك وأبيك أيها الأرعن.

قبل ظهور الشمس من وراء الجبل الشرقي بدأ مرسي سيره غرباً، توقف وقتاً يراقب عسكر الغز في حقل القصب الشمالي، ثم بدأ يعبر المدينة فوجدها ما زالت خالية، وبوابات الحواري والعطوف والدكاكين مغلقة، ولمح بعض العيون ترقب الطرقات من خلال مشربيات النوافذ، ثم خرج إلى الخلاء وظل سائراً حتى قريته فوجد أمه أمام باب الدار، وما أن رآه والده حتى هب يقصد لطمه لكن أم الخير سارعت بأخذه في حضنها وهي تبكي، استراح في حضنها ثم نفر وتراجع مرفوع الرأس وقال:

- لماذا تبكين ولماذا القلق؟؟ . . لم أعد طفلاً.

---

(١) حوالي عام ١٧٦٩ تقريباً.

رأته وقد كبر فجأة وأصبح رجلاً فراق في عينيها، وبعد العتاب جلسوا على الفطار، وقال لوالده:

- اتفقت مع الريس جابر على العمل معه.

جزعت أم الخير، فقال يخاطبها عن طريق والده:

- يا أبي، من واجبي بعد مصيبة البارحة أن أعمل وأكسب، الحقل انت كفيل به، وأمي تعمل بالدار على المنسج، وأنا أعمل بالبحر، ثلاثة ايرادات خير من ايرادين، وبهذا نعوض ما سرق منا.

فسكت رضوان ولم يقدر على اخفاء قناعته، لكن أم الخير أفصحت عن مخاوفها فعاد وأقنعها بفصيح اللسان، فقامت على مضض تجمع ملابسه في صرة، لكنه حلها ففرحت وقد حسبته عدل عن عزمه، لكنه بدأ يرتدي جلبابيه فوق الجلباب الذي يرتديه وهو يقول:

- لو رآني أحد الغز أحمل الصرة لربما خطفها مني.

وعندما ارتدى جميع ملابسه ولم تكن كثيرة بدا جسده الضئيل ممتلئاً أكثر من حقيقته، ثم ودع والديه وعاد يسير شرقاً. بعد رحيله بوقت خرجت عن صمتها وقالت:

- بالأمس خسرت طيوري وبقرتي واليوم ولدي.

- بعد عام كان سيتزوج ويتركنا، وأنا مطمئن لرعاية عمي له.

نظرت إليه لائمة:

- لأنك لا تعرف قلب الأم.

فقال خارجاً:

ـ لكني أعرف قلب الأب.

ومع دخول مرسي مدينة المنيا عاد يفكر من جديد في وسيلة لاستعادة بقرة أم الخير، لكنه عندما وجد الشوارع ما زالت خالية شعر باليأس، وعند الشاطىء نظر شمالاً فعرف أن غالبية الغز تحركوا للسطو على قرى جديدة، وكانت المركب قد ارتحلت لاحضار بعض الحجارة من الجبل الشرقي، فجلس ينتظر، ثم شعر بالملل وقام وسار شمالاً يحوم حول معسكر الغز فوجد بعض الأهالي القادرين يشترون البهائم بأبخس الأثمان!!

عند العصر عاد الريس جابر، فخلع مرسي ملابسه الزائدة ووضعها بالمركب، بعد وقت حدثت ضجة وسمعوا صهيلاً ورأوا العسكر تعود بمزيد من الأسلاب وقد اختلط بهم بعض عربان الغروب[1].. وفي المساء بينما كان يسعى للنوم انشغل باله ببقرة أم الخير، فإذا كان من المستحيل اعادتها لكبرها فليأخذ شيئاً صغيراً يكون نفيساً، وفكر أن يسرق سيفاً مرصعاً بالجواهر، ولكن من يجرؤ على شراء سيف مملوكي، فكر في سرقة أموالهم لكنه فشل في اكتشاف المكان الذي يخبئون فيه ريالاتهم، عند ذاك تعب فغلبه النعاس ونام والنوم سلطان.

بعد أيام اطمأن الأهالي ففتحوا أبواب الحارات والدكاكين، وبعد وقت طاف المنادى يعلن عن ضرورة دفع الفردة، على كل حمام ثمانية ريالات والدكاكين الكبيرة ريالان والصغيرة ريال، والبيوت الكبيرة

(١) يقصد العربان من الصحراء الواقعة غرب بحر يوسف (الصحراء الغربية).

ستة ريالات والصغيرة ثلاثة، وعلى ساكني الغرف ربع ريال[1].

وكانت الأخبار قد وصلت بأن مراد ما جاء إلى مدينة المنيا إلا غاضباً من شريكه في الحكم إبراهيم بك، وإنه جاء هارباً منه، ولهذا طاف يجمع الفرد، ولهذا امتنع الأهالي لعلمهم أنه بعد رحيله سوف يأتي رجال ابراهيم بك من بعده ويطلبونها فقاوموا، ومن خاف دفع دون اعتراض، ومن رفض جلد ومنهم من مات ومنهم من فر هارباً فسمروا على دكانه وداره[2]..

طاب العيش لمرسي مع الريس جابر ووجده قوياً عتياً رغم شيبته، وبدأ يتعلم بسرعة فنون الملاحة، وفي أوقات البطالة ينزل إلى البر ويحوم من حول المعسكر فيراهم يأتون كل عصرية بالمنهوبات من الجمال والأغنام والأبقار وغير ذلك كثير يعز عن الحصر، وكل يوم ينضم إليهم من الفقراء من يخدمونهم ويغسلون الجياد ويحملون المتاع، وزاد حومان مرسي من حولهم بغية معرفة مكان إخفاء المال الكثير الذي جمعوه، وذات يوم انتظر هبوط الظلام وتسلل من المركب وظل سائراً أسفل الجسر وقد تعودت عيناه على الرؤية في ضوء النجوم والقمر الناقص حتى اقترب من المعسكر، ورفع رأسه فوجد الهدوء والعسكر والعربان يغطون في النوم متدثرين بالأصواف، وكبراؤهم في خيامهم المطفأة المغلقة، وآثار نيران موقدة بدأت تخمد، ورائحة لحوم مشوية وعظاماً ملقاة في كل مكان، والهواء البارد يكاد يجمد أذنيه، والبهائم قل عددها وقد بيع معظمها، ولا بد أن ثمنها في إحدى

(١) الفردة: ضريبة استثنائية ـ الفرضة: ضريبة الرؤوس.
(٢) أي أغلقوها بالخشب والمسامير، أو كما نقول اليوم ختموها بالشمع الأحمر.

الخيام لكن جميعها مغلق ودخولها مستحيل، والخيول نائمة وكل حين يصهل بعضها، فزحف خلال حقل القصب إلى أقرب الغز النائمين مقرراً أن يسرق سيفه المركون إلى جواره، تقلب الجندي في نومته فالتصق مرسي بجميع جسده فوق التراب وقد ضاعف الرعب من برودة أطرافه، بعد أن اطمأن أمسك بالسيف واستدار، وقبل أن يمضي رأى عمامة العسكري بقلنسوتها فأخذها وأخذ غدارته أيضاً، ثم زحف إلى حافة الجسر وهبط وجرى جنوباً والرعب يفتك بجسده الضئيل، لكنه مضى حتى لهث وتعب، واقترب من موردة الحنش، فوقف بغتة محتاراً ماذا يفعل بغنيمته، جلس يستريح ويفكر لكن البرد جعل جسده يرتجف، تلفت باحثاً عن مخبأ، ثم حفر حفرة في الجسر المنحدر ودفن السيف والقلنسوة بعمامتها الملفوفة، وخبأ الغدارة تحت سرواله ثم تسلل صاعداً المركب في خفة القط ونام..

عند الصباح تحركت المركب وقام بعمله، وبمجرد العودة تسلل أسفل الجسر يتحسس الغدارة تحت سرواله مقرراً أن يخرجها ويطلقها إن ضبطه أحد الغز، ثم اتجه إلى مخبئه في حذر واطمأن على غنيمته، وضاعف التمويه من حولها بأن غرز بعض عيدان الغاب الخضراء، وعاد سعيداً وقد غاب بعض الوقت مما جعل الريس جابر يوبخه ساخراً:

ـ عدت ثانية تحوم حول المعسكر، منعتك من ذلك، لعلك استرددت بقرة أمك!

فابتسم ونظر إلى المياه القاتمة ولم يتكلم ومرت أيام قليلة، ثم ناموا ليلة وصحوا ذات يوم والضباب يغطي النيل ويكاد يحجب الجبل، لكن

الشمس صعدت وأطلت من فوق التل وهزمت الضباب وعندما نظروا صوب الشمال وجدوا أن الغز قد اختفوا، فسارعوا إلى هناك ووجدوا بعض الجياع قد سبقوهم وانهمكوا باحثين عن كسرة خبز أو بقايا طعام يكون الغز قد تركوه، ولم يعرف أحد إن كانوا ساروا شمالاً أم جنوباً أم غرباً صوب بحر يوسف حيث الصحراء وأشياعهم من العربان . .

عند رجوعهم من هناك كانت المدينة تستعيد حالتها الطبيعية، وفي خلال أربعة أيام بدأ الهاربون يعودون إلى ديارهم ومحلاتهم ويصلحونها بعد خلع أخشاب التسمير. . وبعد أسبوع انفرد مرسي بالريس جابر وتجرأ وأخبره بغزوته، ولما لم يصدق الشيخ أخذه أسفل الجسر حتى مخبأه، وبعد أن اطمأن إلى عدم وجود رقيب أزال الغاب والحشائش وأخرج غنيمته، وما أن رأى جابر السيف المعقوف حتى غضب، ثم رأى القلنسوة فتعجب، وجلس يقلب في مقبض السيف وجواهره الصغيرة ثم قال :

- مقبضه يساوي الشيء الكثير!

- السيف لأبي .

- لأبيك؟! رضوان بن حتحوت يمسك سيفاً تزينه الجواهر؟! أجننت؟!

ثم فكر وقتاً وكأنه ساعة زمنية وقال :

- سنخلع هذه الأحجار الغالية ونبيعها، ولكن ليس الآن حتى لا ينكشف الأمر، وامعاناً في الحيطة نبيعها في أسيوط أو بني سويف .

فأعجب مرسي بدهائه وسأل :

- كم يساوي؟؟

ـ لم أبع الجواهر أو اشتريتها منذ مولـدي ، هذه أول مرة ألمسها بيدي .

فشد مرسي قامته زهواً بينما أمسك العجوز بالعمامة والقلنسوة ، وجد ملمس العمامة ناعماً فعرف أنه من الحرير الطبيعي ، وقال :

ـ قماشها يكفي لتفصيل سروال صيفي .

وراح يفك العمامة فإذا بين طياتها كيساً صغيراً ، أمسكه فوجده ثقيلاً ويشخلل عند هزه ، ووجد به كمية كبيرة من الريالات ، أمسك إحداها مبهوراً :

ـ هذا ريال فرانسه ، أوحشتني رؤيته بهذه الوفرة .

ـ ما هو الريال الفرانسه؟

ـ هذه الأيام يساوي مائة «نصف فضة»[1] .

وعندما عدها وجدها مائة وتسعين ريالاً ، فسأل مرسي :

ـ أتشتري بقرة؟؟

ـ بقرة وعنزة وحماراً يا مرسي ، وقد تزيد .

فجمد من فرط الفرحة ، لكن الشيخ تخلص من ربكته وقال :

ـ علينا أن نخبىء هذا حتى نسافر أسيوط، دع الأمر لي .

---

(١) النصف فضة كانت أصغر عملة وقتها وكانت تشتري أربعة بيضات وتساوي جزءاً من أربعين من القرش تقريباً ، وأحياناً يقال فضة فقط اختصاراً ، وكان الأتراك يسمونها بارة ، والريال يساوي ٨٠ فضة تزيد أحياناً إلى مائة وأكثر . . أما الكيس فكان يساوي ٥٠٠ قرشاً أو ٢٥ ألف نصف فضة .

ونهضاً عائدين بعد أن تعاهداً على كتمان الأمر، وأخذ الريس جابر الغنيمة وخبأها في داره، حتى زوجته المحبوبة لم يخبرها خوفاً من أن يفلت لسانها في ثرثرة حريمية .

- ٣ -

ثم كان أن سنحت فرصة الرحيل إلى أسيوط مع عدد من التجار، ففردت المركب قلوعها لتسوقها نسمة الشمال ضد اتجاه التيار، وزادت خبرة مرسى بالملاحة في أصعب مناطق النهر وعورة، وبعد حوالي تسعة أيام لاحت مشارف أسيوط، فرأى في جهتها البحرية حدائق بهيجة ثم بعض القصور والأبنية الجميلة، وتهادت المركب حتى رسوا في «الحمراء» ثغر المدينة، فوجدوا جسراً يعلو مياه الفيضان ويقودهم إلى البر، ونزل التجار لشراء حاجاتهم، وأشار الريس جابر جهة الغرب إلى بعض البيوت المشيدة فوق التلال وقال:

- هذه بيوت المماليك، وبنوها في أعلى مكان كي تشرف على المدينة[1].

ثم نزلا إلى البر وسارا حيناً حتى وصلا المدينة، فرأى مرسي متاجرها واسعة عامرة وشوارعها مزدحمة بالسكان، وتأكد أنها أكبر من مدينة

(١) كانت أسيوط تبعد وقتها عن النيل بحوالي ١٢٠٠ متراً، وكان تعدادها حوالي مائتي ألف نسمة.

المنيا فأدهشه هذا، فشرح له الريس جابر السر وقال لأنها مركز للتجارة مع السودان والواحات وليبيا، يرد إليها ريش النعام وسن الفيل والتمر هندي والملح والتبر الذي هو تراب الذهب، كما تأتيها كل عام قافلة عظيمة مكونة من ألف ونصف ألف من الإبل المحملة بالبضائع والعبيد من دارفور، فسأل مرسي:

- ما هي دارفور؟؟

- أرض واسعة في السودان، بعيدة على مسيرة أربعين يوم بالجمال العفية، تأتي القافلة إلى مصر فتبيع بضائع السودان وتأخذ البضائع المصرية وتعود بها لتبيعها هناك.

- وماذا يأخذون من هنا؟؟

- الأسايطة ماهرين في صناعة أقمشة الكتان وزيت السيرج وصناعات الخشب والعاج والأبنوس، وبالأخص العاج يصنعون منه حليات عجيبة، والأسايطه مثل الدمايطة مشهورين بكنز المال.

وظلا سائرين حتى تعب الريس جابر، فجلسا إلى جوار الحائط، وسأل مرسي عن موعد بيع جواهر السيف فأجاب العجوز:

- سنركب الأمان ونبيعها قبل فرد أشرعة العودة مباشرة، أعرف صائغاً طيباً.

أيام قليلة وامتلأت المركب بحمولة كبيرة من السيرج وأدوات النساء المصنوعة من العاج من مراود ومكاحل وأقمشة وتمر هندي، وقبل موعد الرحيل اختفى ريس المركب عدة ساعات زمنية وبمجرد أن عاد أقلعوا صوب المنيا. وفي هذه الساعات دخل على الصائغ وعرض عليه

مجوهرات السيف وشك الرجل أنها مسروقة من الغز لكنه وجدها تصلح فصوصاً لخواتم النساء فاشتراها بمبلغ بخس أخذه الريس جابر وانصرف دون مساومة، وعندما اختلى بمرسي قال:

- هذه الريالات مع السابقة تجعلك ثريا.

- نشتري بقرة.

- بل تشتري هذه المرة معزة، وبعد عام تشتري البقرة وتقول أنك ادخرت ثمنها من أجرك معي، وسيتبقى معك الكثير وبإمكانك شراء مركبي هذا.

ضحك مرسي، فقال جابر:

- ولم لا، سأبيعها لك، أنا كبرت وأنت عرفت فنون الملاحة، والأعوام بدأت تهد حيلي وأريد أن أقضي بقية عمري إلى جوار زوجتي وأولادي وبناتي وأحفادي..

وكان مراد بك عندما غادر المنيا قد ذهب إلى بر الجيزة وبصحبته جمع من الغز وأخلاط الأجناد وعرب الهوارة من الصعيد، فنصبوا خيامهم بينما كان إبراهيم بك ناصباً خيامه على البر الآخر، فلما ضرب مراد رد إبراهيم وظل السجال بينهما على أشده، واستمر مراد يمنع غلال الصعيد من الوصول إلى مدينة مصر، فتوقع الريس جابر أن تشح بالمدينة ويزداد سعرها للعام التالي بسبب هذه الفتنة، وأن البلية سوف تشمل مزارعي الصعيد لبوار المحصول!!.. ثم أن جماعة مراد بك أفحشوا نهباً وسلباً في إقليم الجيزة وأكلوا الزراعات ولم يتركوا على

وجه الأرض عودا أخضراً، إلى جانب ما جمعوه من أموال من الجهات وغرامات الفلاحين ! !

بمجرد وصول المركب إلى المنيا أسرع مرسي إلى السوق فوجد أثمان البهائم ما زالت رخيصة بسبب تعجل الغز في بيعها، فاشترى عنزة حلوباً وحملها وسار ثم توقف ورأى أن يشتري حماراً يدخل به القرية ، وكان البرسيم في موسمه وأعواده قد استوت وجارى حشه ، وفي ذلك اليوم عندما عاد رضوان من حقله وجد حماراً مربوطاً أمام داره فتعجب ، ثم سمع صوت العنزة من الداخل فزاد عجبه ، ثم رأى ولده مرسي مع أم الخير ثم شعر به في حضنه فاغرورقت عيناه ، وفشا خبر الهدية في القرية كلها ، ولما زار مرسي جده حتحوت في المساء باركه العجوز قائلاً :

ـ بشرائك الحمار أرحت ظهر أبيك من حمل الأثقال !

فلما عاد إلى أمه وجدها منشغلة في ترشيح عروس له ، فضحك وأعلن عدم الاستعداد ، لكن في يومه الثاني لفتت نظره صبية قمحية رأته فابتسمت فبدت لها غمازتان في وجنتيها ثم سحبت الطرحة تخفي وجهها خجلاً فرأى عينيها سوداوين ، وقالت أمه :

ـ هذه مبروكة ، ابنة سليمان وفكيهة .

فلزم الصمت وسارت إلى جواره مسرورة وقد وضعت في عزمها أن تتقرب إلى سليمان وفكيهة ، وقبل الغروب بقليل ودعها مرسي ، ومشى معه والده شوطاً من الطريق ، وشكا لابنه من حال الزمان ، فالأهالي غير مطمئنين لا يضمنون أمان الغد ، لذا فقد اقتنوا البنادق ، وعندها تشجع

مرسي وأخذه جانباً وتواريا خلف النخلات الثلاث المتلاصقة ور
طرف جلبابه وأخرج الغدارة وسلمها لأبيه، ذعر رضوان في البد
لكن من يدري فقد يحتاج إليها في يوم أسود، أخذها واحتضن ول
مودعاً وعاد إلى داره ليجده ساكناً، فجلس حزيناً وقال لأم الخير:

ـ ملأ الدار علينا بهجة.

لم ترد عليه وقامت تستلقي، فقام ولف الغدارة في خرقة ثم دفـ
تحت الأرض، وبعد وقت نهض يجاور أم الخير الفراش وقد ذ
العشاء، وإلى شطر كبير من الليل لم يأت النوم إلى عيونهما، و
سكون الليل سمع كل منهما تنهدات الآخر، ثم حدث أن لامست
كفها فضغط عليها في حنان، جذبها يقبلها فاستدارت نحوه واست
نحوها واحتضنها في محبة زائدة وقبل جبينها ووجنتيها وعنقها، واست
في تقبيل وعناق حتى وجدا نفسيهما في أجمل منظر خلقه الرحمن ع
وجه البسيطة، منظر حبيبين على فراش واحد يزرعان الحياة..

وبعد أيام أحست أنها علقت منه، وبعد عشرة أيام تأكدت تما
عندما لم تأتها العادة الشهرية، فركبتها الوساوس وخشيت أن تع
لسيرتها القديمة تنجب ثم تفقد فتحزن وتبكي، ولهذا السبب المعل
نادت على ضاربة الودع الغجرية فجاءت وجلست على عتبة الـ
وفردت منديل الرمل، وسوت الرمل ببطن كفها ثم أمسكت الـو
وأعطته لأم الخير كي توشوشه، فوشوشته وألقته الغجرية إلى الرمل
تأملته ورسمت خطوطاً بأصبعها وقاست مسافات وقرأت لغة الغ
وفهمت معانيها وقالت:

ـ الودع يقول ولد.

تحسست أم الخير بطنها، حدقت الغجرية في الرمل تدرسه ثم قالت:

ـ لكنه يتغرب تغريبة طويلة وهو بعد غلام.

سأل رضوان في صبر نافد:

ـ المهم هل سيعيش أم سيلحق بالسابقين؟؟

اسكتته بإشارة، واهتز هلال النحاس اللامع في طرف أنفها وعادت تستشير الودع مرة ثانية وثالثة ثم قالت فى يقين:

ـ أرى ثلاث إشارات تتحكم فى مصيره. إرم بياضك أولا.

فألقى إليها بنصف فضة وضعتها في عبها ثم أفصحت:

ـ الأولى تولد في بر مصر بهيمة برأسين تأكل برأس وتجتر بالأخرى!!

ـ أي تخريف هذا؟!

نهرته أم الخير فسكت، وأكملت الغجرية:

ـ الثانية تخنق بنات الحور القمر خنقاً كاملاً فينخسف تماماً!

ـ أعوذ بالله.

ـ والثالثة ينكسف جرم الشمس.

ـ والشمس أيضاً، أي غلام هذا!!!

ـ فإن ظهرت الاشارة الأولى ولد بسلام وعاش حتى الثانية فإن

تحققت عاش حتى الثالثة ، فإن حدثت كتبت له الحياة ، قل بإذن الله .

فقدم المشيئة وألقت إليها أم الخير نصف فضة أخرى ، فأضافت الغجرية :

ـ لكنه سيسيح في أرض الله يكابد ويعاني ، تغريبته في بلاد الناس تطول عدة أعوام ، ينزل شمالاً فيجد قتالاً ونزالاً ويرى الأهوال وانقلاب الأحوال ، حيث يتسلطن الفأر على القط ويركع الأسد للقرد ، ثم يصعد جنوباً فيعاشر السباع ويسبح بين التماسيح ، لكنه ينجو بإذن الله .

قطبت أم الخير ، إشارات عسيرة التحقق . . قال رضوان للغجرية :

ـ عجيب كلامك يا امرأة .

فعادت تسكته بإشارة قاطعة :

ـ وأرى أنهاراً من الدماء ووابلاً من السهام والنبال وجبالاً قمتها في القمر ومياهاً يتطاير في الهواء رذاذاً .

شعرت برجفة أم الخير فابتسمت تطمئنها :

ـ لكني أرى الشمس في المياه ترسم عنوان الأمان ، ألوان قوس قزح الجميلة ، ويخرج الغلام من جميع هذه الأهوال فائزاً بحكمة الشيوخ وهو بعد في شرخ الشباب .

قال رضوان :

ـ يفوز بحكمة الشيوخ فقط؟؟

ـ قل إن شاء الله وارم بياضك.

عند ذاك ركبه العناد فسارعت أم الخير وألقت من عبها نصف فضة فابتسمت لها الغجرية:

ـ لقد وقع حبك في قلبي أيتها الشابة، أين قفص كتاكيتك؟

أخذتها إلى الحوش الخلفي حيث عنزة مرسى وقفص الكتاكيت، فلما مدت يدها صوصوت الأفراخ وتلاصقت فى الركن البعيد، أمسكت بواحد أسود اللون وقلبت فيه فلما تأكدت أنه كامل السواد سلمته لأم الخير:

ـ احرصي على هذا يا شابة، اعزليه لوحده، اطعميه جيداً، لا تبيعيه ولا تذبحيه لأنه سيكون طعامك يوم الولادة، وسأعود إليك في صباحها.

ثم انصرفت داعية لها بالسلامة، فقال رضوان:

ـ ضحكت على عقولنا وباعتنا دجلها بثلاثة أنصاف فضة.

لكن ولأمر محسوب عند علام الغيوب مضت الأسابيع وجاء شهر يونيو وجاء مرسي زائراً، وكان الوقت وقت بذر الذرة ولاحظ انتفاخ بطن أمه الخفيف، وجلس يسامرها لحين عودة والده، فراح يحكي لها أخبار الدنيا ويقول:

ـ من شهر ونصف تقريباً أرسل مراد بك كتخداه يعني مساعده للتفاوض على الصلح مع ابراهيم بك الذي أراد أن يعطيه الأمان فأرسل إليه ولده الطفل الصغير المسمى مرزوق بك ومعه الدادة

والمرضعة، فلما وصلوا لمراد بك تم الصلح وقدم الهدايا لمرزوق ومن جملتها شيء لا يخطر على البال، عجيبة من العجائب الغريبة . .

وكانت أمه منكبة على المنسج واستحثته فقال :

- بقرة مصفرة اللون ببياض وابنتها السوداء التي ولدت براسين .

جمدت وحملقت فيه :

- أعد ما قلت .

- بقرة برأسين تأكل بفم أحد الرأسين وتجتر بفم الراس الثانية ![1]

فإذا بها تندفع ناحيته وتنهال عليه تقبيلاً، ولا تطيق صبراً وترتدي طرحتها وتغلق باب الدار وتهرول بمرسي إلى رضوان لتزف له البشرى . . وفي اليوم التالي رحل ولدها وقد أنستهم الفرحة موضوع زواجه، وأثناء خروجه من البلد لاحظ أن السلاح يتزايد في يدي الرجال، وعند عودته إلى النهر كان متشوقاً لزيارة مدينة مصر ليرى البقرة التي أفرحت أمه، فقال الريس جابر ناظراً إلى النهر:

- جائز، عندما يفيض النيل المبارك .

واقتصرت أسفارهم إلى الأقاليم القريبة مثل سمالوط أو ابو قرقاص، أو بنقل الحجارة من الجبل الشرقي، وفي وقت البطالة يزور مرسي

(١) العجيب أن الجبرتي يؤكد هذه الواقعة التي ترويها التغريبة، وقد اثبتها في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» في آخر جمادي الأول من عام ١١٩٨ هجرية أي حوالي منتصف ابريل ١٧٨٤ ميلادية وقال انه راى هذه البقرة في بيت أم مرزوق بك الذي بحارة عابدين فكانت من العجائب الغريبة المؤرخة .

أمه، وعندما تنزل هي إلى السوق لتقايض على دواجنها وأرانبها بلوازم منسجها وحاجات البيت تزوره فيرحب بها الريس جابر.

وفي يوم كاد مرسي يقفز فرحة عندما استأجرهم بعض التجار في سفرة إلى مدينة مصر، لكن يوم الرحيل وصل التجار وطلبوا السير جنوباً إلى إسنا، وقال أحدهم :

ـ أنا السبب في الغاء مشوار القاهرة، لأني قادم من هناك بعد مشاق، هناك يا ريس جابر الشدة والغلاء، والمماليك في فتن مستمرة أشكال وألوان، ومصادرة أموال الناس على أشده، وقد انهال الغز المماليك في طلب السلف من تجار البن والبهار، فلما تحقق للتجار عدم إمكانية استرداد هذه السلف استعوضوا خساراتهم من زيادة. الأسعار، وكل هذا على أدمغة العباد، وأبناء البلد ضائعون بين صلح الغز وخصامهم. وبين خروج طائفة ورجوع أخرى، ومن خرج منهم إلى جهة قبض أموالها وغلالها، وحيلهم كثيرة في سلب الأموال والبلاد، وساحل الغلال هناك صار خالياً منها والشون مقفولة وأرزاق الناس مقطوعة، فإذا نحن ذهبنا ببضائعنا فمن الجائز أنها تسلب قبل وصولها إلى تجار مصر ولن نجد من ينصفنا!!

ـ يا خفي الألطاف.

ـ لقد بلغ بهم الحال أنهم مدوا أيديهم في المواريث، فإذا مات ثري من الأعيان بادر أحد المماليك إلى سيده الأمير صاحب الشوكة وقبل يده وطلب منه أن ينعم عليه بزوجة الميت فيجيبه إلى ذلك فيركب في الوقت والساعة ويذهب إلى بيت المتوفى ولو قبل جنازته، وينزل

ويتصرف في ممتلكاته ويحوزها ويطرد الورثة الشرعيين ويقيم بمجلس الرجال ينتظر انقضاء العدة يأمر وينهي ويطلب الغداء والعشاء كأنه في بيت أبيه، فإذا رأته زوجة المتوفى شاباً مليحاً قوياً وجاء على مزاجها أظهرت له المخبآت والمدخرات، فيصبح أميراً من غير إمارة وتتعدد عنده الخيول والخدام والفراشون!!

هز الريس جابر رأسه من شدة الأسى وهو يوجه دفة المركب، وقال مرسي:

- الحال من بعضه، رأيت بعيني ما فعلوه في بلدتي تلة ولكنهم لم يقربوا المواريث.

صاح الريس جابر:

- وهل في بلدتكم مواريث؟

فقال التاجر:

- نحن أخف حالاً من الأقاليم البحرية لبعد المسافة ولكثرة البنادق والعصبيات، هناك يأخذون منهم إلى جانب الميري الفرد ورفع المظالم وجميعها أنواع من المظالم، حتى أهلكوا الفلاحين فضاق ذرعهم واشتد كربهم وطفشوا من بلادهم وانتشروا في طرقات مدينة مصر بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشر البطيخ وغيره فلا يجد الزبال شيئاً يكنسه من ذلك، واشتد بهم الحال حتى رأيتهم بعيني رأسي وهم يأكلون الميتات من خيل وحمير وجمال، فإذا ألقى بحمار ميتاً تزاحموا عليه وقطعوه

وأخذوه، ومنهم من رأيته يأكله نيئاً من شدة الجوع، ومات الكثير منهم[1].

سكتوا شوطاً من السكة والمياه تلطم المركب والهواء يدفعها، ومع دخول إسنا بعد أن باتوا في أكثر من محطة ابتسم التاجر وقال :

ـ بلدة عظيمة مثل أسيوط، محطة تقصدها القوافل القادمة من السودان ودارفور وسنار.

سأل مرسي عن سنار ومكانها فقال التاجر:

ـ أظنها في السودان من ناحية بلاد الأحباش.

ثم أشار إلى حديقة جميلة تحيط بقصر عند أقصى المدينة :

ـ والأمراء المغضوب عليهم يلجأون إلى إسنا لبعدها، وهذه هي حدائق حسن بك الجداوي أحدهم.

وعلى البر زاروا أكبر سوق للجمال في بر مصر المحروسة، واشترى مرسي لأمه ملاءتين من القطن ولأبيه جلباباً من الصوف وجميعها من نسيج الأهالي، وتذكر شغل أمه على المنسج والطرز الجميل الذي تعمله

---

(١) الميري والفرد ورفع المظالم وحق الطريق : انواع من الضرائب باهظة، وكانت الضرائب واقعة على كاهل الفلاح في معظمها، منها الخراج ويسمى الميري وهو مخصص للسلطان في تركيا، والكشوفية وهي للبك الكاشف حاكم الأقليم، والفائض وهو ما يفيض بعد دفع الميري والكشوفية ويستولي عليه الملتزم، وبمرور الوقت صار الكاشف هو الملتزم. وبالنسبة للمدن كان الميري يساوي جزء من اثني عشر الدخل العام ويحصل على الصناعات والمتاجر والسفن والقوافل وعلى الرؤوس والوظائف العامه. ومدينة مصر يقصد بها القاهرة، أما مصر المحروسة فهي الوطن جميعه.

وتبيعه الدلالة لنساء المنيا المستورات.

بعد العودة زار والديه وجده حتحوت وقد زاد حمل أمه وبرزت بطنها، ثم رجع إلى النهر وساحوا شمالاً وجنوباً، ثم زار القرية وبمجرد رحيله أحست الأم بدنو الطلق فأخذها بعلها رضوان إلى بيت أبيها حيث وضعت ولداً فقالت لزوجها:

- بهذا تحدثت الغجرية، أخرج وأحضرها..

فخرج يبحث عنها في أنحاء البلدة ولم يجد أحداً يعرف مكانها وبعضهم لم يسمع عنها فتعجب أشد العجب لأن أي عابر غريب يشعر به جميع الأهالي، فاتجه غرباً وصعد كثبان الرمال وهبط حتى وصل إلى مضارب العربان وسأل الشيخ عنها فأنكر معرفته بها، وكانت الشمس في عينيه فأعطى ظهره للغرب واتجه شرقاً وظله أمامه عائداً إلى أم الخير، وأقسم بغلاوتها أنه بحث في كل مكان، وتألم من نظراتها القلقة إلى الوليد.

لذا كانت فرحته كبيرة عندما دق الباب مع شروق اليوم التالي وفتحه ليجد الغجرية باسمة وهلال النحاس اللامع يتأرجح في طرف أنفها، فرآها جميلة مثل الصباح ورحب بها أعظم ترحيب، وبعد أن جعلته يحضر الكتكوت الذي أصبح ديكاً كبيراً كامل السواد بلا أية علامة بيضاء أخذها إلى أم الخير التي تهلل وجهها لسماع صوتها، وهنأتها الغجرية وباركت، ثم أمسكت بالديك في يد وبسكين حامية في اليد الأخرى وجعلت رضوان يقرب رأسه من رأس زوجته وذبحت الديك

ثم وضعته في ماء مغلي ونتفت ريشه وأخرجت احشاءه ووضعتها في كيس صغير مع خلاص الوالدة وأعطته إلى رضوان ليدفنه تحت عتبة داره، أراد أن ينفحها بقطعة من ذات الخمسة فضة لكنها أرجأت هذا إلى السبوع، وقالت لأم الخير:

ـ عندما يصل هذا الولد عمر السابعة بإذن الله طرزي له طاقية.

ثم انصرفت بعد الدعاء وبوعد أن ترجع يوم السبوع، يوم اختيار الإسم ويوم الاستحمام الأول للوليد الذكر، وبعد انصرافها مضى رضوان بالكيس الصغير ودفنه تحت عتبة الدار إلى جوار الغدارة التي أعطاها له مرسي، بينما انهمكت أم الخير طوال الستة أيام التالية في البحث عن اسم يكون شاذاً وغريباً كي يصد الحسد، وبعد عدة أسماء قال رضوان:

ـ ولماذا نذهب بعيداً ولدينا إسماً غريباً في العائلة، فليكن اسمه حتحوت على اسم والدي.

وفي يوم السبوع كانت القابلة جاهزة لإحمام الوليد حمامه الأول لكن الغجرية جاءت وأصرت على أن تقوم بذلك فانصرفت القابلة مغضبة، بينما ملأت الغجرية الإبريق بمياه نظيفة ومزجته بمادة شفافة ووضعت الطفل في طست صغير وراحت تحممه متمتمة بالأدعية المناسبة، ثم نشفته ولفته بلفافة نظيفة وسلمته لأمه، واحضرت المنقد الفخار وجعلت فيه بعض الجمر وضعت من فوقه بعض الشبة فتشكلت إحداها في هيئة وجه حسود، أخرجتها ووضعتها في الهون وسحقتها ثم بعدذلك مزجتها ببعض الخبز الطري المغموس بالمرق، وخرجت إلى

الحارة وألقتها إلى كلب أسود وظلت واقفة حتى رأته يلتهمها، وعند ذاك عادت إلى أم الخير راضية البال وقالت:

ـ هكذا تنتهي وصفتي من أجل حتحوت الطفل ولن أقبل مالاً.

فأهدتها أجمل مناديلها المطرزة بالحرير الأحمر والمذهب، أخذته الغجرية باسمة:

ـ أقبله يا أصيلة لأنه صنع يديك.

ثم أعطتها حجاباً ونبهت قائلة:

ـ هذا يجب تعليقه حول عنقه بحيث يتدلى تحت إبطه الأيمن ليحفظه الله من كل سوء.

وانصرفت ولم تظهر بعد ذلك اليوم لأمر لا يعلمه إلا علام المستور.

دمعت عينا أم الخير وهي تشايعها بالشكر والعرفان، ثم تأملت وليدها حتحوت وابتهلت إلى إله الكون أن يحفظه وأن يرسل بالإشارتين التاليتين، خسوف القمر وكسوف الشمس..

ثم أن أخواتها وأمها انهمكن في إكمال طقوس السبوع، فجاءوا بالغربال وملأوه بحبوب الفول وأحضروا الشموع والهون، والبليلة للأطفال الذين توافدوا، فخرج رضوان إلى الحقل بعد أن أحكم من وضع العباية حول رأسه وجلس منزوياً يتأمل الزرع، ورغم برودة الشتاء تملكته هزة دافئة جعلته يرى كافة المزروعات جميلة وكأنها شجيرات الورد والفل والتمر حنة، وترك نفسه للنسيم العبق..

انتهى السبوع بعد أن طاف الأولاد في أرجاء الدار وفوق السطح،

ثم انتهت أيام النفاس وعادت أم الخير لدارها فوجدت جدياً مربوطاً أمام دارها، رأت أذنه مشرومة ففهمت أن رجلها نذره من أجل حلقة الشعر الأولى للطفل حتحوت، ابتسمت:

ـ ألأنه جاء بعد أحد عشر عاما من زواجنا ؟!

ـ خمسة عشر يا غالية.

ـ إنك لم تفعل هذا مع مرسي وكان البكرى.

ـ سيلفت الجدي أنظار الناس فلا يلتفت حسود إلى الطفل

فباركت فعله وأطلقت الجدي من رباطه، وصار كل من رأى أذنه المشرومة يعرف أنه منذور فيتركه يرعى في أي مكان حتى حقول القمح، وبعد عام كامل امتلأ لحماً وشحماً فأرسلوا في طلب المزين من المدينة فجاء بمخلاته، وأحضرت الأمهات جميع الأطفال الذين في عمر حتحوت وكانوا ستة وهو سابعهم، أجلسهم المزين متجاورين، وصار يحلق لكل واحد منهم حلقته الأولى بين زغاريد الأمهات فلا يترك شعراً في رأسه، وكل أم تحرص على جمع شعر طفلها وعجنه في كرة من الطين ثم تلقي به إلى القناة الصغيرة الآخذة مياهها من النيل المبارك، وبعد ذلك جاء من ذبح الجدي المسمن وسلخه ثم قسموه بينهم للطهي وعمل الفتة، وبمجرد أن ألقت أم الخير كرة الطين إلى الماء حتى دفعها إحساس غريب للنظر جهة الشرق فنظرت ورأت ابنها مرسي قادماً يسحب من خلفه بقرة صغيرة قدمها إليها قائلاً:

ـ عوضاً عن البقرة التي أخذها مراد الغادر.

غير أنه في هذا العام لاحظ رضوان أن ولده حتحوت قد تأخر في الحبو، كما تأخر في النطق عن باقي أقرانه، كما أنه نادر البكاء، ينام ساكتاً محملقاً إلى السقف إن كان نائماً على ظهره، أو محملقاً إلى الحائط إن كان نائماً على جنبه، إن أرقدوه ظل راقداً دون تقلب، وإن أجلسوه بقي جالساً أما إن تأخرت أمه في الرضاعة علا صراخه ووصل إلى أسماع الأقاليم المجاورة، ولم يعد يكتفي بلبن أمه واستدار يأكل كل ما يقع تحت يده ويقدر على بلعه، فأعجب هذا أمه وقالت:

- مرسي فطمته بعد عامين، هذا أراحني وقارب أن يفطم نفسه، كم يحب الأكل!!

فضحك رضوان:

- أكول وكسول!

- هذا أفضل، الكسول لن يتغرب.

رغم كسله ملأ البيت بهجة وحديثاً عن نوادره، وإن خرجت أمه

للماء تحمله على كتفها كركوب الحصان والبلاص فوق رأسها، وما أن تنتهي من أعمال الدار حتى تجلس إلى المنسج تطرز وتنظر إليه من حين لآخر وتلاغيه بحلو الكلام وهو يرمقها دون انفعال، فإن رآها تقدم له أي طعام ابتسم فتضحك . . غير أن الهواجس كانت تركبها أحياناً فتنتظر حلول البدر كل شهر وتتطلع إلى السماء على أمل أن تخنقه بنات الحور لتتم الإشارة الثانية التي أخبرتها بها الغجرية . . ثم نسيت الهواجس وانصرفت عن الوساوس مع انهماكها في تربيط العلاقات مع فكيهة وسليمان من أجل خطبة ابنتهما مبروكة لمرسي، وبأنوثتها فهمت مبروكة فأكثرت من زيارة أم الخير وصار القبول متبادلاً، ودفع مرسي مهراً سخياً من أمواله لدى الريس جابر وبقي له قدر كبير فقال له الريس:

ـ الباقي سيكون جزءاً من ثمن المركب، قلت سأبيعها لك وسأفعل ولكن بعد أن أطمئن عليك، أنت الآن تعرف معظم النهر لكنك لا تعرف جميع أسراره، وسأعلمك الباقي عندما نبحر إلى مدينة مصر العامرة.

ـ متى؟؟

ـ عندما تروق الأحوال، الغز هناك مستمرون في التشاحن فيما بينهم والتعدي على الأهالي.

وكان جملة ما دفعه مرسي مائة ريال مهراً بالعد والحصر، وكان الريال يساوي أكثر من مائة وعشرة فضة، فذهبت أمه مع رضوان وفكيهة وسليمان وابنتهما مبروكة إلى المنيا لشراء الجهاز: حشية محشوة قطناً ووسادتان ولحاف وصندوق الملابس من الخشب المدهون ومرآة، والطبلية والطست والإبريق وحلتان من النحاس المبيض، إلى جانب

الشبكة سوار من الفضة الخالصة وحلق ذهبي صغير الحجم وكردان من قشرة الذهب وثوب الزفاف الأحمر وقميص لبني وآخر أصفر ساتان . . ثم دخلوا القرية بجميع ما اشتروا فوق ظهر جمل ، وحرصوا على وضع المرآة في المقدمة فانعكست أشعة الشمس عليها متنقلة من مكان لآخر مع اهتزاز الجمل ، الذي طاف بالقرية حارة حارة تحيط به الفتيات بالأغاني ويتقدمه أحد الرجال حاملاً مجمرة يحرق فيها البخور البري وآخر يرش الناس بماء الورد من قمقم صيني ، وكلما مروا من أمام دار جاملتهم ربته وبناتها بالزغاريد، بحيث كانت زفة الجمل مثل زفة الأكابر من أبناء البلد .

ثم أن أم الخير كانت قد أضافت غرفة إلى دارها وزينتها من أجل اقامة العروسين ، رأت أن ذلك هو الأفضل لأن ولدها عمله في النهر ويتغيب كثيراً فتكون العروس في رعايتها، ورضي مرسي بهذا الحل ، وفي هذه الغرفة فرشوا الجهاز ورتبوه حتى بدا كأحسن ما يكون .

وليلة الحنة جاءت النسوة والدايه وأحممن مبروكة ومشطن شعرها ثم خضبن كفيها وباطن قدميها بالحناء ، ولم يكن شعر أبطيها قد نبت بعد .

ويوم الزفاف استحم مرسي في دار جده حتحوت، وجاءه المزين وحلق شعره وذقنه ووضع الحنة في كفيه ، وعندما حان موعد الزفة خرج عند الغروب يحيطه الرفاق وزملاؤه النوتية ببعض الشموع ، والنسوة ينثرن الملح في الهواء . . وكانت العروس قد سبقته في الهودج بثوب الزفاف الأحمر وشال أزرق بدعة في الجمال من صنع أم الخير ومعها أخواتها وصاحباتها، ومن ورائهن النسوة يغنين حتى الدار الذي زينوه

بسعف النخيل وببعض الفوانيس، وجاء الريس جابر وتحامل عليه أخوه حتحوت العجوز، واستمر دق الطبول والدفوف وزمر النايات والأرغول ورقص البنات الصغيرات وتحطيب الرجال، إلى أن خرج سليمان بالمنديل الأبيض وفيه دماء شرف مبروكة، فانطلقت البنادق معلنة النبأ.. ولاحظ الريس جابر أن جميع الرجال تقريباً صاروا يمتلكون البنادق تحذراً من غدر الزمان والغز والبك الكاشف الملتزم.

وجاءت هدايا الخلان والنوتية: سكر وبن وأرز وشمع، وأهداهما الريس جابر عنزة صغيرة[1].

يوم الفرح سعد حتحوت الطفل سعادة كبيرة عندما وجد في يده قطعة لحم لذيذة ظل يراودها من كافة جوانبها وقد نسي تماماً الزحام وأصوات الفرح، لكنه في الأيام التالية لاحظ وجود ساكنة جديدة لطيفة تتحرك في خجل وحياء بدأت تداري خجلها بحمله وتقبيله فاستحسن ذلك، وعندما بدأت تخصه بالكثير من حلويات العرس أحبها وتعلق بها، وبسبب حلوياتها تعلم المشي، صارت تجلس وتلوح له من عند الحائط المقابل فيقف ويحاول المشي مسرعاً نحوها، بعد خطوات يقع فيكمل المشوار حبواً لينال الحلوى.. دهشت أم الخير من فعل مبروكة واطمأنت إلى أنها ستكون أماً فالحة تعرف كيف تسايس أطفالها، وجرتها السيرة إلى الفضول فسألت العروس سؤالاً أخجلها فتأكدت أن ابنها سيرزق بطفل بعد شهور الحمل الواجبة.

وكان السلطان التركي قد أرسل إلى مصر محارباً صارماً اسمه حسن

---

(١) النوتية أي المراكبية، ولم يكن المصريون قد عرفوا الشاي بعد.

باشـا القبطـان[٢]، بقصـد تأديب مراد بك وابـراهيم بك، فهربـا من وجهه، وعلى هذا صارت الفتنة بين الروم وبين الغـز علـى أشدهـا، وراح الناس يتابعون لعبة القط والفأر الدائرة بينهم، وجاء الغز إلـى المنيا فأغلـق النـاس الحـوانيت وأبـواب الحـواري وتحصنـوا فوق الأسطح وظلوا في انكماشهم إلى أن شاهدوهم يواصلون الهرب جنوباً بأفراسهم وجمالهم المحملـة، ثم رأوا بحر النيل يمتلىء بالمـراكب المسلحة والغليونجية الروم[٣] بقصد تعقب الغز ونزالهم، ومنهـم من مكث بالساحل وقتاً للتزود بالأطعمـة، دفعـوا أثمـان بعضهـا وسلبـوا الباقي، ثم ارتحلوا لتعود الطمأنينة إلى الأهالي عدة أيام خرجوا فيها يستمعون إلى أخبار النوتية فعرفوا أن الغز وصلـوا إلـى أسيوط وبنـوا المتاريس على النهر ونصبوا المدافع لكن مراكبهم غرست في أماكنها وفقـدت القـدرة علـى المنـاورة. ثم عاد الأتـراك من جديد مع رؤية الأهالـي لبعض الغـز يعـودون من الجنـوب فأغلقـوا الأبـواب، لكن العسكر اخترقوا المدينة من غير توقف، فقيل أنهم تخلوا عن مراد بك وأخذوا من الروم فرماناً بالأمان للعودة.

بعد ذلك تعود الأهالي على رؤية مراكب الحرب الرومية كل عدة أيام أو أسابيع ذاهبة إلى أسيوط بالمؤن والذخائر، ثم عائدة منها بالمصابين والجرحى، وعندما حاولت بعض الفلول نهب الناس قاوموهم فكانت الخسائر قليلة. .

(٢) كان يعمل ساري عسكر السفر البحري المنصور، أي ما يعـادل القائـد العـام للبحرية التركية.
(٣) البحارة الأتراك، والغليون هنا مركب حربي.

وهذا ما كان من أمر مدينة المنيا أما قرية تلة فقد صار مرسي يبيت معظم الليالي بها، وتمنت امرأته مبروكة ولداً فشاء صاحب الكون أن يرزقها ببنـت لم تتحمس لهـا كثيراً، لكن أم الخير طارت من الفرحـة وقررت أن تسميها زهرة فكان لها ما أرادت، وابتسمت لابتسامة زهرة، وأقامت لها سبوعاً عظيماً في بيت سليم جدها وقالت:

ـ زهرة مثل الزهرة، وكحيلة العينين بلا كحل.

وسعد حتحوت الصغير بطبق من الأرز باللبن، أما حتحوت الكبير فعندما عرف بالخبر أتى بفعل غير عادي، إذ تحامل وذهب بنفسه ليراها ويباركها فضحكت أم الخير وقالت:

ـ خطوة مباركة، لم تفعلها مع مولد ابني مرسي وكان أول أحفادك.

ـ لأنها بنت جئت يا أم الخير، أنا فرح بها.

بعد قولته هذه لاقت زهرة الترحيب حتى من أمها التي كانـت تريد ذكراً. وعندمـا عادت إلـى البيت كان الخـوف من أن يشعـر الطفـل حتحوت بالغيرة، لكنـه راح يمـارس هوايتـه في اللعـب مع الأرانـب والكتاكيت، فضحك أبوه رضوان وقال:

ـ لا فرق عنده إن زاد الدار واحد أو أكثر.

فلما اقترب موعد مجيء الصراف بدا التوتر على الجميع، وكانوا قد سمعوا عن الحرب الدائرة بين الغز والروم وتوقعوا أن ينشغل الطرفان عنهم لحين انقضاء المعامع، فلما جاء النصراني الشاب لجمع الميري والكشوفية والفرد دار الخفيريجمع له الوجبة المعتادة من عنز وفـطير وجبن ودواجن، ثم لاعبوه لعبتهم السنوية فطالبوا التأجيل، وصدّروا

له مرقص النصراني فرفض الصراف، وعندئذ أعلنوا عجزهم عن الدفع، فمضى مغضباً على جواده ومن خلفه خادماه يحملان محتويات الوجبة، وتوقعوا المتاعب فبدأت البنادق تخرج من مكامنها، وثقل عليهم الانتظار، ثم إذا به يعود ذات يوم بارد ومعه الكاشف الجديد بالملابس الزاهية وعسكره، ما أن رأوا غبرته من بعد حتى جروا إلى بنادقهم، ومن كان في الحقل تركه وانضم إلى الآخرين، ووصل الكاشف منفوخاً ورأى البنادق في أيديهم فخرج الشرر من عينيه وسب ولعن وهم صامتون لا يتحركون، فتحفز عسكره وتوترت أعصابهم وشهروا البنادق، لكن الكاشف تلفت إلى أسطح البيوت الواطئة فلمح فوهات بعض البنادق تحاصره من كل مكان فجنح إلى الملاينة وخاطب شيخ القرية بلكنة أعجمية:

- تريدون مهلة؟

- يريدون مهلة يا مولانا إلى حين ميسرة.

لكم هذا.

ثم استدار عائداً بين دهشة الصراف والفلاحين، وراح عسكره يسابقونه في الابتعاد، وطاردهم عدد من الكلاب بالنباح حتى حدود القرية، بينما بقي الأهالي جامدين في أماكنهم وكأن ساحراً سخطهم أصناماً، فلما تخلصوا من دهشتهم راحوا يهللون ويتصايحون، وبعد أن راحت السكرة جاءت الفكرة وجلسوا يتشاورون، فكان من رأي كبار السن أن هذه ليست النهاية وإنما البداية، وفي هذا المجال قال حتحوت العجوز:

ـ سيعود قريباً بمزيد من العسكر.

فحط عليهم الوجوم من جديد، وفي اليوم التالي شيد بعضهم فوق دورهم سواتر صغيرة يحتمون من ورائها إن حانت ساعة التراشق، أما مرسي فعندما علم عاد منزعجاً وأكد لهم خبر فرار إبراهيم بك ومراد بك خوفاً من حسن باشا القبطان الجبار الذي يرأس جميع المراكب الرومية في المياه العذبة والمياه المالحة، والذي ما إن وصل ثغر رشيد حتى أعلن رفع المظالم عن جميع الفلاحين في الديار المصرية وأنهم لا يدفعون سوى الميري.

فاستبشر الأهالي لكن جده حتحوت سأل في شك عظيم:

ـ متى قال ذلك؟

ـ منذ حوالي ستة أشهر، يوم وصوله.

ـ أنا لا اصدقه.

وما مر يومان أو ثلاثة إلا وعلت غبرة عالية كثيفة وطويلة لا أول لها ولا آخر، فجروا إلى بنادقهم وتحصن بعضهم خلف سواتر الأسطح، ومضى وقت صغير مر كالدهر ثم اسفرت الغبرة العظيمة عن جيش مملوكي رهيب على رأسه مراد بك شخصياً، وبسرعة كانت فرسانه تحاصر الأهالي من كل صوب فدب الرعب في قلوب الجميع، وحط الهول على رؤوس النسوة، وصمت كل شيء إلا من صهيل الجياد وخبطات حوافرها على التراب واصطكاك السيوف بالسروج والسنابك.. وصرخ مراد بك:

ـ أين الحمار؟

فحدثت حادثة من أعجب ما تكون، إذ شاءت الظروف أن يتقـدم حمار صغير منه، فابتسم الأهالي لكنهم سارعوا بالتجهم رهبة، ونظـر مراد بك ثم قال:

ـ لا أقصد هذا الحمار، أقصد الآخر شيخ القرية.

فركع أمامه:

ـ خادمك المطيع يا مراد بك.

ـ منذ ثلاثة أعوام قتلتم الكاشف..

ـ لسنا نحن.

ـ اخرس، ومنذ أيام رفعتم البنادق على الكاشف الحالي

ظل شيخ القرية خرساناً وبعد صمت ثقيل قال مراد:

ـ حسناً فعلتم هذه المرة.

ظنوه يسخر وتوقعوا بدء الطعان، لكنه قال بصوته الأجش:

ـ هذا الكاشف لا يتبعني، إنه كلب حسن باشـا القبطـان الرومـي الذي ليس منا وإن عاد إليكم لا تدفعوا إليه نصف فضة واحدة.

فصاحوا في حماس:

ـ أمرك واجب النفاذ يا مراد بك.

ـ ولكن تدفعون لي أنا وحدي، مفهوم؟؟

فلم يجب أحد، وإذا بمرسـي يشـق طريقـه في شجاعـة البواسـل

ويتقدم منه في جرأة سباع الفلا ويقول في أدب أبناء الأصول :

- يا مراد بك نحن فقراء ندفع الميري كل عام بالكاد، لكننا لا نقدر على دفعه مرتين، إن نحن دفعنا لكم ثم جاء الروم من بعدكم فمن يحمينا نحن الضعفاء.

- يعني تخشونهم ولا تخافون مني؟!

- نخاف ونرتجف، نحن نرجو منك سعة الصدر، ونحن رجالك، أنتم تعيشون معنا في مصر المحروسة أما هم فديارهم بعيدة ولا نعرفهم.

- أحسنت.

- نريد المصالحة على القرية[1].

- كم تدفعون؟

- تعفينا من الميري.

- مجنون.

- يا جناب مراد بك، أنت متوجه إلى أسيوط وتحتاج إلى مراكب في النيل، أنا عندي مركب كبير، وسأصبح من رجالك أنقل لك ما تشاء، وعشمي أن تسامح هؤلاء الفقراء.

فتلفت مراد إلى رجل خلفه وسأله عن المربوط على هذه القرية فلما

(١) المصالحة: أي أن تدفع القرية فدية مقابل العفو عنها.

أكتشف صغر المبلغ أعلن الموافقة، وأمر مرسي بأن يتبعه على الفور، وإذا بصوت عجوز ينادي عليه.

ـ يا مراد بك، يا بك.

التفت، فتقدم منه حتحوت العجوز:

ـ هل يطمع عجوز مثلي في وعد من كبير البكوات بأن تضمن الأمان لحفيدي هذا.

ـ سيكون له ما لرجالي.

ثم علت غبرة مراد وجيشه تبتعد آخذة معها مرسي، فشعرت أم الخير أن قلبها يخرج من صدرها وغشى عليها، ولطمت مبروكة بكفها وهي تحمل طفلتها بيدها الأخرى، لكن باقي الناس كانوا فرحين بزوال الغمة، وقال فلاح:

ـ إنصرف خوفاً منا.

فنهره شيخ القرية:

ـ عد لعقلك يا غبي، أنت فلاح تعمل بالفأس، وهم عسكر عملهم قطع الرقاب، الفضل لله ولمرسي الهمام.

ثم اختلفوا فيما بينهم إن كان هو مراد بك أو آخر، وأفتى أحدهم بأنه هو ولكن الأهوال غيرت من سحنته[1].

ودام نواح أم الخير ومبروكة أياماً، وامتنع رضوان عن الخروج إلى

---

(١) يقول الجبرتي أنه في يوم ٥ يناير ١٧٨٧ وصل الخبر (إلى القاهرة) بوصولهم (أي المماليك الهاربين) إلى أسيوط، وإن منهم من تخلف بالمنيا، وعلى هذا فقد تكون زيارة مراد للقرية قد حدثت في أواخر ديسمبر ١٧٨٦.

حقله، وعندما لم يكفوا جاءهم حتحوت الجد في وفد من الأهالي ونهرهم ووبخهم وقال:

- مرسي صغير الجسد كبير العقل، وهو أدهى من ولد من بني حتحوت، بطل أنقذ القرية كلها بحيلته، ومراد بك أعطاني وعداً وسوف يفي به شأن الحكام ورؤوس الجيوش.

ثم التفت إلى ولده رضوان آمراً:

إنهض واذهب إلى حقلك، وتعلم كيف تكون شجاعاً أمام حريمك.

فنهض من فوره خجلان، وتماسك وتجلد وطلب من رب السماء الصبر على كل ضراء، وتحسن حال مبروكة وأبدت تجملاً عظيماً لهذه البأساء وانكبت ترعى طفلتها زهرة وتساعد حماتها وتلاعب حتحوت الرضواني، لكن أم الخير ظلت كما هي باكية عازفة عن الأكل والشرب إلا القليل، وأصرت على لبس السواد حتى يعود ضناها، وإذا بالسماء ترسل لها ما جعلها تستبشر وتنتعش، فقد كانت راقدة تتململ على فراش السهد في ليلة باردة، وإذا بجميع الضفادع تكف عن النقيق بغتة والكلاب تمتنع عن النباح فجأة، فتنبهت وخافت أن يكون حيوان النمس قد تسلل إلى دواجنها، وكانت تعرف أنه يهوى أكلها، فنظرت إلى الحوش وخيل لها أن جميع الطيور والعنزة تصحو من نومها وتدير آذانها منصتة، ثم إذا بها تسمع الهمهمات تعلو من أنحاء القرية، وبعد وقت سمعت ضجيجاً يعلو في الطرقات وخبطاً ودقاً على الصفائح، فخرجت إلى باب الدار مستبشرة، وصدق حدسها عندما رأت القمر مخنوقاً، والأطفال يحدثون ضجيجاً عالياً كي تتركه بنات الحور[1].

---

(١) في ٤ يناير ١٧٨٧ حدث فعلاً أن «كسف جرم القمر جميعه».

وعندما لحق بها رضوان ثم مبروكة بلمبة الزيت رأيا أم الخير تبتسم لأول مرة منذ رحيل مرسي مع غبرة مراد بك، ثم فوجئا بها تنهر الأطفال الضاجين بأن يعودوا إلى بيوتهم وتصرخ:

ـ ما لكم ومال القمر، اتركوه يختنق.

فلما سمعت ضحكة رضوان تنبهت ودخلت الدار سعيدة ومالت تقبل حتحوت النائم:

ـ هذه اشارتك الثانية، ستحيا بإذن الله.

فقال رضوان:

ـ بشرة خير، وسيعود مرسي سليماً بإذن الله.

وناموا جميعاً في هناء.

أما عن مرسي فبعد أن توجه مع الغز إلى مدينة المنيا إذا بمراد بك يأخذ معظم جيشه ويتجه جنوباً قاصداً أسيوط وقد وردته الأنباء بقرب وصول غلايين الروم المسلحة مع تجريدة كبيرة لقتاله، فسلم مرسي جملين محملين بالبنادق وزكائب البارود، وأرفق معه خمسة من العسكر، وانتظروا الليل وذهبوا إلى موردة الحنش عن طريق الجسر بحيث لا يخترقون المدينة، وأنزلوا جميع ذلك إلى المركب، فأصيب الريس جابر بالرعب لكنه لم يقدر على الاعتراض، وبات جميع من بالمركب في انتظار الفجر للرحيل بالحمولة، ومنعهم الهم من النوم، وظلوا يدعون حتى طلعت الشمس، فبدأوا يحلون الحبال ويرفعون السقالة، لكن غبرة صغيرة جاءت من جهة الجنوب وصل معها عسكري مملوكي خاطب مرسي قائلاً:

ـ مراد بك يأمرك بعدم الإبحار وبالقاء ما معك من سلاح إلى البحر

فشعر بزوال الهم وقال في حماس :

ـ سمعا وطاعة للبك الأمير، تفضل أفطر معنا .

لكن العسكري كان قد استدار على عجل ومضى في سرعة السهم ، وعند ذاك صار الجميع في ضحك وحبور، ثم جلسوا يفكرون بما يفعلون في حمولة السلاح ، فقال مرسي في حسم قاطع :

ـ تبقى هنا في أجولتها، وسأذهب إلى القرية وأعود بجملين وأحملها ليلاً إلى هناك .

وقبل فجر اليوم التالي دخلت الحمولة القرية واختفت من قبل استيقاظ الأطفال ، بحيث أن الشمس عندما سطعت كان كل فلاح يعمل في غيطه بعد أن أخذ نصيبه من البنادق والذخيرة . . والتفتت أم الخير إلى رجلها رضوان مهللة لمرأى مرسي :

ـ ألم أقل لك أنه سيعود سليماً، قلبي لا يخطىء .

وفي هذه الليلة ناما في سعادة، وكانت هي التي دخلت إلى حضنه وقبلته، فجامعها وعلقت منه لتوها . .

وظل الأهالي يحتفون بمرسي بطل الأبطال وإلى أن شغلتهم مشاغل العمر . .

أما عن تجريدة الروم فقد وصلت إلى مدينة جرجا[1] وفتكت

(١) في النص الأصلي : دجرجا، ويبدو أنها كانت تنطق هكذا .

بأعداد كبيرة من أعوان مراد بك، وبعد ذلك بأيام وبينما كان ا
جابر ومرسي والنوتية في مركبهم أمام المنيا إذا بغليون من غلايين الكبيرةعليه أكثر من عشرة مدافع يأتي قاصداً مدينة مصر، ترتفع جوانبه حراب طويلة، تحمل كل حربة رأس أحد الغز المقه بلحاهم وشواربهم، وعددها أكثر من خمسين رأس . .

حكى مرسى الواقعة لأمه فشعرت بالقرف، وقال هو:

- يبدو أن الروم تمكنوا أخيراً من كسر الغز في جرجا وتشتيت وهذه الرؤوس ذاهبة إلى مدينة مصر كي يصدق أهلها نبأ انتصاره

احتارت إن كان هذا حسناً أم لا .

- هل نحن مع الغز؟

- لا طبعاً، ولكن فوز الروم سيجعلهم يتفرغون لطلب ا واستيعاض نفقات الحرب منا، وهو نفس ما كان سيفعله الغز إذ انتصروا!!!

بعدها بأيام ناموا وصحوا فإذا بغبرة ضعيفة تأتي هذه المرة من الغرب، والعادة أن تأتيهم من الجهة الشرقية، فتعجبوا ووصلت ا بخمسة من الغز في غاية الإعياء، فتجمع الرجال والنساء والأط واستقبلهم شيخ القرية في جمع مسلح وفوجىء بأحدهم يتر ليخاطبه:

- السلام عليكم يا شيخ.

فرد السلام متعجباً من استكانته وأدبه . . قال العسكري:

ـ نعرف أنكم كرام وسنكون ضيوفكم .

فأخذهم إلى المضيفة وقدم لهم الطعام فأكلوا وشبعوا وناموا، وبقي الأولاد يتحدثون عنهم ، وفي صباح اليوم التالي ذهب شيخ القرية إليهم بصحبة عدد من الأهالي وطلبوا منهم الرحيل، فقال أحد الغز وقد راح تعبه :

ـ بل سنبقى وكأننا منكم .

فعادوا للتشاور واختلفوا فيما بينهم ، وتركوهم يومين آخرين ثم خاطبوهم قائلين :

ـ إن كنتم تريدون البقاء معنا فعليكم أن تعملوا مثلنا .

ـ ماذا نعمل؟

ـ العمل الوحيد هنا هو الزراعة .

ـ لسنا فلاحين ، ولكن يمكننا أن نحميكم .

ـ ضد من؟

ـ العربان مثلاً .

ـ العربان بعيدون عنا ، بيننا وبينهم بلاد وبحر يوسف .

ثم أن العسكر كانوا قد استردوا عافيتهم تماماً فشهروا سلاحهم وطردوهم من المضيفة ، فعاد الأهالي للتشاور وأشار عليهم حتحوت العجوز بأن يلجأوا إلى الحيلة مثلما فعل مرسي ، فانتظروا حتى نام الأولاد بحلول الليل ثم ذهبوا إلى الغز ولاينوهم ولاطفوهم شطراً من الوقت ثم غافلوهم وقتلوهم ، ولم يجدوا في عماماتهم جميعاً سوى

مائتين وثلاثين ريالاً، خبأوها ودفنوهم وتوجهوا إلى بيوتهم، وعند الفجر أخذوا جيادهم إلى غرب بحر يوسف حيث أعطوها للعربان هناك مقابل بعض الماعز والجديان لأن منظر الخيول العربية بالقرية يثير الريبة، وعندما استيقظ الصغار وسألوا عن الغز قالوا لهم:

- رحلوا في الليل.

في ذلك اليوم نفسه شاهد الريس جابر من فوق مركبه غلايين رومية عائدة إلى مدينة مصر، ومنها واحد كبير يسبقه غليون مسلح بالمدافع الكثيرة في كل اتجاه ويلحق به عدد آخر مثلها فخمن أنه لكبير رومي..

ولأمر غريب شعرت أم الخير بالخجل عندما انتفخت بطنها وعلم ابنها مرسي أنها حامل، وظل حتحوت الرضواني كسولاً يكره الحركة، وفي اليوم الذي خرج فيه ووقف قرب عتبة الدار ظهرت غبرة الصراف النصراني الشاب الذي استقبله شيخ القرية وطاف الخفير يجمع له الوجبة، هذه المرة كان مهذباً وطالبهم بالميري عن العامين الحالي والفائت، فصدروا له مرقص للتفاوض معه فقال:

- العام الفائت حصله منا مراد بك، ومن زيارتك السابقة تعرف جنابك أننا فقراء.

ففهم أنه يلمح إلى المرة الماضية التي انتهت بقتل البك الكاشف فاكفهر وجهه لكن الخوف غلبه وقد رأى البنادق كثيرة في أيديهم فقال:

- أنا لا ذنب لي، أنا عبد البك الملتزم الذي هو الأمير الكاشف.

تحدث شيخ القرية فانزوى مرقص مندساً بين الناس:

- كلنا أبناء البلد مغلوبين على أمرنا والبركة في جنابك .

- سأشطب الميري القديم .

فشخط شيخ القرية في الخفير:

- اذهب يا ولد ضاعف الوجبة للبك الصراف .

فذهب يجمع المزيد ، وفتح الصراف دفاتره ودواته وقال :

- عليكم هذه المرة سبعة عشر ألف نصف فضة .

فكاد شيخ القرية أن ينادي على الخفير أن يرجع ، لكن حتحوت العجوز قال :

- لماذا بارك الله فيك؟!

- أوامر الكاشف الجديد التي هي أوامر حسن باشا القبطان ، على القرية الكبيرة ٢٥ ألف نصف فضة والمتوسطة سبعة عشرة ألف نصف فضة .

- والأدنى؟؟

- سبعة آلاف .

- كلك نظر يا جناب البك ، بارك الله فيك وفي أولادك وشفى والدك ، طبعاً لاحظت أننا أصغر قرية في هذا البر.

وراحوا يساومونه حتى انتهوا إلى عشرة آلاف فقال:

- موافق ، يضاف إليها الكلف وحق الطريق ، أربعون نصف فضة

على كل دار، وهـذه لن أساوم فيهـا، الـكبيرة مثـل المتوسطـة مثـل الصغيرة.

فخضعوا وظنوه انتهى لكنه قال :

ـ تبقى فردة التحرير.

ـ أي تحرير؟؟

ـ فرضها حسن باشا القبطان بمشورة شيخ البلد الجديد اسمـاعيل بك.

ـ لن ندفع.

ـ كنتم تدفعونها دائماً.

ـ لم يحدث أبداً.

ـ كان اسمها رفع المظالم.

هز حتحتوت رأسه :

ـ أعاد المظالم باسم جديد، قلت لكم أنني لا أصدق هذا القبطان ولا أي رومي آخر.

فدفعوها من أموال الغز الخمسة وانتهى الأمـر بسـلام، وانصـرف الصراف بعد أن حملوه التحيات لوالده المشلـول، وبعـد أن حمّلـوا خادميه بالوجبة المضاعفة شاعرين أنهم بعدم الغبن هذه المرة، خاصة أنهم لم يدفعوا العام الفائت، وكله بفضل حيلة مرسي بن رضوان بن حتحوت.

- ٥ -

بعد وفاء النيل المبارك وبيع القمح ولدت أم الخير بنتاً فرحت بها ودعت الله أن يحفظها، وراحت تفكر في اسم جميل لها فلما رأت سنابل القمح المعلقة فوق باب الدار أسمتها سنبلة، وكررت معها الطقوس الحامية الواقية التي أجرتها لحتحوت الكسلان.

ولأن لكل شيء ميعاد مكتوب، فقد بدأ مرسي يستعد لسفرته الأولى إلى مدينة مصر، والتي انتظرها طويلاً..

وعندما تحركت المركب متهادية تثقلها حمولتها من القمح والزبد وبعض الخرفان والماعز، نظر الريس جابر إلى البحر وقال لمرسي:

- آخر رحيل لي إلى مصر، بعدها تتسلم المركب مقابل ريالاتك التي معي.

- تكون قد غبنت نفسك، هذه الريالات نقصت وهي معك.

- كيف يا ناصح وأنا لم أنفق منها.

- لم تسمع بالخبر إذن، بلغني أنهم نادوا في الأنحاء بأن الريال

صارت قيمته مائة نصف فضة وكان قد وصل مائة وعشرة.

ـ عوضي على الله.

وحملهم التيار معه شمالاً، ومع كل مغيب يبيتون إلى جوار الشاطىء بعد شراء التموين.. ومضت الأيام والريس جابر يحدثهم عن النيل وعن مصر حديث العارفين الواثقين، فقال:

ـ لما خلق الله آدم وجعله يرى ما ستكون عليه الدنيا شرقها وغربها ومن سيسكنها من الأمم، نظرآدم إلى مصر فرآها أرضاً ذات نهر جار مادته من الجنة، فدعا في النيل بالبركة، ومن يومها وهو النيل المبارك وهو سيد أنهار الدنيا..

فنظروا جميعاً إلى النهر نظرة جديدة.. وبعد شهر سمعوا صوتاً آتياً من بعيد وكأنه صوت السواقي، ثم عبروا بجوار شاطىء الجيزة فرأوا البساتين وقصر اسماعيل بك الفاخر الذي يقود الحرب ضد الغز، وعلى مدى الشوف رأى مرسي في صحراء الجيزة الأهرامات الباقيات ولمح رأس أبي الهول تطل من فوق الرمال التي تغطي جسده كله، وقال العجوز جابر عن الأهرامات:

ـ ليس على وجه الأرض بناء باليد حجراً على حجر أعظم منها.

ـ ومن بناها؟؟

ـ قيل أنه شداد بن عاد، لكن القبط ينكرون أن بني عاد دخلوا مصر، لأن مصر كانت تحميها الطلاسم ويقفل السحر حدودها.

ـ فمن بناها؟؟

ـ قيل والله أعلم أحد ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يسكنون «الأشمونين» بالمنيا عندنا.

ـ أنا أصدق هذا، فلماذا بناها؟؟

ـ قيل أنه رأى في المنام أن الطوفان سيغرق الأرض فلما أصبح أحضر جميع رؤساء الكهنة من جميع أهل مصر، وكانوا مائة وثلاثين كاهناً، وسألهم إن كانت آفة الطوفان ستحل ببلادنا فقالوا نعم، فأمر ببناء الأهرام وجعل في داخله الطلاسم والأموال وأجساد الملوك الأوائل، ونقش في سقوفها وحيطانها جميع العلوم الماضية كي يعرفها الأبناء والأحفاد، وقد سمعت عن أحد المسنين أنه بلغه عن جده نقلاً عما حكاه الأقدمون الذين رأوا الخليفة المأمون يحضر إلى مصر، سمعت أنه أمر بفتح واحد منها، ففتحوه ووقع التنقيب من حسن الحظ على مكان يسلك إلى زلاقة ضيقة من حجر الصوان الذي لا يخدشه الحديد، فنقروا تحتها ووجدوا بئراً عميقة بعيدة القعر يقال أن أسفلها أبواب موصلة إلى بيوت ومخادع وعجائب، وانتهت بهم الزلاقة إلى موضع مربع مثل الغرفة في وسطه حوض من حجر مغطى، فلما كشفوا عن الغطاء وجدوا رمة بالية، فأمر الخليفة بالكف عما سواه[1]. .

ثم بدأت القاهرة تتبدى مع اقتراب أصوات السواقي، فلاحت القباب والمآذن ترتفع بين البيوت الخفيضة التي تتصاعد منها سحابات

---

(١) في كتابه «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» يروى إبن تغرى بردي ما يكاد يتطابق مع هذه الحادثة، غير أنه يضيف أن المنقبين وجدوا مع الرمة (أي المومياء) قدراً من الزمرد باعوه فكان من عجيب المصادفة أن جاء ثمنها مساوياً لما أنفقه المأمون على التنقيب!!

دخان الطهو في البيوت، وهال عدد المآذن مرسي فقال الريس جابر:

- يصل عدد الجوامع إلى ثلثمائة وربما أكثر.

- إنها مدينة كبيرة جداً جداً، قريتنا جوارها مثل الفأر بجوار الفيل الكبير[1]. وظهرت أشجار النخيل والحقول المزروعة على ضفتي النهر، والقلعة بصخورها القاتمة أعلى الجبل تواجهها اهرامات الجيزة على الجانب المقابل، وفي لهفة سأل مرسي:

- هل سنرسو في بولاق؟

- بولاق هي ثغر المراكب القادمة من الأقاليم الشمالية، وهي خارج أسوار مدينة مصر وتبعد عنها بمسيرة عدة دقائق على القدمين في طريق مقفرة خالية من الناس، أما نحن فسنرسو في ميناء مصر القديمة وهي أيضاً خارج المدينة والطريق بينها وبين الناصرية مقفرة أيضاً[2].

ثم أن مرسي رأى المزارع والحدائق وعن بعد دير أبي سفيان ومن ورائه جامع عمرو بعيداً عن سور القاهرة، وبعد وقت علت أصوات السواقي، ومع انحناءة النهر علت أصوات سواقي ضخمة شاهقة إلى أعلى تدور وتقرقع أخشابها بأصوات مزعجة وقواديسها تنقل المياه من البحر إلى ما فوق سور مجرى العيون العالي لينقلها إلى القلعة العتيدة..

---

(١) كانت مساحة القاهرة وقتها حوالي أربعة أميال مربعة، وتعدادها لا يتعدى الثلثمائة ألف نسمة.. الآن تزيد مساحتها عن الثلاثمائة ميل مربع.

(٢) وقتها كانت بولاق ضاحية تبعد عن باب الحديد بأكثر من الألف متر خارج سور القاهرة.

وبهر المنظر مرسي وأدرك أن ما ينتظره بالقاهرة نفسها يفوق الوصف، ثم رأى قصراً جميلاً عرف أنه قصر ابراهيم بك[1] .. وبجواره قصر وشماله قصر آخر لأميرين من أشياعه، ثم الجمرك حيث زكائب الغلال، ومع أضواء النهار الأخيرة لاحت في السماء غابة من أشرعة المراكب الملمومة والراسية في ثغر مصر القديمة، حيث رست قبل العشاء وحيث اختفت مدينة مصر وسورها تحت ظلام كامل إلا من أنوار النجوم الخابية، والبرد على أشده[2].

وخاب أمل مرسي لأنه سيبيت في المركب حيث بوابات المدينة لا تفتح إلا مع الفجر، وقبل النوم قال له الريس جابر:

ـ هل تذكر محطة القوافل في أسيوط وإسنا؟؟

ـ طبعاً.

ـ هناك ناحية الأهرام توجد المحطة النهائية لطرق كثيرة قادمة من السودان ومن بر الشام ومن أنحاء الدنيا، يحضرون البن من بلاد الأحباش والعبيد وسن الفيل وقرن الخرتيت وريش النعام والصمغ من السودان، ومن بلاد عند العراق يحضرون المياه ذات الرائحة الغريبة وهي تشرب كدواء[3].

ـ كم أتمنى أن أرافق إحدى هذه القوافل.

---

(١) قصر العيني على النيل وكان خارج أسوار القاهرة.
(٢) حوالي أواخر عام ١٧٨٧ أو أوائل ١٧٨٨ ولم يكن بالقاهرة ثمة اضاءة.
(٣) كان البترول الخام يجلب من الخليج العربي بكميات قليلة وكان يشرب باعتباره دواء أو يدلك به الجسم على سبيل العلاج من الأمراض الجلدية وأوجاع الروماتيزم.

ـ وتغيب عن أمك وزوجتك وابنتك شهوراً طويلة، أحياناً سنتين، ريِّس القافلة يصطحب معه زوجاته وأولاده وعبيده، والسكة خطر من بئر إلى بئر أو واحة، وقد تصادفهم حروب بين الأهالي في الطريق أو يغير عليهم البدو أو تصيبهم الأوبئة أو ينكبون بالقحط وجفاف الآبار .. والآن إلى النوم.

كان مرسي أول من صحا ووقف يراقب القاهرة وقد بدأت تظهر في النور المبكر، ومع سماع أصوات الآذان استيقظ الآخرون فوجدوه لابساً جاهزاً فابتسموا، وبدأت بشائر الحركة تدب، بعض قوارب الصيادين تترك الشاطىء، ثلاثة أو أربعة قادمين من عند بوابة السور على الحمير وقد سبقتهم الطيور في السماء، وبعض الكلاب على الشاطىء.. وجلسوا يتناولون الفطور في انتظار قدوم تاجر الغلال ليسلموه القمح الذي معهم فلم يحضر إلا بعد أن زادت الحركة، واحتضن الريس جابر ورحب بمرسي والباقين، وجلسوا معاً يشربون القهوة وتأمله الريس جابر وقال:

ـ أراك شخت قبل الأوان!

ـ المصائب كل يوم.

سأل مرسي:

ـ لكن الغز عندنا نحن!

ـ وهنا الروم ومن تبعهم من بعض الغز وارذال الأجناس.

ـ عسكر حسن باشا القبطان.

- قبح الله أيامه حيثما ذهب .

- هل رحل؟؟

- منذ ثلاثة أشهر، لا أرجعه الله .

فاغتم مرسي وكان يود لو رأى شكله ليعرف ماذا تكون عليه هيئة قبطان البحر المالح وهل يختلف كثيراً عن ريس النيل المبارك . . وتأمل التاجر الرجال وهم ينزلون القمح وقال في أسى :

- ستكون هذه الشحنة آخر شأني بالتجارة، بعدها أرجع إلى بلدتي شربين وأعيش هناك حتى يتذكرني الله .

- يا أخي كنت أداعبك بمسألة كبر السن .

- نهبونا كثيراً يا جابر، أكثر من أي زمن أغبر قديم .

- عندنا أيضاً البلوى عظيمة .

- مستحيل أن تكون أسوأ من هنا، القبطان كان غبياً ظالماً مغروراً وأحمق .

- وإبراهيم ومراد وباقي امراء الغز ملاعين .

- هؤلاء تعودنا عليهم وصرنا نعرف كيف نتفاهم معهم، لكنهم السبب في قدوم اللعين بمماطلتهم في إرسال الميري إلى أسطنبول وبتطاولهم على الباشا الوالي نائب جناب السلطان العالي .

- كيف كان مجيئه؟

- قبل شهر رمضان بحوالي أسبوعين، إذ فشت بين الناس أشاعة

بأن السلطان جرد حملة من عساكره العثمانية لتأديب مماليك مصر وعلى الأخص مراد بك وإبراهيم بك شيخ البلد، وأن العسكر آتية بطريق البحر. كان الخبر بالنسبة لنا اشاعة أما للأمراء ولشيخ البلد فقد كان خبراً مؤكداً لأن الجزار والي عكا أرسل يحذرهم، فتزاوروا واجتمعوا وتشاوروا حتى دخل رمضان فاستدعوا المشايخ وصعدوا جميعهم بعد الافطار إلى القلعة ليقابلوا الباشا التركي.

ـ حسن باشا القبطان؟؟

ـ كان هذا قبل وصوله، صعدوا إلى الباشا الوالي نائب السلطان والمقيم كخيال الظل بالقلعة فوق، عند نهاية مجرى العيون هذا، وإذا بمراد الذي لم يحترم هذا الباشا ولا السابقين له يظهر الخضوع وينحني ويقبل ركبتيه في مذلة قائلاً: «يا سلطانكم نحن في عرضكم في تسكين ودفع هذا الأمر عنا، وسنقوم بما علينا وننظم الأمور». . ثم أرسلوا عرضحالاً أظهروا فيه التوبة عن ظلم العباد وعن تأخير المطلوب وأنهم سيمتثلون بأوامر الدولة الرومية غاية الامتثال، وذلك مقابل أن يعود القبطان بجيوشه. . لكنه كان قد وصل إلى الاسكندرية ومنها إلى رشيد، ومن هناك كتب المكاتبات وأرسل المراسيل إلى مشايخ الأقاليم بأنه مرسل من لدى حضرة السلطان لرفع الجور عن فقراء القطر المصري الذي تسبب فيه خائنو الدين إبراهيم بك ومراد بك والأمراء، وبأن حق الطريق صار ثلاثين نصف فضة لا تزيد، وعلى كل فدان سبعة أنصاف فضة فقط لا غير، مع رفع المظالم تماماً، فكادت الناس تطير من الفرحة خاصة الفلاحون. . وكل هذا منه لاستمالتنا ضد الغز، وصدقناه واستبشرنا، وبالطبع اجتمع الأمراء وقرروا الحرب، فعبأوا

الذخائر والمدافع، ولعدم الاطمئنان نقلوا متاعهم في بيوتهم الكبار إلى أماكن لهم صغيرة متوارية عن الأعين جهة الأزهر والحسين، ومنعوا تعليق القناديل والتعاليق لمهرجان رمضان المبارك، وخرجوا ناحية بولاق ثم عدوا بر إمبابة، وسار مراد الهمام لمقابلة الروم في الطريق وغاب مع رجاله . . ثم عادت بعض مراكبهم وفيها عدد كبير منهم مجاريح فعرفنا أنهم انكسروا، لكنهم أرادوا مخادعتنا والتمويه علينا فأخرجوا جملة من عسكرهم بالطرابيش وبيدهم المكاحل والبنادق وفتائل موقدة إلى الرميلة وباب زويله فالغورية وبين القصرين ثم باب النصر، وأمامهم منادي يقول: «أمان واطمئنان، حكم ما رسم ابراهيم بك ومراد بك نافذ، وكلام الباشا بطال» يقصد القبطان . . لكننا فهمنا اللعبة خصوصاً وإننا رأينا إبراهيم بك وقد انهمك ليلة كاملة ينقل متاعه ويخبئها في بيوته الصغيرة بحيث لم يترك إلا فرش مجلسه الذي هو جالس عليه! ! . . وبدأ مراد يستعد لمحاربة حسن باشا القبطان أحسن استعداد، فذهب بعض أعوانه جهة بولاق وهاجموا نحو عشرين مركباً للأهالي وأخذوا ما بها من غلال وسمن وأغنام وتمر وعسل وزيت، ثم طوروا هجومهم على المدينة فدخلوها من كل صوب، فوقع الصياح في أطراف الحارات وصار الناس نهبة للحرامية في عز النهار!

ـ وأين الأغا

ـ الأغا والمحتسب مقيمان في القلعة لا يجسران على النزول إلى المدينة خوفاً منهم[1].

---

(١) الأغا هو قائد الشرطة، والمحتسب مراقب الأسواق.

- طريقة غريبة لمحاربة الروم!

- ثم ذهب مراد إلى بولاق وشرع عسكره في عمل المتاريس جهة السبتية، فصرخت النساء وعلا عويلهن لأنه لو حدث تراشق بالمدافع تهدمت بيوت السكان! . . لكنه أحضر جملة مدافع، وجمع رجاله الأخشاب وحطب الذرة وبعض الأفراد، وقبل اتمام متاريسه رأى مراكب القبطان قادمة في النيل من رشيد فترك كل هذا في مكانه وهرب، وعيال السبتية يلقون الطوب في أثر عساكره والنساء تشيعهم بالزغاريد، وظلوا يهربون حتى وصلوا إليكم بالصعيد!

قال مرسي:

- زارنا بعضهم في قريتنا تلة.

- المهم أن حسن باشا وصل وقت العشاء فضربوا المدافع لتشريفه واستبشر الأسافل وفرحوا وظنوه مهدي الزمان، وبات في مراكبه حتى الصباح[1].

سأل مرسي عن شكله وهيئته فقال التاجر.

- كان على هيئة القباطنة مرتدياً الجوخ وعلى صدره دلاية حريرية، وفي وسطه سكين وفوق رأسه طربوش كبير معمم بشال أحمر، وبيده شبه حربة رقيقة بطرفها زخرف من حديد على رسم اسم الجلالة . . وقد ذهب إلى بيت إبراهيم بك الهارب، وبينما هو هناك دارت العسكر تنهب بيوت الأمراء الهاربين، فبلغه هذا فنزل بنفسه إلى المدينة

---

(١) الأسافل أي صغار الناس، وقد وصل حسن باشا عشية ٨ أغسطس ١٧٨٦.

وقتل ستة من العسكر وجد معهم مسروقات فكف النهب، وزاد استبشار الأهالي وكان هذا غرضه، وسمر بيوت الأمراء ومراد وإبراهيم، وأمر بارسال طائفة من العسكر تتعقبهم . . وفي الصباح صعدت أنا ضمن وفد المشايخ والتجار وشكونا له ظلم الأمراء فوعدنا خيراً، وبعد أن مضينا عزل وعين صناجق وخلع وقلد[1] . .

سكت ثم نادى على رجل داخل الشونة وقدمه لهما فعرفا أن اسمه اسحاق وأنه نصراني وأنه كاتب يسجل له الداخل والخارج ويحسب ما عليه من مكوس، وقال له:

- قص عليهما ما فعله القبطان بطائفتكم .

تلفت حوله، فقال العجوز:

- فرض القبطان عليهم لبس العمة السوداء أو الزرقاء القاتمة .

فقال اسحاق:

- بعد مجيئه بيومين دار المنادي في الطرقات ينادي علينا نحن طائفة النصارى بعدم ركوب الدواب وبأن نبيع ما لدينا من جوار وعبيد، وكنت لا أملك منهم أحداً فاقتصر الضرر على أن أمشي من بيتي في المدينة حتى هنا سيراً على الأقدام عبر هذا الطريق الموحش! . . وعندما رجعت من هنا قبل الغروب وجدت أرازل الناس يتعرضون بالأذى لأولادي ولجيراني واستمر الحال حتى الليل وكادت تحصل

---

(١) صنجق : حاكم أقليم وهو ضابط كبير، الوجاقلي قائد جند (لواء تقريباً) .

خناقات، لولا أن القبطان تراجع ونزل المنادي في اليوم التالي ينادي بالأمان وبعدم التعرض لنا، ومرت الأزمة.

قال التاجر ضاحكاً:

ـ وحكاية الغاء اسمك!

ـ كان ذلك بعد أسبوعين من تشريفه، نزل المنادي ينادي علينا وعلى طائفة اليهود بأن نغير أسماءنا التي على أسماء الأنبياء كابراهيم وموسى وعبد المسيح وعيسى ويوسف واسحاق، فصرت بدون اسم!

ـ فماذا فعلت؟؟

ـ بعد التفكير اكتفيت بمهنتي، اسمي اسحاق الكاتب فصرت الكاتب فقط. . إننا الآن نعرف دوافعه، فكل عدة أيام يصله عدد من الجند بالبر والبحر وكان يحتاج إلى أموال كثيرة للانفاق عليهم، فبدأ يأخذها من حريم البكوات الهاربين، ثم استدار علينا، فهاجموا في البداية بيوت الأثرياء وباعوا جواريهم، ثم قرروا على بيوت النصارى الهاربين مع إبراهيم بك خمسة وسبعين ألف ريال، وعلى بيوت الذين لم يهربوا ما يعادل قيمة الايجار كل عام، عدا خمسمائة كيس قسمناها علينا فحصل الضرر الزائد للفقراء، ثم تجبر في شهر سبتمبر وقبض على المعلم واصف المباشر المشهور الذي يعرف كل شيء عن ايراد الديار المصرية ومصاريفها ولا يخفى عن ذهنه شيء من ذلك، قبض عليه وطالبه بأموال جسيمة، ثم قبض على بعض نساء المرحوم المعلم ابراهيم الجوهري حتى أبلغن عن المخبوء من أواني الذهب وفضية المائدة والسروج، ثم عاد وكبس على البيت ليأخذ الفرش والمتاع!

تنهد التاجر ودعا الريس جابر ومرسي إلى الغداء معه في داره، فقاما واكترى لهما حمارين، وفي الطريق قال:

ـ وأين هذا كله مما فعله بأسر الغز الهاربين، فبعد أن صادر أمتعتهم جميعاً حبس زليخة زوجة إبراهيم بك وأم ولده مرزوق بك، حتى تمت المصالحة بجملة كبيرة من المال والمصاغ، ثم بحث عن زوجة مراد بك فلم يجدها، وعندئذ استدار علينا نحن التجار طالباً سلفة كبيرة، قسمناها على بعضنا بحسب حال كل تاجر، وظل كل حين وحين يطلب سلفاً جديدة.

ـ هذا أخف ضرراً لأن السلف ترد.

ـ قلبك أبيض! . . كان العسكر يصلونه كل حين بهيئاتهم المختلفة وأشكالهم المنكرة، بعضهم بطراطير سود طوال وبعضهم بطرابيش واسعة مخاط عليها القماش، وكل طربوش مقلوب على قفاه مثل البرطوش، وسراويل وأحزمة، وصورهم بشعة وأجناسهم متفرقة ما بين أكراد ولاوند ودروز وشوام، وكل هذا لأجل حرب الغز الذين بطرفكم الآن، وكلما وصلته عساكر جديدة طلب منا سلفاً جديدة، حتى خربت بيوت بعض التجار، ولم يعد أحد في بر مصر إلا ويبتهل طالباً زواله، إلى أن ارتكب الفحشاء وأمر ببيع أولاد بعض الأمراء، وقد رأيت النخاس يدلل عليهم، فبيعوا للعسكر الترك بأبخس الأثمان وفي هذا عبرة، ورأيتهم عند باب الخلق يدللون على زوجة ابراهيم بك مرزوق وتقدم عسكري رومي ومد يده يفحص صدرها ويقلب ما بين فخذيها ويعريها ودموعها تنزل مدراراً، ورسا عليه المزاد فما وصل ثمنها ثمن عبدة

سوداء، واشترط أن يجربها ثلاثة أيام فرفض النخاس لأنها زوجة أمير فهي بضاعة مضمونة! . . حدث كل هذا رغم أن المشايخ صعدوا إليه وتشفعوا وأفهموه أن بيع الأحرار ضد الشرع، وما استجاب!![1].

وكان التاجر وضيفاه قد وصلوا إلى بوابة السور، فاستوقفهم حارس البوابة، وسأل جابر ومرسي: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا جئتم؟؟ وأسئلة عديدة حتى نفحه التاجر قطعتين من فئة العشرة فضة فأفسح لهما الطريق مرحباً!

---

(١) ذكر الجبرتي أيضاً هذه الواقعة بتاريخ ٢٥ أغسطس ١٧٨٦.

- ٦ -

مع دخول المدينة راح مرسي يتأملها مبهوراً، البيوت على الجانبين معظمها في لون الحجارة، لكن الطرقات ضيقة وقذرة، حواري قريته أنظف، وكلما تقدموا تناقص انبهاره، الزحام كثير، والكلاب والقطط تنبش في القمامةولا تخاف المارة، وبعض البيوت مثل الخرائب وتنبعث منها رائحة الأوساخ والعطن وقلي الطعام بالزيت الرخيص، والذباب والبعوض!

ثم أنهم دخلوا من تحت بوابة خشبية إلى أحد الدروب فوقف بواب الدرب تحية للتاجر، وظلوا سائرين حتى داره التي بدت كئيبة من الخارج، لكنهم عندما دخلوها وجدها مرسي بهيجة مريحة . .

وبعد أن جلسوا واستراحوا راح التاجر يكمل حكاياته فقال:

ـ وما كان من الغز إلا أن أرسلوا للقبطان مكتوباً يقولون فيه: إنكم وصفتنا بالكفرة والمشركين والظلمة والعتاة، وتكفير المؤمن كفر، وإننا ما خرجنا من المدينة عجزاً ولا جبناً من الحرب وإنما طاعة للسلطان ونائبه الباشا الوالي وحقنا للدماء.

ـ كذابون . .

ـ طبعاً . . وقالوا أيضاً وهم يفخمونه بصيغة الجمع : إنكم هتكتم أعراضنا وبعتم أولادنا وأحرارنا وأمهات أولادنا ، وهذا الفعل ما سمعنا به ولا في بلاد الكفرة ، وكان الأولى لكم الاجتهاد والهمة في استعادة البلاد التي اغتصبها منكم الأعاجم مثل بلاد القرم وغيرها .

ـ فماذا فعل ؟ ؟

ـ راح يضيق علينا نحن حتى وصل لحم الضأن بثلاثة عشر نصف فضة !

صاح مرسي :

ـ غالي جداً .

ـ هذا إن وجد . . وزادت الغلة ، أنا عن نفسي توقفت عن التجارة فيها وحمولتكم هذه أول شحنة تصلني من يومها . . كل هذا والمماليك يمعنون في أغاظته فيرسلون كل عدة أيام إلى ثغر بولاق بعض جنوده المجروحين كي نراهم وتهتز مكانته ، فيطلب منا السلف ، ثم راح يبنى في بولاق قواعد المدافع ، لكن الله أظهر غضبه من كل هذا وأرسل علامة بذلك بأن جعل جرم القمر ينكسف جميعه . .

فابتسم مرسي متذكراً فرحة أمه بكسوف القمر . . وبعد أن جاء الطعام عاد التاجر إلى الكلام :

ـ وأين كل هذا مما حدث من المحتسب[1] . . فعندما اشتد الغلاء وصرخ الناس أمر الباشا القبطان بالمناداة في الأسواق بأن اللحم الضأن بثمانية وكان كما قلت قد وصل ثلاثة عشر وعلى الأقل بعشرة، فنزل المحتسب يراقب التسعيرة، فكان قاسياً سفاحاً مجنوناً، يمشي في الأسواق يتقدمه عامل يحمل قسطاساً كبيراً[2] . . ومعه الجلادون والخدم، يفحص كل ميزان والأوزان والأكيال ويسأل عن ثمن السلع، وإذا رأى خادماً صدفة حاملاً مأكولات أوقفه وسأله من أين اشتراها وكم ثمنها فإن تبين له أن البائع غش في الكيل أو طفف في الميزان أو زاد عن سعر السوق أمره بأن يخلع جميع ملابسه عدا السروال الذي يستر عورته وكتف ذراعيه من خلفه وربط قدميه فوق قاعدة أقرب شباك وتركه بالساعات مقلوباً معرضاً للناس والشمس . .

ـ الغشاش يستحق .

ـ في يوم وجد بائع قلل يبيعها منادياً على أنها قناوي أي من صنع مدينة قنا بينما كانت من صنع سمنود فاعتبر هذا غشا وأمر أتباعه أن يكسروها قلة قلة على رأس البائع، فسالت دماؤه وبعد يوم مات . . وأسهل عقوبة لديه هي قطع الاذن أو جدع الأنف . . وفي رمضان المبارك ضبط بائع كنافة يأخذ نصف فضة زيادة في الثمن فجرده من ثيابه وكتفه ووضعه فوق الصينية الحامية التي يسوى عليها الكنافة وتركه فوقها حتى شاط بدنه وتصاعد الدخان منه واحترق احتراقاً رهيباً . . فهل أفلح كل هذا في ضبط السوق؟

(١) المحتسب: مراقب الأسواق مثل قائد شرطة التموين الآن .
(٢) ميزاناً كبيراً .

- مؤكد أفلح .

- اختفت الأشياء وقل وجود اللحم ، وإن وجد كان في غاية السوء مع ما فيه من عظم وفشة وكرشة .

- وماذا كان الحل إذن؟؟

- ذات يوم سمعنا آلات اللهو والطرب تدق بأمر القبطان ، ورأينا حرق الصواريخ والنفوط، فسألنا وقالوا أنهم تمكنوا أخيراً من كسر الغز في جرجا، ثم عرضوا عدداً من الرؤوس المقطوعة بميدان الرميلة على قفص من جريد النخل لمدة ثلاثة أيام، وطبعاً لم تكن صالحة لإطعام فقراء الناس!

قال الريس جابر وهو يترك الأكل :

- رأينا هذه الرؤوس وهي في طريقها إليكم .

- وأين كل هذا مما حدث للأبقار عندما جاءها الوباء، زادت البلوى بموتها مع الجاموس والثيران في سائر الأقاليم البحرية، هل وصلكم الوباء؟

- لا والحمد لله

- ألف حمد وشكر له، منها ما راح فطيساً ومنها ما أدركوه بالذبح فنزل سعر اللحم البقري حتى صار يباع كل رطلين بنصف فضة واحدة، لكن الناس عافته وخافت أن تأكله، فهل يرحم القبطان الفلاحين؟؟ . . أعاد عليهم فرض المظالم التي أسمها «رفع المظالم» وأسماها التحرير، تحرير الفلاح من أمواله!

قال مرسي وقد بدأ يعاف اللحم الشهي أمامه:

- هذه دفعناها.

- وتفرقت أعوانه في الأقاليم فدهموا الفلاحين على ما هم فيه من بلوى وهياف الزرع وإدارة السواقي بأيديهم بسبب موت البهائم وظهور المصيبة الأخرى وهي تسلط الفئران بأعداد رهيبة على غيطان الغلة!!

وبينما هم يغسلون أيديهم وماء الإبريق ينسال ليتجمع في الطست النحاسي الصغير قال التاجر العجوز:

- وأين هذا من فضائحهم مع النساء.

فتنهد المراكبي العجوز:

- يا أخي حدثني عن النساء!

- في أول وصول القبطان راح عسكره يتعدون على أهل الحرف كالقهوجية وأصحاب الحمامات والمزينين والخياطين، فيأتي أحدهم إلى الحمامي أو الخياط ويقلع سلاحه ويرسم ورقة يضعها على باب الدكان ويقول أنه جعله شريكه وفي حمايته، وهذه عادتهم إذا ملكوا بلدة ذهب كل ذي حرفة إلى حرفته التي كان يحترفها في بلده الأصلي ويشارك ابن البلد فيها!!

- حدثني عن النساء.

- صبراً يا زين الشباب، هل تذكرون ضاحي؟

ـ من ضاحي هذا؟

ـ القهوجي الذي أحضر لكم القهوة في الميناء، جاءه أحدهم وفعل معه هذه الفعلة.

ـ فكيف تصرف؟

ـ بمجرد أن انصرف العسكري خبأ عدته عندي وأغلق مقهاه، وانصرف.

ـ ادخل إلى حديث النساء.

ـ بعد أن يضع العسكري الورقة ويعلن نفسه شريكاً يمضي إلى الطرقات يشاكس النساء ثم يعود يأخذ نصيبه من الشركة التي فرضها، وفي نفس اليوم خطف بعضهم ثلاثة نساء وأفسدوا فيهن ناحية الرميلة أسفل القلعة، فرفع الأهالي أمرهم إلى القبطان الذي أمر بضرب أعناق ثلاثة منهم وبعدها طاف المنادي في الطرقات يأمر النساء بعدم الجلوس على حوانيت الصياغ أو في الأسواق إلا بقدر الحاجة.

ـ وكيف يحددون قدر الحاجة هذه؟؟

ـ لا أحد يعرف، بعدها طافوا ينادون عليهم بالامتناع عن النزول في مراكب الخليج أو بحيرة الأزبكية، ثم نودي عليهن بعدم الخروج إلى الأسواق نهائياً ومن خرجت شنقت!

ـ لم يقدر على عسكره فتشطر على الحريم.

ـ ولم يقدر وتراجع وقال إنهن إذا خرجن لحاجة يخرجن في كمالهن

بالحبرات الافرنجي ولا يربطن العمائم البدعة .

ـ كلمني عن العمائم البدعة .

ـ ذلك أنهن يربطن الشاشات الملونة المعروفة بالمدورات .

سأل مرسى الريس جابر:

ـ وما هي المدورات يا ريس؟

ـ ومن أين لي أن أعرف يا ولد!

فضحك التاجر، وجاءت القهوة ثم قال:

ـ المدورات هذه شيء يجعلونه على رؤوسهن شبه الكعكة الكبيرة ويملنها على جباههن مقوصات بطريقة معلومة لديهن، وصار لهن نساء يتولين صناعة ذلك بأجرة دينار وأكثر على قدر مقام صاحبتها . . فسدت النساء يا جابر!!

ـ لم نر عندنا من هذا أبداً .

ـ حتى الجواري السود فعلن هذا الكعك المقوص . . القصد، خاف العسكر بعض الوقت، لكن كل حين تأتي مراكب جديدة بقليونجية أرازل، ولأنهم يرسون في ميناء بولاق فقد عانى منهم البولاقية تعديهم على نسائهم ودكاكينهم[1] . .

(١) القلبونجية هم البحارة، والكلمة مشتقة من غليون أي مركب، وأصلها غليونجية .

- فهل سكتوا؟؟؟

- طبعاً لا ، قامت بينهم المعارك وهزموهم .

- من هزم من؟؟

- البولاقية هزموا القليونجية ، ونزل الأغا وأخذ بخاطرهم ووبخ العسكر . . وفي رمضان الأخير ، حتى في شهر الصوم ، رآهم بعض المغاربة يتعاطون المنكرات وقت الصيام فنهروهم ، فضربوا عليهم بالطبنجات ، فهاج المغاربة واشتبكوا معهم وذبحوا من ذبحوا ورموهم إلى النهر وقطعوا حبال مراكبهم ورموا صواريها .

لعب الريس جابر بأصابعه في لحيته البيضاء :

- مغزى كلامك أن حسن باشا سافر من مصر بعد أن خابت فيه الآمال والظنون ، وهلكت بقدومه البهائم والعجول ، وزاد في المظالم التي أسماها التحرير .

- إلى جانب ما ابتدعه مثل المضاف والبراني والفرد المتعددة .

فتحامل الريس جابر منصرفاً وهو يقول :

- ومغزى كلامك أيضاً أنهم مهما فعلوا بكم فأنتم تشتكون ولكن لا تغضبون!!

فأمسك به العجوز غاضباً :

- لأني لم أقص عليك أخبار ثورة الطوائف .

فجلس جابر مشيراً لمرسي أن يجلس . . وقال التاجر :

ـ بعد رحيل القبطان انفرد اسماعيل بك بامارة مصر بيده العقد والحل والنقض والابرام، وأراد أن يمشي على درب سلفه وطلب دراهم سلفة، مبلغاً كبيراً جداً من تجار البن والبهار ومن نصارى القبط والأروام والشوام وطوائف المغاربة بحي طولون والغورية، ومنا نحن أصحاب الغلال بالسواحل، ومن بياعين القطن والبطانة والقماش والمنجدين واليهود وغير ذلك، فأغلقوا الوكائل والدكاكين واجتمعوا وحضروا جميعاً إلى الجامع الأزهر، وحضر الشيخ العروسي وهو عضو بالديوان، فقاموا في وجهه وأرادوا قفل أبواب الجامع فمنعهم من ذلك فصاحوا فيه وسبوه، ثم أرسلوه إلى اسماعيل بك شيخ البلدة فراح ورجع بالأمان والعفو عن الطوائف وأن القرض المطلوب سلفة من القادرين على ذلك، فقالوا هذه خدعة وعندما ينفض جمعنا ونفتح الدكاكين يأخذونا واحداً بعد واحد. . فقام الشيخ والعامة تصيح عليه وتسمعه الكلام غير اللائق، إلى أن وصل إلى باب زويلة وأرسل إلى اسماعيل بك يخبره بهذه الحال، فحنق اسماعيل وظن أنها مفتعلة من الشيخ وقال دعوهم ينفضون وما أحد يطالبهم بشيء، فانفضضنا.

ـ وبهذا انتصرتم، هكذا يجب أن تكونوا.

ـ لكنه عاد بعد يومين وأرسل إلى أهل الصاغة والجواهرجية والنحاسين وطالبهم بالموزع عليهم فلم يجدوا بداً من الدفع، ثم دار على وكالات التجار، حتى بياعين الفسيخ والمخلل واثنتين وسبعين حرفة أخرى.

فطيب الريس جابر خاطره:

ـ أول مرة اخفاق، ثاني مرة توفيق بإذن الله.

- حتى قوافل الحجاج لم تسلم من العربان لعدم توفر الأمن، وكان يوماً أغبراً عندما عاد الحجاج إلى هنا وهم في أسوأ حال من العري والجوع، إذ نهب العربان أمير الحج والتجار بكافة أثقالهم ومتاعهم وجمالهم، وأسروا الناس فاستغاثوا بأحمد باشا الجزار أمير الحج الشامي فتكلم مع العرب في أمر النساء فأحضروهن عرايا إلا من القمصان وأجلسوهن جميعاً في مكان، وخرجت الناس أفواجاً وكل واحد وجد امرأته أو أخته أو ابنته وعرفها اشتراها ممن هي في أسره، وصارت المرأة من نساء العرب تسوق الأربعة من الجمال أو الخمسة بأحمالها فلا تجد ممانعاً، أليست هذه علامات الساعة؟؟

فودعه الريس جابر وخرج بمرسي إلى الحارة الضيقة، وفي الخارج قال:

- بل هي علامات الخيبة.

- إلى أين؟؟

- إلى سالم مدكور الزيات في حارة الرويعي[1].

- ألن نزور الازبكية؟

- سنمر عليها.. انتبه انتبه..

التصقا في الحائط حتى مر أمامهم قطار من الجمال المحملة، بعد عبورها خرجا من حارة إلى حارة، فرأى مرسي النساء في أردية بنات المدن، السودانيات محجبات بالبراقع الناصعة البياض لا تكشف إلا

---

(١) الزيات: مثل البقال اليوم.

عن حواجبهن القاتمة وعيونهن، وبنات مصر في أرديتهن الزرق وبراقعهن السود التي تكشف عن الرقبات البديعة والوجنات اللطيفة والنظرات الجريئة، وبعض البدو حول رؤوسهم الكوفيات المخططة.. زحام لم ير مثله حتى في مدينة المنيا أو أسيوط أو أسنا، وبائع العطور ينادي: «روايح الجنة يا تمر حنة».. وتاجر حسن الثياب يخب فوق حماره ويسبقه عبده مفسحاً له الطريق: «وسع يا أفندي، جنبك يا بنت، ظهرك يا شيخ، يمينك يا معلم، رجلك يا حاجة، حاسب يا أفندي».

ورأى على المقاهي الرجال يدخنون النرجيلة والجوزة والشبك[1].. والسقاءون يحملون قرب المياه على ظهورهم أو ظهور الحمير بأسمالهم البالية المرفوعة إلى ما فوق الركبة كاشفة عن عضلات سيقانهم القوية مثل أمثالهم في المنيا، ومتسول أعور ينغم استجدائه ومن خلفه تابعان من العميان: «يا معطي المحتاج ومفرج الكروب، غدانا عليك يا كريم».

ثم أنهما عرجا إلى جزء من الخليج[2].. وبعدها وجد مرسي نفسه أمام بركة جميلة تطل عليها القصور البديعة، والناس تتنزه فيها بالزوارق، وقال له جابر:

ـ هذه بركة الأزبكية، وهذه القصور المطلية للأمراء والأعيان،

---

(١) الشبك: قصبة طويلة في آخرها حجر فخار يوضع فيه الدخان، وقد اختفى من مصر الآن.

(٢) كان الخليج مأخذاً من النيل ينقل المياه إلى وسط القاهرة، وما زال مساره يسمى بشارع الخليج (بور سعيد الآن).

وبالمساء يكون هنا المنظر أعظم منظر عندما توقد المصابيح في البيوت وتنعكس أنوارها على المياه.

تلفت مرسي مبهوراً بالخضرة والزهور، وعرف أن البركة تجف وقت تحاريق النيل حيث يقفلون سد الخليج، وبعد أن تجف تتحول إلى ميدان يمتلىء بالمقاهي والمارة ويحلو السهر. . وكان الريس جابر قد تلفت جنبه فلم يجد مرسي فعاد وجذبه إلى الرويعي، وسارا حتى دكان الزيات سالم مدكور، فكان دكانه وكأنه حجرة صغيرة تطل على الشارع وترتفع عنه إلى أعلى من ركبة السائر، وبجوارها مصطبة بنفس الارتفاع من الطوب، وقد خلعت مصاريع الباب الثلاثة وثنيت فوق المصطبة فبدت مثل الدكة المستوية، عليها سجادة صغيرة ومسنود إلى الحائط وسادتين طويلتين . .

سلماً على الزيات ورحب بهما وجلسا إلى جواره على المصطبة، ووجدا دكانه عامراً بالزيت والشريد والجبن والعسل وحاجات أخرى . . وبعد قليل مر بائع العرقسوس يحمل جرة حمراء من الفخار على جانبه مربوطة بسير من الجلد وبيده طاسين من النحاس يقرعهما معاً، وشربوا العرقسوس . . وقال الريس جابر:

ـ أحضرت لك السمن والبلح والعسل، وجميعها بالمركب الآن.

ـ غداً أرسل الجمال لاحضارها.

ـ وهذا مرسي حفيد أخي حتحوت وهو الذي ستتعامل معه بعد ذلك، لأني قررت أن أستريح في الدار مع زوجتي.

ثم بعد حين نهضاً على وعد أن يتناولا معه الغداء في اليوم التالي بعد

تسليم البضاعة، وانصرفا إلى الموسكي حيث الزحام والدكاكين الصغيرة المتلاصقة، ثم الغورية، وكل بضعة حوانيت متجاورة ولمسافة طويلة تبيع نفس السلعة، سكر نبات وشباشب، وكلف التزية . . وجميع الأسواق تسقفها خيام أو مظلات من القماش القوى أو الحصير فتدفئها، لكن الرائحة لم تعجب مرسي، أنفاس الهواء الحبيسة والأتربة المثارة عند أقدام السائرين الملتحين، والأطفال بالذباب على وجوههم . . وفي شارع الصاغة تبيع جميع الدكاكين الذهب والمجوهرات البديعة الصنع، وسوق خان الخليلي ثم مسجد الحسين، فدخلا وزارا، وعند الخروج أراد مرسي أن يتوقف للفرجة على أحد الحواة لكن الريس جابر جذبه :

ـ سنبقى هنا أسبوعين أو ثلاثة، وسيكون أمامك وقت للفرجة، علينا أن نعود للمركب قبل آذان العشاء وإغلاق أبواب المدينة .

ـ لماذا لا نسهر الليل هنا؟؟

ـ في الليل لا ترى في الطرقات سوى الحراس والخفراء والعسس والكلاب الهائمة والبوابين النائمين على بوابات الحارات، فإن ضبطوك سائراً لن تخلص منهم وقد يسجنوك .

وفي اليوم التالي جاءت الجمال إلى الميناء وحملت البضائع، وتناولا الغداء في بيت سالم مدكور الزيات بالرويعي، وأثناءَ تناول الطعام دخل ابنه حافياً فحمله والده وقبله، كذلك فعل الريس جابر، ورآه مرسي في عمر أخيه حتحوت . . وبعد أن أكلا وتناولا الحلوى والقهوة، دار الحديث لمدة ساعتين زمنيتين ثم استأذنا وسارا حتى قرب باب الحديد، ومن هنا اكتريا حمارين وخرجا من بوابة باب البحر إلى

الطريق الخلاء خارج السور وزارا مرفأ بولاق العامر بالمراكب، وبساحله الغلال والبيوت القليلة، وفي مواجهته بر امبابة بمزارعه وقراه القليلة الصغيرة، وعن قرب ترسو غلايين الروم المدرعة[1] . . والقليونجية يتصايحون بأصوات منكرة، والبولاقية يتحملونهم على مضض . . وانبهرا معاً بقواعد المدافع التي أنشأها حسن باشا القبطان على الساحل، ودهشا من عجيب صنعها من مقصات خشبية تجمعها أسياخ الحديد، وعليها ألواح بحراب مسمرة، وبين كل مقصين مدفع موضوع فوق بسطة خشبية، وبإمكانها أن تغرق المراكب القادمة من الجنوب ومن الشمال وأن تبيد العسكر القادمين من بر أمبابة .

وبعد أن دفعا اجرة الحمارين استأجرا زورقاً صغيراً أخذهما جنوباً حتى مركبهما في مرفأ مصر القديمة .

ثم زار مرسي بعد ذلك شارع النخاسين وغزالي الحرير وسوق السلاح والصباغين وصناع العطور، وشاهد ألاعيب الحواة، وفي ميدان الرميلة أسفل القلعة ظل يرى الأمراء صاعدين وهابطين منها بثيابهم المزركشة وخيولهم المطهمة ومن حولهم الخدم والحشم . . ورأى دباً وقرداً مع أحد الحواة، وبعض المغنيين والمغنيات ينشدون أدوارا بينما هو يحتسى القهوة . . واشترى الهدايا لأمه وزوجته وأبيه وحتحوت الجد والطفل وللطفلتين زهرة وسنبلة، من عند العطار اشترى الشمع، ومن العقاد الخيوط الحريرية، ومن الشبكشي بعض الدخان لتجار المنيا . . ورأى بجوار دكان كل شربتلي حوضاً به ماء لتشرب منه

(١) مراكب الأتراك الحربية، وبحارتها يسمون قليونجية أو غليونجية .

كلاب الطريق . . ومن حارة السكرية اشتروا أقماع السكر . . بحيث أن المركب حملت بالبضائع المطلوبة من شمع وأقمشة وبخور وصمغ وأخشاب وغيرها، فصاروا جاهزين للرحيل بعد يوم أو يومين عندما ظهرت مركباً كبيراً تحميها ثلاثة غلايين عثمانية قادمة من جهة بولاق سرعان ما رست، وإذا بالباشا الوالي ومعه اسماعيل بك شيخ البلد والأمراء ينزلون منها، بقوا دقائق عاينوا فيها المكان ثم ركبوا الخيول صاعدين إلى القلعة بعد أن أطلقت الغلايين مدافعها لوداعهم ثم كرت عائدة إلى مرساها في بولاق!

وكان السبب في كل ذلك أن الباشا الوالي كان قد نزل في موكبه من القلعة ولحق به اسماعيل بك شيخ البلد وبقية الأمراء، وساروا وأمامهم مدافع الزمبلك على الجمال، وقصدوا مرفأ بولاق وفتشوا على المدافع هناك، بسبب أخبار جاءت من الصعيد أن الغز عادوا للظهور قادمين من أسيوط إلى المنيا، وأن الباشا واسماعيل بك والأمراء يخشون عودتهم إلى القاهرة، ولذا فإنهم يفكرون في نقل مدافع بولاق إلى بر «طرة».

قال الريس جابر:

ـ الغز مثل القطط بسبعة أرواح، يختفون ويظهرون لكنهم لا ينتهون، من الفجر نفرد القلاع ونعود إلى أهلنا.

- ٧ -

ومع شروق الشمس كانوا يودعون القلعة والقباب، والأهرامات في الضفة الأخرى، ثم عبروا أمام قصر اسماعيل بك بالجيزة، والغيطان والمزارع، وساعدهم الهواء الشمالي في السير ضد التيار، ونزلت الشمس نحو الغرب وراحت ثم دارت لتطلع من الشرق عدة مرات، والقلق على أهاليهم يحثهم في السير، لقد عاد الغز إلى المنيا.. وفي ليالي المبيت على الشاطىء سمعوا من الأهالي أن الغز وصلوا بني سويف فحلوا المركب وساروا إلى البر الآخر وناموا هناك، ثم صحوا وظلوا سائرين في محاذاة البر الشرقي، وبعد أيام رأوا على الجهة الغربية مئات منهم بأزيائهم البراقة من أمراء وعسكر وطوائف..

ثم أنهم دخلوا المنيا وقت العشاء، ورحب بهم نوتية المراكب الأخرى، وعرفوا أن مراد بك هو الذي وصل إلى المدينة أولاً واستقر بها بعض الوقت فهرب جميع الكشاف التابعين للعثمان الروم، وعين أمراء من طرفه على الاقليم داروا يجمعون الفرد والميري ولم يفلت أحد، وأنه قضى عدة أيام يصلح سور المدينة وأبراج المدافع بها حتى لحق به إبراهيم بك فسارا معاً إلى بني سويف.

قبل طلوع الشمس ومع نجمة الصباح تحرك مرسي محملاً بالهدايا إلى قريته تلة، فوصلها قبل خروج والده، واستقبلوه بالفرحة، وابتسمت له طفلته زهرة أما أخته الطفلة سنبلة فقد كانت في ملكوتها، والولد حتحوت ظل يراقبه من غير انفعال قابعاً في مكانه لا يتحرك فلما ظهرت الهدايا وسكر النبات تهلل وجهه وتحرك نحوه. . وابتسم رضوان للعباية المزركشة، أما أمه وزوجته مبروكة فكان نصيبهما قطعة قماش من الساتان تكفي لتفصيل جلبابين لهما. . ثم بعد ذلك توافد أهل القرية يرحبون به، وحكوا له عما دفعوه للكاشف الجديد، وبعد أيام عاد إلى المركب وكان الريس جابر قد سلم البضائع إلى أصحابها.

وفي هذا الزمن تخطى حتحوت الثالثة من عمره، ومع حصاد الذرة أتمت سنبلة عامها الأول وبعدها بشهر صارت زهرة في الثانية، وبعدها بشهر آخر علموا أن اسماعيل بك شيخ البلد أرسل تهديداً إلى الأمراء في بر الصعيد بأنهم إن لم يستسلموا فسوف يلقي القبض على بقية نسائهم وأولادهم ويبيعهم بمتعلقاتهم ومصاغهم ويجمع كل هذا المال وينفق منه على تجريدة من العسكر لمقاتلتهم. وبعدها بأيام عاد مراد بك وإبراهيم بك والأمراء من أشياعهم إلى المنيا ومكثوا بعض الوقت ثم صعدوا نحو الجنوب، وصار معروفاً للجميع أن إبراهيم بك اختار أن يستقر في منفلوط بلد الرمان، والعلامة على ذلك أنه بنى له قصراً هناك. .

وأصبح مرسي مالكاً للمركب بعد أن اعتزل استاذه الريس جابر العمل، فأخذ عنه اللقب وصار الريس مرسي. .

وكان عمر حتحوت قد صار أربعة أعوام، وثلاثة أشهر عندما شاع نبأ

موت السلطان عبد الحميد وجلوس ابن أخيه مصطفى مكانه وسمي السلطان سليم خان وكان في الثلاثين، وبعدها جاء نبأ موت حسن باشا القبطان وكأنه مات مقهوراً من الموسقو الذين قهروه، فصدقت عليه حكمة القائل أسد علينا وفي الحروب نعامة(1).

وبعدها بأقل من الشهرين فتحوا الميري وطافوا يجمعوه، لكن الأقاليم الصعيدية دفعت للمماليك.. ثم كان أن احترق قصر اسماعيل بك بالجيزة ولم يعرف الفاعل مع أنه شيخ البلد وتحت أمره العسكر والعسس، وشرع في بناء بيت آخر زرع الأشجار من حوله.. بينما في قرية تلة اتفق رضوان مع الفلاحين الذين لهم أطفال في عمر حتحوت طفله وشاركهم في شراء عجل صغير يذبحونه يوم الختان، وجاء العجل وعلقوا في رقبته الخرزة الزرقاء، وصار معروف لدى الكافة أنه منذور فتركوه يرعى في أي مكان يمشي فيه، وراح يكبر ويسمن مع نمو الأطفال..

غير أن الولد حتحوت ظل على عادته، كل الذي حدث أنه انتقل بكسله إلى الحارة أمام الدار، وعرف أقرانه فيه هذا فأسموه الكسلان تنبل السلطان، يجلس في الظل وهم يلعبون أو يعملون، وزهرة ابنة أخيه تخدمه وترعاه وهي التي تصغره بعام وعشرة شهور، وأدهش ذلك أمها مبروكة، فضحكت أم الخير وقالت:

ـ لماذا لا تخدمه، هو طفل حقاً ولكنه عمها شقيق والدها!

(1) هو السلطان العثماني في اسطنبول بتركيا، والموسقو هي الموسكو والمقصود روسيا القيصرية.. والاثنان ماتا في عام ١٧٨٩ ميلادية.

وكانت متشوقة إلى ظهور العلامة الثالثة التي حددتها الغجرية .

وذات ضحى جلس الأولاد ملتفين من حوله وتحداه أولهم :

ـ أنا أحسن منك، أنا أركب الحمار إلى الغيط لأبي، وأنت لا تعرف.

فلما نظر إليه ولم يتكلم تشجع الثاني:

ـ وأنا أسوق الجاموسة إلى القناة لتشرب وأجلس فوقها ولا أقع .

وصاح الثالث :

ـ وأنا أهش الحدأة الخطافة فلا تخطف كتاكيت أمي .

نهض الرابع في همة :

ـ وأنا أجيد المشي على قدم واحدة، انظر.

ثم راح يحجل على ساق واحدة ساخراً :

ـ أما أنت فلا تجيد المشي على القدمين معاً، وتترك الذباب على وجهك حتى تهشه لك زهرة!

كل هذا وحتحوت لا يرد، فهب الخامس ووضع حصاة في نبلته ورماها إلى النخلة العالية فتساقط بعض بلحها، وجروا يزاحمونه في التقاطه من فوق التراب، وبهذا كفوا عن حتحوت الكسلان تنبل السلطان .

رأت أم الخير جميع ذلك من أوله إلى آخره، فلمّا لم يدافع عن نفسه أدخلته الدار وغسلت وجهه وأطعمته، ثم بقيت حائرة تفكر، وفي المساء بعد أن نام الجميع شكت حاله لرجلها رضوان، فتعجب وقد تذكر نبوءة الغجرية عن تغريبته، فهز رأسه :

ـ كيف يتغرب مثله شمالاً ويرى قتالاً ونزالاً وأهوالاً؟ وكيف يتغرب جنوباً ويعاشر السباع ويسبح مع التماسيح وهو الذي يخاف من نطحة الكبش الأليف!

أطرقت أم الخير صامتة، فقال:

ـ ما رأيك نأخذه معنا يوم السوق إلى المنيا، لعل تغيير المكان يزرع النشاط في مفاصله.

فراقتها الفكرة، وفي اليوم الموعود أخذته خلفها على الحمار وفوق رأسها قفص الطيور، وسار رضوان إلى جوارها شرقاً حتى بلغوا السوق قرب موردة الحنش، فجلس وقتاً يراقب أمه وهي تقايض التجار، تعطيهم الدجاج والبط والوز والأرانب وتأخذ ما تحتاج إليه من شمع وزيت وخيوط وكلف لمنسجها، والأولاد يلعبون من حوله وهو كسلان لا يشاركهم فوقف والده وجذبه من يده وهبط به الجسر إلى الريس مرسي، وحمله إلى المركب وجلس يرد تحيات النوتية ويشرب القهوة، وانهمك في الحديث وعندما تلفت إلى حتحوت فوجىء به وقد دب النشاط فيه وعلى وجهه فرحة كبيرة وهو دائم التنقل في خفة بأنحاء المركب، يلمس حبال القلاع الغليظة، يجاهد في تحريك الدفة الثقيلة بقوة أكبر من عمره، فتعجب وقال:

ـ سبحان الله، كسول على الأرض نشيط على الماء!!

فضحك مرسي وقال:

ـ سوف يكون نوتياً مثلي.

ـ لا تقل هذا الكلام أمام أمك، الولد صغير.

ـ أنا عملت في مثل عمره.

ـ بل كنت أكبر منه بكثير.

ـ بعد الختان يأتي معي، ما رأيك؟؟

بعد السوق فوجئت أم الخير بحتحوت يقاوم رافضاً العودة إلى القرية، لكنه أخيراً ركب الحمار أمامها وسمعته يخرج عن صمته الدائم ويتكلم بصوت عال عن المركب والقلاع والهلب وقمرة الريس والبحر الكبير والجبل الشرقي، فنظرت إلى زوجها لا تصدق، وفرحت لأن الزيارة أخرجته من شاطىء الكسل إلى بحر الهمة.. لكنها في القرية وجدته يعود إلى خموله، يأكل ويشرب وينام، وعند الحاجة إليه لا يتحرك، وعندما عاد الصبية إلى التفاخر من حوله قال لهم:

ـ أنا رأيت بحر النيل، أنتم لم تروه.

ثم لزم الصمت، فسكتوا وجلسوا من حوله وصوته يعلو متدفقاً يحكي عن أعاجيب المدينة وبحرها الكبير، فقام أحد الأولاد يجري باكياً إلى أمه طالباً أخذه إلى المدينة مثل حتحوت الرضواني..

وقبل النوم تردد رضوان ثم قال لأم الخير:

ـ ما دام أحب البحر فلنسلمه إلى أخيه مرسي، بحر النيل خيره واسع، ولولاه لكنا في أسوأ حال، ولن نترك الولد هكذا مثل الخروب قنطار خشب على درهم سكر، في البحر سينشط ويصبح قنطار سكر على درهم خشب.

تململت فأعلن أن هذا لن يكون قبل الختان، اتسعت عيناها تحملق

صوب حتحوت النائم، بدخوله عام الختان يودع الطفولة، سألت:

- متى؟؟

- في الموعد المعتاد، بعد وفاء النيل المبارك، أصلح الأوقات لالتئام جرح التختين، تكون الحرارة قد خفت والشتاء لم يهجم بعد.

- غافلنا وكبر بسرعة!

- الزمن هو الذي غافلنا فكبرنا جميعاً.

- ألم تلاحظ مبروكة؟؟

- ما لها، نائمة مع زوجها.

- إنها حامل ثانية، أرجو لها ولداً.

ورزقها الله ولداً أسماه أبوه «منصور»، وباركه الجد حتحوت الذي ذهب نظره وارتعشت يداه من فعل السنين وقال:

- منصور بإذن الله.

وكان عجل النذر قد امتلأ لحماً، لأنه يأكل ولا يكلف بعمل، والأطفال الستة يلعبون معه وكل واحد يعتبر نفسه مالكه، عدا سابعهم حتحوت الرضواني الذي تخلت زهرة عن رعايته لانشغالها بحمل أخيها الجديد منصور وتغيير لفائفه كلما ابتلت، بينما انهمكت أم الخير في تطريز طاقية حتحوت وعندما انتهت منها جربتها على رأسه ثم حفظتها في صندوق الملابس ليلبسها يوم الختان تنفيذاً لمشيئة الغجرية ثم التفتت إلى مبروكة وقالت:

ـ يبقى ظهور الاشارة الثالثة . . ولكن هل سيتغرب فعلاً؟؟

استمرت مبروكة في خبز العيش :

ـ لماذا الخوف؟ مرسي يتغرب كثيراً ويعود دائماً بفضل الله، الترحال رزقه واسع يا خالة.

وفي يوم الختان تجهزت القرية جميعها لاحتفال عظيم بختان سبعة من أطفالها، يصبح بعدها كل واحد منهم نصف عريس، سبعة أعوام أخرى ويبلغ وتكتمل رجولته ويصبح عريساً كاملاً، فيكون من حظ سبع بنات أن يجدن سبعة عرسان . .

منذ الصباح لبس كل طفل جلباباً واسعاً ناصع البياض، وأخرجت أم الخير الطاقية من الصندوق وألبستها حتحوت، وجلس الناس عند حدود القرية في انتظار وصول المزين من المدينة، وما أن أهل حتى أحاطوا به وساروا جميعاً في زفة من سبعة حمير يركبها الغلمان السبعة في جلابيبهم البيضاء وكل واحد ممسك بمنديل نظيف أمام فمه ليقيه من الشيطان ويحفظه من العين الحاسدة، يسبقهم عزف المزمار والطبول، وصبي المزين يحمل صندوقاً خشبياً نصف اسطواني له قوائم أربع قصيرة، يزين واجهته قطع من المرايا والنحاس اللامع انعكست عليها الشمس فأحدثت مهرجاناً من الأضواء أعشت عين كل من حملق فيها . . وسار الموكب بين الزغاريد والطبول وسعف النخيل حتى بلغوا القرية، فاجتمعوا ودخل الحلاق مضيفة شيخ القرية ومعه صبيه، وقبل أن يدخل رفع يداً بالموسى كي يطمئن الكبار إلى لمعته وحدته، وباليد الأخرى المِسَنّ العاجي النظيف، وراحت كل أم تدخل

اليه ولدها فيخرج باكياً ويضيع صوت بكائه وسط الزغاريد وصكات نبابيت التحطيب، أما حتحوت فقد صرخ وقاوم لكنه عندما نظر ووجد أخاه الريس مرسي يرقبه كف عن البكاء ورفع رأسه ودخل في هيئة الكبار، وعندما انتهى المزين خرج كاتماً صراخه ودموعه على وجنتيه فضحك مرسي .

وذبح العجل المسمن وتفرق أجزاءً إلى عدد من البيوت ليتم طهوه ثم تجمع ساعة الغداء ليعود ويتجزأ إلى قطع صغيرة في بطون الأهالي، ولعبت زهرة وسنبلة، وظل حتحوت يرمق الريس مرسى وينتظر التفاته إليه ليراه متماسكاً ويعرف أنه يستحق ركوب البحر معه، ثم نهض وهو الذي لا يحب المشي وهو سليم وسار رغم جرحه نحوه موسعاً ما بين ساقيه ساحباً الجلابية إلى الأمام ويلح عليه بأن يأخذه معه، فتعجبت أم الخير وأيقنت أنها لن تستطيع الاعتراض طويلاً، وكانت قد أخذت من المزين القطعة التي فصلها من الولد ولفتها في منديل بعد أن رشت عليها ملحاً كثيراً يمنعها من التعفن، ثم ربطت المنديل في عنق حتحوت على شكل عقد، وبالمثل فعلت بقية الأمهات، وظلت المناديل معلقة حتى التأمت جروح الختان، وعندها دفنت أم الخير المنديل بما فيه إلى جوار ما سبق أن دفنته الغجرية، شرد فكرها ورأتها مبروكة تهز رأسها في استسلام .

وعندما عاد رضوان قبل الغروب وجدها وقد غسلت جميع ثياب الغلام وأعدتها في صرة، وحتحوت يتقافز فرحاً، وقالت :

ـ المقدر مكتوب على جبينه وهو في رحمي، فليركب البحر وليسري عليه ما نزل في اللوح المحفوظ.

وقبل العصر ودعوه ورحل مع مرسي، وشعرت أم الخير بقطعة من قلبها تنتزع منها . . وبات ليلته الأولى على المركب ومياه النيل محمرة بطمى الفيضان، وغطاه مرسي جيداً فراح يتأمل النجوم اللامعة في عتمة الليل، وأنصت إلى رتابة المويجات وهي تتكسر على الشاطىء وجوانب المركب، وإلى نقيق الضفادع حتى نام، وقبل الشروق فتح عينيه في يقظة تامة، ولوقت وجيز تساءل أين هو؟ ثم تذكر أنه قد أصبح نوتياً مع أخيه بالمركب ورأى السماء تضيء من وراء الجبل الشرقي فتعجب وأراد أن يسأل مرسي أسئلة كثيرة.

نهض الريس ورجاله ثم تجهزوا للرحيل في سفرة قصيرة إلى أبي قرقاص جنوب المنيا، تحركت المركب وتوسطت البحر والشمس ظهرت من فوق التل، وكان الفطور خبزاً مقدداً وجبناً قديمة ودقة وبصلاً، وشعر حتحوت بالفخر وهو يشارك البحارة والمياه تحيطه من كل صوب، وتذكر أقرانه يسبحون في القناة الضيقة . . وبعد أن شبع سأل أخاه:

- من أين يأتي بحر النيل؟

- من جبال القمر، بعد أسوان بمسافات.

حملق:

- أهي جبال يسكن فيها القمر.

- عالية شاهقة وقمتها تلامس القمر في السماء.

- وهل ذهبت إلى هناك؟

ـ لا أعرف أحداً ذهب إلى هناك وعاد!! . لكن رحلتنا التالية ستكون جنوباً حتى أسوان .

ـ لماذا لا نمشي بعدها إلى جبال القمر .

ـ لا تسير المركب بعد أسوان بسبب الجنادل والشلالات .

وبينما هو يشرح له معنى الجنادل والشلالات صاح أحد النوتية :

ـ تمساح يا ريس[1] .

فصرخ حتحوت رعباً ، لكن الريس هب ناهضاً فوجد تمساحاً صغيراً يقترب من المركب ، وعلى الفور أمسك بساق خشبية طويلة ، كذلك فعل باقي النوتية ، وما إن جاوروا التمساح حتى انهالوا جميعاً على رأسه ضرباً بعزم ما يملكون ، حاول الهرب لكنهم لاحقوه بالضربات حتى ترنح وانقلب على ظهره ، وعندئذ سحبوه إلى المركب وذبحوه وألقوا احشاءه إلى سمك النهر ثم نشروه في الشمس كي يجف . . وابتسم الريس مرسي للغلام المحملق رعباً :

ـ هذا فأل حسن ، سنبيعه في مدينة مصر ، لم يواتنا هذا الحظ منذ سنوات .

وبسبب هذا التمساح فتح جميع النوتية قلوبهم لحتحوت وصاروا يتفاءلون بوجوده على المركب . . والشمس ترتفع لتتوسط السماء ، ويتناولون الغذاء ، ثم تميل إلى الغروب فيتناولون العشاء

---

(١) في ذلك الوقت لم يكن هناك أي سد على مجرى النهر فكانت بعض التماسيح تفلت من الشلالات جنوب أسوان وتصل حتى إسنا وقليل منها يصل إلى المنيا .

ويتسامرون قرب الشاطىء حتى موعد النوم . . ثم إن الرحلات أخذت شكل الرتابة بالنسبة للغلام، على اليسار البر الغربي بالزراعة الخضراء والبهائم سائرة في هدوء والبط يسبح إلى جوار الشاطىء والحمام يطير من بعض أبراجه، وعلى اليمين جبل المقطم بصخوره الخالية من كل خضرة، وماسك الدفة كثيراً ما يغني بصوت كرهه في البداية ثم ألفه . . وإن استلقى على ظهره يتأمل السماء كالحة الزرقة يرى الطيور تحوم من فوقه فيضحك لها ويداخله النعاس فيغفو.

ولأجل أن يتم المكتوب جاءت الأخبار بتفشي الطاعون في مدينة مصر وبقفل أسوارها وأسواقها، وبموت العشرات ثم المئات ثم الآلاف، وبموت اسماعيل بك شيخ البلد ذاته، وبموت من حل مكانه، ويتغير الحكام ثلاثة مرات في جمعة واحدة لموتهم تباعاً بالكبة[1] . . وحكمة ذلك عند الخالق أنه مع انحسار الوباء جاءت الأخبار بتحرك مراد بك وابراهيم بك من أسيوط إلى أن وصلوا مدينة المنيا مثل الجراد، فاستراح بعضهم يوماً واشتروا فيه قليلاً ونهبوا كثيراً، بينما واصل الآخرون إلى بني سويف، ثم واصلوا جميعاً إلى مدينة مصر، وبعد شهر وصلت الأنباء بأن مراد بك وإبراهيم بك تقلدا الحكم من جديد، وصدق الريس جابر عندما قال أنهم مثل القطط بسبعة أرواح . . فلما صرخ الناس في مدينة مصر من ندرة الحبوب أرسل مراد بك إلى كشاف الأقاليم يأمرهم بإرسال الغلال . . وجميع هذا من أجل أن يتم المكتوب، فيرفع حتحوت رأسه ذات يوم ليراقب خمسة من الغز

---

(١) الطاعون وقد انتشر بسرعة بسبب تكاثر الفئران.

يهبطـون الجسـر ويقتربـون من مركبهـم، ومرسـي يهـرع إلـى البـر ويحادثهم ويعترض ثم يخضع ويعود مغتماً:

ـ سنذهب إلى مصر خلال يومين.

صاح أحد النوتية:

ـ لكن الكبة هناك.

ـ الكبة انتهت منذ مدة.

ـ فلماذا الغضب؟

ـ سننقل الغلال إلى مراد بك بالجيزة، وستضيع علينا الأجرة!

امتلأت المركب بزكائب الغلال وبكميات كبيرة من التبـن، وقبـل تحركهم هبط من فوق الجسر أحد صغار الغز ومعه خمسة من العسكر وجميعهم من الغز وصاح وهو يبرم شاربه طالبـاً الـريس، فخـرج له مرسي في شجاعة الضراغيم، وقال الرجل:

ـ نريد حلوان هذه النقلة وإلا صادرناها.

ـ إعمل معروفاً وصادرها وأرحني من مشقة السفر.

فتعجب الرجل من جرأته وفرد كرباجه لولا أن صاح أحد النوتية بأن هذه غلال مراد بك. وعلى الفور تراجع الرجل ومضى بشاربه مهزوزاً.. ثم تحركت المركب ثقيلة بحمولتها، بادئة رحلة حتحوت الأولى إلـى مدينة مصر الذي سأل عن معنى كلمة حلوان فرد مرسي:

ـ كان يريد أن أعطيه برطلة.

ـ وما هي البرطلة؟

ـ هي الرشوة.

ـ وما هي الرشوة؟؟

ـ يقول الغز: أرشو تشفو. . ستفهم عندما تكبر.

وعند الغروب ألقوا مراسيهم، وأشعلوا القناديل ونزلوا إلى الشاطىء وتزودوا بالطعام، ولم يبيتوا على البر لأن الليل خطر وفيه اللصوص، والجسر فيه الثعابين. . وواصلوا السير وناموا ثم أنهروا، ومع كل انحناءة في النهر يرى حتحوت جاموسة تدور بساقية تصدر فرقعة كئيبة، أو يرى أبراج الحمام المتشابهة فوق بعض الأسطح، وأصحاب الوجوه السمر بالثياب البيضاء أو الزرقاء. . وبعد بني سويف رأى أعداداً كبيرة من النخيل المتجاور، ثم رق الوادي المزروع حتى بدت الصحراء الغربية وعرف أن بعدها توجد بلاد الليبيين . . وفي هدأة الغروب ينطلق بعض الجاموس إلى النهر ليرتوي، ومع زوال الغروب يكون الليل ولا يظهر من أكواخ الشاطىء سوى دخان الطهو والخبيز فيشعر حتحوت بالحنين إلى داره وإلى حضن أم الخير ومداعبة سنبلة وزهرة والطفل منصور. . وفي هدأة الليل تطير من فوقهم أسراب الكروان آتية من أوكارها التي لا يعرف أحد مكانها وتذهب إلى جهات بعيدة، أحياناً كثيرة رآها مثل الحلم وهو مستلق، وقبل أن تعود الشمس من بيتها في آخر الشرق يسمعها عائدة من جديد بنفس صوتها الرخيم وكأنها تسبح تسبح تسبح . .

مع ظهور الأهرام روى مرسي له ما كان قد سمعه من الريس جابر

عنها، ثم رأوا المزارع من حلوان إلى امتداد مصر القديمة خربة جرداء بفعل الدودة والفئران، اقتربوا من بيت مراد بالجيزة الذي هو في الأصل بيت اسماعيل بك بناه مكان القديم المحترق وزينه وفرشه وزرع البساتين من حوله ثم مات بالطاعون، فعاد مراد بك من الصعيد وأخذه جاهزاً وكأن اسماعيل كان يبنيه له، ثم أضاف إليه الحقول والزراعات.

ارتدى الريس مرسي جلبابه ووضع العمامة على رأسه، وعدل حتحوت من وضع طاقيته وقلد وقفة مرسي الناظر إلى عساكر القصر وهم يشيرون له بالاقتراب، ولم يغير اتجاه المركب، فأطلق أحدهم بندقيته في الهواء وظل مرسي ثابتاً، وقلده حتحوت واقترب منه وهو يشد قامته إلى أعلى ارتفاع. أخيراً رسوا إلى البر، وأعلن كبير الغز بأنهم سيأخذون هذه الحمولة. تجاهل مرسي تلويح السوط:

- أريد لقاء مراد بك.

- ومن تكون حضرتك؟؟

- قل له مرسي التلاوي، معي رسالة من الأمير كاشف المنيا.

فارتبك الرجل لوقت وأجلسه وحتحوت والنوتية تحت التكعيبة وأمر لهم بالقهوة بينما راح العبيد ينزلون الشحنة إلى المخازن العامرة بكميات القمح والتبن، وكلما هم حتحوت بالكلام أسكته الريس مرسي.. وقبل الغروب بوقت حدثت زمور وطبول وغبرة أسفرت عن مراد بك وأتباعه الأمراء.

وسأل مرسي عن رسالة الكاشف، فقال:

ـ إنه يبلغ جنابك التحيات العاطرات مع شحنة القمح والتبن .

ـ أهذه هي الرسالة يا ولد؟؟

ـ أخبرني البك الكاشف أنك أمير الكرم وستعطيني الحلوان الكبير، واسمى مرسي التلاوي، تذكر جنابك قرية تلة بالمنيا؟

ـ القرية العاصية .

ـ عاصية في زمن عدوك حسن باشا القبطان، وقد وضعت نفسي ومركبي تحت تصرفكم .

عند ذاك ضحك مراد بك ضحكة مجلجلة :

ـ تذكرتك، أنت اللئيم الماكر، كنت أكثر نحافة وقتها، لكني أحب الأذكياء، هل أطعموكم؟

ـ شربنا القهوة .

فأمر لهم بالطعام، وأكلوا لحماً كثيراً، وقبل الرحيل وصلهم الأجر، كان في الأصل خمسة أكياس تناقصت من رئيس إلى آخر حتى استلمها مرسي كيساً واحداً أخذه شاكراً ظافراً ومضى بمركبه، وعند العشاء صاروا في مصر القديمة، وفي الصباح عرفوا أن الشربيني تاجر الغلال العجوز قد باع شونته وعاد إلى بلده، فتعرفوا على التاجر الجديد الذي عمل معه اسحاق الكاتب النصراني القديم . . ثم أخذ مرسي حتحوت واكترى حمارين واتجها جهة المدينة في الطريق المقفر، ورأيا الفئران تجري هنا وهناك كبيرة الحجم كثيرة العدد ولا تخاف!

- ٨ -

مع دخـول المدينـة زاد انبهـار حتحـوت وكان منبهـراً وهـو خارج السور . لكن مرسي وجدها مختلفة تماماً، الحزن في وجوه الرجال، والنساء في حداد، وبيوتاً كثيرة مغلقة وعليها أخشـاب التسـمير وهـي بيوت الذين ماتوا بالوباء، وميدان الأزبكية جاف ليس به مياه لعدم كسر سد الخليج لأن النيل المبارك لم يصل إلى الارتفاع الواجب، ووجدا الميدان كئيباً، وفلاحـي الأقـاليم المجـاورة يتسولـون في الطرقـات بنسائهم وأولادهم، وانزعج حتحوت وبكى عندما رأى بعضهم يأكلون لحـم حمـار ميت! ثم نسـي كل ذلك وانـدس في دائـرة من الأولاد يتفرجون على أحد الحواة الذي ما أن رأى طاقية حتحوت الجميلة حتى التقطها من فوق رأسه ووضعها في صنـدوق مغطـى، اندفـع الغـلام يطالب بها لكن مرسي طمأنه ضاحكاً، ونفخ الحاوي في صدفة بحرية كبيرة أصدرت صوتاً مثل الزمارة الغليظة، ثم فتح الصندوق وإذا بأرنب يخرج منه، رأى حتحوت أن طاقيته اختفت فأراد الاندفـاع ثانية لولا مرسي، غطى الحاوي الصندوق من جديد ثم كشفه فإذا بالأرنـب قد صار كتكوتاً، أعاده وغطى ونفخ في الصدفة وكشف فإذا بالصندوق ملآن

بالفطير والكنافة، قدم منها قطعة إلى حتحوت رفضها مطالباً بالطاقية، عاد الحاوي إلى الصندوق وقلبه أمامه وبدلاً من أن تنزل الطاقية نزلت ثلاثة حيات صغيرة أفزعت الأطفال، وحمل مرسي حتحوت وهو يبكي، وعندها أعاد الحاوي الحيات إلى الصندوق ونفخ وكشف فإذا بالطاقية سليمة!

في الطريق تزلف حتحوت إلى أخيه يرجوه بألا يخبر أحد أنه بكى فوعده، ثم اتجها معاً إلى حارة الرويعي حيث سالم مذكور الزيات الذي نظر طويلاً إلى مرسي ولم يعرفه، فلما تذكره رحب به وهو منكسر الخاطر، ومال مغرورق العينين يقبل حتحوت قائلاً:

ـ كان ولدي من مثل عمره، لكنه مات بالطاعون.

ثم أن دموعه انهمرت، وبعد أن تجلد أخذهما إلى الدار للغداء، وأخبره مرسي أنه أحضر معه بضائع المنيا، ولم يأخذها أعوان مراد لأنها كانت مخبأة جيداً، ولأن الحيلة تغلب القوة! . . وأمام البيت نزل التاجر عن بغلته، وتأمل حتحوت الباب الخشبي المطلي بالأخضر وزخارفه الحمراء المحددة بالأبيض، وطرق التاجر السماعة وهو يقرأ المكتوب تحتها بصوت متعظ:

ـ هو الخالق الباقي.

رفع الخادم ضبة الباب من الداخل وفتحه وربط بغلة سيده في حلقة بالحائط بينما انصرف المكاريان بحماريهما . . ودخلوا عبر دهليز انعطف مرتين حتى وصلوا إلى فناء مكشوف وسط الدار غير مبلط وبه بئر ارتوازية، وتفتح عليها عدة أبواب وسلم الحريم المؤدي إلى حجرات

النساء والأولاد . . دخلوا من باب إلى المنظرة الرحبة فانتعشوا بهوائها العبق، وطاف حتحوت من حول فسقيتها المبلطة بالحجارة الحمراء والرخام الأبيض والأسود، وكانت أول فسقية يراها في حياته، وبالحائط المواجه للباب رف الرصة الرخامي وقد رصت من فوقه أواني الماء وفناجين القهوة وملحقاتها، ومن تحته طست الغسيل وقوارير العطور.

ثم أن الزيات أخذهما إلى كنبة مريحة حشاياها من الساتان اللامع، وبالحائط المبيضة دولابان والسقف مكسو بشرائط خشبية رقيقة معشقة ومدهونة بالأصفر والمذهب وبينها فواصل خضراء وحمراء وزرقاء، ويتدلى من وسطه مصباح صغير بديع التكوين، أما النافذة المطلة على الحوش فزجاجها معشق ألوان في ألوان وكأنها باقة من الزهور وبها هيئة طائر غريب . .

سأل مرسي عن أمر الطاعون، فابتأس الزيات وابتلع غصته، تنبه إلى وجود حتحوت فتحامل واقفاً وذهب به إلى غرفة الحريم وتركه مع «سيدة» زوجته، ثم عاد لمرسي قائلاً:

- لم أشأ ازعاج الغلام بسيرة الموت.

تربع في قعدته بشكل مريح وقال:

- بدأت علامات النكبة بإنذار من السماء قبل الشوطة بشهرين أو ثلاثة، إذ غيمت غيماً مطبقاً، وأمطرت مطراً غزيراً كأفواه القرب، وضج الكون برعود شديدة الصوت وبرق متتابع متصل يخطف الأبصار ومستديم الاشتعال، والأمطار نازلة لا تتوقف حتى سقطت الدور

القديمة على من فيها من الناس فمات الكثير وعلا الصراخ، وإذا بنا بعد ذلك نفاجأ بالسيول هابطة من الجبل الأحمر مدراراً حتى ملأت الصحراء وتجمعت خارج باب النصر فهدمت الترب وخسفت القبور، وكي تكتمل المصيبة سالت السيول من باب النصر ودخلت البلد فامتلأت الوكالات بالمياه وفسدت البضائع، وكذلك جامع الحاكم وقتلت أناساً، وتكونت خارج باب النصر بركة عظيمة أكبر من بركة الأزبكية وقت وفاء النيل المبارك، وانهدم من دور الحسينية أكثر من نصفها. . ثم زالت الغمة لكنها كانت علامة من السماء عن غضب الله من فجور القوم، فلما لم يتعظ أحد بدأ ظهور الطاعون وزاد أمره بانتشار الفئران بالمئات في الغيطان.

ـ كيف يظهر؟

ـ يكون الإنسان جالساً فيرتعش من البرد فيتدثر لكنه لا يفيق ويموت من نهاره أو ثاني يوم وربما زاد أو نقص.

ـ بهذه السرعة؟!

ـ بالنسبة للمرحوم ولدي. . .

سكت وقتاً حزيناً، ثم استعاذ بالله وقال:

ـ بدأت معه بحمى مرتفعة وصداع شديد، فربطنا رأسه وسقيناه القهوة، وأمه في غاية من القهر والانزعاج، ثم ظهر له تحت إبطه حيل في مثل حجم بيضة الحمام الصغيرة، وعند بعض الناس ظهر في خن وركهم أو عند أي مفصل آخر، فلما ظهر هذا الحيل أدركنا أنه راحل،

- ألا ينجو أحد أبداً؟؟

- القليل، من ظل على قيد الحياة بعد ظهور الحيل بأربعة أيام يكون الأمل في شفائه كبيراً، لكن ولدى مات في اليوم التالي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- كان الوباء مثل قارب شيحة أخذ معه المليح والمليحة والدميم والقبيحة، مات ما لا يحصى من الأطفال والشباب والجواري والعبيد والغز والأجناد والكشاف والأمراء ومنهم اسماعيل بك ونحو اثني عشر صنجقاً وأيضاً عساكر القليونجية الذين في بحر بولاق ومصر القديمة والجيزة[1]. . حتى كانوا يحفرون حفراً لمن بالجيزة بالقرب من مسجد أبي هريرة ويلقونهم فيها بالجملة، وكان يخرج من بيت الأمير في المشهد الواحد الخمسة أو العشرة، وراج عمل الحانوتية والمغسلين والحمالين، وصارت البلد لا تجد فيها إلا مريضاً أو ميتاً أو عائداً من زيارة مريض أو معزياً أو مشيعاً أو مشغولاً في تجهيز ميت أو باكياً على نفسه مهموماً. . ولما مات اسماعيل بك والأمراء أعلن المتبقون التوبة والاقلاع عن المظالم، فلما زال الوباء مع دخول شهر رمضان عادوا إلى سيرتهم القديمة!

جاء الخادم بإبريق نحاسي وطست له غطاء مثقوب، فأمسك مرسي بالصابون وصب له الخادم الماء من الابريق، وماء الغسيل يتسرب من

(1) مات في هذا الوباء عام ١٧٩١ م أكثر من ستين الف شخص، وكان تعداد القاهرة كله يزيد عن المائتي ألف بقليل، وسمى طاعون اسماعيل لأن اسماعيل شيخ البلد (أي رئيس الوزراء) مات به.

الثقوب إلى قاع الطست الصغير، ثم وضع الصابونة على النتوء البارز في الوسط وتناول الفوطة ثم تبعه الزيات . . وبعد ذلك خرج الخادم وعاد بصينية كبيرة مستديرة وضعها فوق المقعد المرصع، وجد مرسي عليها طبقين من الخزف بهما اليخني، لحماً مسلوقاً وبصلاً وقليلاً من البامية، والخبز إلى جوارهما، والليمون مقسماً أنصافاً، وملعقتين من الخشب وطبقاً به محشي ورق العنب، وحمامتين بحشو الزبيب والفستق والبقدونس، فأخفى دهشته بصعوبة من فخامة الأكل !

أما حتحوت فقد اغتاظ من وضعه في غرفة الحريم، فلما داعبته زوجة الزيات وقبلته شم عطرها واندهش، ولما تذكرت ولدها وبكت ارتبك، وبقي صامتاً يتأمل ثوبها الطويل، لولا القميص من تحته لبان معظم صدرها، لكن نقوشه جميلة، والأعجب من النقوش شعرها، وجميعه مجدول في ضفائر، والضفائر تنتهي بخيوط الحرير السوداء، في كل ضفيرة ثلاثة، وبآخر كل خيط قطعة ذهب صغيرة[1] . . وعلى صدغيها خصلتان غزيرتان، لكنه احتار من خلط الخيوط بالشعر، وعندما نكس نظراته احتار من جلد حذائها الأصفر المطرز بالذهب، وقارن وقته بقبقاب أمه الغليظ فعرف وتأكد أن نساء مصر مثل دوامات بحر النيل من عام فيها غرق[2] ! . . لكن النوتي الصغير لما جاء الطعام رفض الأكل وقال محتجاً :

(١) تسمى «الصفا» . . وكان عدد الضفائر دائماً فردياً، من إحدى عشر إلى خمسة وعشرين .

(٢) كان هذا الحذاء يسمى المز، وكان يلبس من فوقه عند الخروج حذاء آخر من جلد مراكشي مرتفع الطرف الأمامي ومدببه .

ـ لست طفلاً كي أجلس مع الحريم!

قبلته واحتضنته كثيراً حتى تضايق ثم بكت وقالت:

ـ هكذا كان ولدي.

ثم أنها نادت على الخادمة التي أخذته إلى الزيات ومرسي، فجلس معهما حول الصينية وراح يأكل مستطعماً اليخنى الذي لا تجيد أم الخير عمله، وبعده أكل الكنافة بالعسل ثم شرب شراباً أخضر اللون من زهر البنفسج ثم شراب التوت، فكانت وجبة لا ينساها أبداً!

وفي الأيام التالية رافق مرسي في شراء البضائع المطلوبة من تجار المنيا، وبينما هما كذلك إذا بالمنادى والأطفال يطوفون بالمدينة، هو ينقر على الطبل ويقول: البحر زاد، وهم من حوله يرددون:

ـ أوفا الله[1].

ـ شيء من العام للعام.

ـ أوفا الله.

ـ وتعيشوا لكل عام.. والكريم يحب الكريم.. وله قصر في الجنة عجيب.. عمدانه جواهر أيتام.. وله ألف طاقة مفتوحة.. في كل طاقة سلسبيل.. والجنة مقام الكريم.. والنار مقام البخيل.. البحر زاد وفاض.. أوفالله أوفالله.

وأعلمه مرسي أن اليوم يوم جبر البحر، وأن الليلة ليلة قطع السد،

(١) يقال أن أصلها أوفى الله أي أوفى الله بفيضان النيل.

وأخذه إلى الخليج للفرجة، فوجدا الموسيقى ورقص الغوازي ورواة الهلالية والزناتية، وبعد حين عملوا مهرجان الصواريخ وألعاب النار، ونصبوا خيمة كبيرة، وعند الفجر جاء الوالي وشيخ البلد إبراهيم بك ومراد بك والأمراء والمشايخ وجميع الدولة، وجاء العمال من الجهة الجافة وبدأوا في نحت السد الترابي بالجواريف، حتى أصبح سمك القمة شبرين. . وجلس الحكام في الخيمة الكبيرة وكتب القاضي حجة البحر وشهد أن النهر بلغ الارتفاع الكافي لفتح الخليج وأن الفتح قد تم فوجب جمع الميري والفرد، وأطلقت المدافع من فوق المراكب المزدانة، واستمرت الألعاب النارية. . وسرعان ما جرفت المياه أتربة السد متدفقة إلى مجرى الخليج حتى علت فدخلت المراكب إليه وعند المساء كانت تطوف في الأزبكية بعد أن تحول الميدان إلى بركة.

أما كيف عاد إبراهيم بك ومراد بك إلى الحكم فلذلك قصة سمعها مرسي في المقاهي قبل أن يتجه عائداً إلى الصعيد بمركبه، فبعد موت اسماعيل بك بالطاعون آلت المشيخة في النهاية إلى مملوكه عثمان الاسماعيلي المعروف باسم عثمان طبل، فلما وصل الغز من الصعيد إلى حلوان وخرج لهم مع الباشا الوالي وعملوا المتاريس جهة العادلية[1] ونصبوا جملة مدافع، فما أن فرغوا منها وهم فوق الخيول مرتاحون حتى بدا الغز نازلين من الجبل بخيولهم وهم في غاية الاجهاد والتعب وهزيمتهم سهلة، لكن عثمان طبل رفض التصدي لهم، ولم يخطر على البال مخامرته مع مراد بك وهو مملوك اسماعيل عدوه

(١) الويلية الآن.

وخصيمه! . . وما هي إلا ثلاثة أيام حتى دخل رجالهم طوال الليل، وكانت معظم نسائهم قد ماتت فاحتلوا بيوت الأمراء الهالكين بالطاعون وأخذوها بما فيها وتزوجوا الأرامل وجددوا الفراش وعملوا أعراسهم! لكن النيل المبارك بعد أن أوفى عاد وكف عن الصعود ونزل عن المنسوب المعهود، وكانت المركب عائدة إلى المنيا عندما لاحظ النوتية ذلك فابتأس مرسي وقال:

ـ ستكون سنة غلاء على أهل مصر.

وكانت قولته هي الحكمة التي تعلمها من الريس جابر، فعطشت أقاليم الشمال ومات الزرع وظهرت الدودة، وكثرت الفئران حتى صارت تتسلق السيقان وتأكل الثمار من أعالي الأشجار، وما سلم من الدودة أكلته الفئران، ولم يزرع البرسيم للبهائم فصار حمل الحمار من التبن الأصفر الشبيه بالكناسة مائة فضة وكان يساوي خمسة فقط!

ثم جاء الفيضان التالي وفيه تزوجت عديلة ابنة ابراهيم بك، فتغالوا في عمل الجهاز والحلي والجواهر والأواني والفضيات، وشرعوا في عمل الفرح ببركة الفيل ونصبوا الصواري أمام البيوت الكبيرة وعلقوا فيها القناديل، وعملوا الملاعيب والملاهي، وفرضت الفرد على البلاد، وجاءت الهدايا من الأمراء والأكابر والتجار، ونزل الباشا الوالي من القلعة وأهدى فراء ومصاغاً للعروس، فرد له إبراهيم بك الهدية تسعة عشر من الخيل ومسبحة من اللؤلؤ وأقمشة هندية . . ثم عملت الزفة فخرجت العروس من بيت أبيها في عربة غريبة الشكل صنع الفرنجة وهو البخيل الشحيح!

أما مركب الريس مرسي فقد سافرت جنوباً وشمالاً، وألمت بمدينة مصر مرة، ثم هبط النيل وحدثت شدة في الغلال والمظالم واختفت

الغلال من الوكالات، ومن جديد طفش الفلاحون إلى مصر من الجوع وأكلوا موتى الحمير والأفراس ولو كان منتناً حتى صاروا يأكلون الأطفال!

بينما عكف مراد بك على شهواته وملذاته، مرة بقصره بالروضة وأخرى بجزيرة الذهب وثالثة جهة العادلية، ثم استقر في قصر الجيزة وزاد في بنائه وتنميقه، وبنى تحته رصيفاً محكماً ومن حوله بستاناً عظيماً نقل إليه أصناف النخيل والأشجار والكروم، واستخلص غالب اقليم الجيزة لنفسه بالشراء أو غصباً، وصار يتنقل في تلك القصور والبساتين ويركب للصيد في غالب أوقاته، واقتنى المواشي من الأبقار والجواميس الحلابة والأغنام، وعمل له ترسانة عظيمة، وطلب صنع آلات الحرب من المدافع والقنابل والبمب والمكاحل ومعامل البارود، وأخذ جميع الحدادين والسباكين والنجارين، وجمع الحديد المستورد والرصاص والفحم والحطب لحرق قمائم الجير والجبس للعمارة، وأوقف أعوانه على النهر يجبرون المراكب على الرسو ويأخذون حمولاتها، وأحضر أناساً من الأروام وصناع المراكب فأنشأوا له عدة غلايين حربية على نظام غلايين حسن باشا القبطان جعلوا بها مدافع وآلات حرب، ورتب لها عساكر وبحرية وجعل عليهم رئيساً كبيراً «نقولا» الذي صار يمتطي الخيل ويلبس الملابس الفاخرة! . . .

وانتهى الحال بمراد إلى أن ركب رأسه وأحدث ديواناً بثغر رشيد يأخذ الأموال الكثيرة على الغلال، وصار ينهب التجار الفرنسيس ويسلب تجاراتهم بغير ثمن!!

وهبط النيل فعلت الأسعار ثم علا فنزلت الأسعار، ونهب العربان الحجاج وكسروا المحمل وأحرقوه وقتلوا الرجال وحبسوا النساء في قلعة العقبة بلا ماء ولا زاد، فجرد شيخ البلد حملة لتخليصهم، وأثناء خروج هذه الحملة خطف جنودها ما صادفوه من جمال وبغال وحمير السقائين وخبيز الطوابين والكعك..

ودارت الأيام بأم الخير ورضوان واقتربت ابنتها سنبلة من الحادية عشرة وبان حسنها، وامتلأت الدار بالخير، وانهمكوا يبحثون عن زوجة لحتحوت عندما كان يستعد لرحلته الثالثة إلى مدينة مصر.

بعد رحيل المركب بأسبوعين أو أكثر وكانوا قد غادروا بني سويف حدث أن تلاشت مويجات النهر وصار سطحه كسطح الزجاج، وسبحت الطيور في الهواء دون رفرفة الأجنحة، بعد أن هبط الليل في عز النهار! كانت العلامة الثالثة التي باحت بها الغجرية، رأتها أم الخير في نفس الوقت بالقرية عندما جرت الأرانب إلى جحورها، وجفلت الأبقار والحمير، بينما اشرأب البط والأوز برقابه الطويلة يرقب اختفاء الشمس في كسوف كلي![1].

ذعر حتحوت من العتمة المفاجئة فبشّ مرسي في وجهه:

ـ أمك الآن أسعد أم في العالم!

وكأن الجد حتحوت كان ينتظر هذه العلامة، فبمجرد أن اطمأن على حفيده المسمى باسمه فارقته الحياة بعد أن قارب المائة وربما تجاوزها ودفن بما يليق به من اجلال وتكريم..

---

(١) ٣١ مايو ١٧٩٨.

وبينما المركب على مسيرة نصف أسبوع من مصر القديمة والريس مرسي يتأمل أخاه ويتساءل إن كان سيتغرب شمالاً وجنوباً ويرى النار والدمار والتماسيح وجبال القمر، ويعاهد نفسه أن يرعاه ولا يتركه يغيب عن ناظريه، بينما هو يفعل ذلك حضرت إلى ثغر الاسكندرية عشرة مراكب من مراكب الانجليز وقفت على بعد بحيث يراها الأهالي في المدينة، فتجمعوا على الشاطىء وهم في غاية الفضول، وبعد حين وصلت خمسة عشرة مركباً أخرى فصار الناس في غاية القلق وأرادوا معرفة غرضهم، وإذا بهم يرون قارباً صغيراً ينفصل عن هذا الأسطول ويصل إلى الميناء وعليه عشرة من البحارة، وصلوا إلى البر وطلبوا مقابلة كبار المدينة ورئيسهم السيد محمد كريم الذي بيده النقض والابرام هناك، فسألهم عن غرضهم فقال كبيرهم على لسان المترجم:

ـ حضرنا للبحث عن مراكب فرنسية خرجت منذ مدة في أسطول كبير إلى جهة لم نعرفها بعد، فجئنا نفتش عنها فربما يدهمون الاسكندرية ولا تقدرون على ردهم أو دفعهم بسبب مكر ومهارة رئيسهم بونابرته[1].

فلم يقبل منهم السيد محمد كريم هذا القول وظنها مكيدة وجاوبهم بكلام غليظ:

ـ أنا لا أصدق هذا الكلام لأن الفرنسيس ليس لهم في أرضنا أي

(١) عرف نابليون في مصر بهذا الاسم: لأن اسم نابليون لم يشتهر به إلا من يوم أن نودي به امبراطوراً سنة ١٨٠٤ أي بعد ما يقرب من ست سنوات من هذا اليوم، وبونابرته تنطبق على النطق الايطالي فهو من مواليد جزيرة كورسيكا الايطالية، فهو ايطالي الأصل فرنسي المولد.

غرض وليس بيننا وبينهم أية عداوة .

ورفض بقاء الانجليز عدة أيام بالبر مزمجراً :

ـ ليس لكم اقامة في أرضنا ، ولست مخولاً بقبولكم بيننا هنا .

فلما رأى الانجليز حزمه وعزمه قالوا :

ـ إذن دعنا نقف في البحر بمراكبنا لحمايتكم ، ولا نريد منكم سوى أن تمدونا بالزاد والماء بالثمن المناسب .

ـ إن كان الفرنسيس كما تزعمون يقصدون أخذ بلادنا فنحن لهم وسوف نردهم ، اذهبوا عنا بالسلامة فهذه بلاد السلطان وليس لغيره عليها سبيل[1] .

فأجاب كبيرهم :

ـ أنتم لا تصدقون كلامي وسوف تندمون على رفضكم المساعدة التي عرضناها ، تذكر هذا يا سيد محمد كريم ، سوف تندم .

ثم ركبوا القارب الصغير وعادوا إلى مراكبهم الكبيرة وظلوا في أماكنهم لا ينصرفون ، وأعد أهل الاسكندرية العدة للقتال . . وعندما عرف أهل مصر بهذه الأنباء وقع لغط كبير وتحدثوا واهتموا كثيراً ! !

أما الفرنسيس فبعد خروجهم من بلادهم احتلوا جزيرة مالطة في

---

(١) أي السلطان التركي ، وكانت مصر ولاية تابعة لتركيا كما سلف ، وكان مجيء الأسطول الانجليزي في ٢٨ يونيو ١٧٩٨ بقيادة نلسون وغادرها في اليوم التالي .

عرض البحر المالح الكبير، ولما احتلوها وجدوا ألفين من الأسارى المسلمين في قبضة المالطيين، فخيروهم أن يذهبوا إلى أي مكان يريدونه فاختار بعضهم أن يرحلوا في المراكب معهم[1].

---

(١) وكان عدد الأسرى ستمائة تركيا، وألفاً وأربعمائة مغربياً وفد معظمهم مع نابليون في حملته إلى مصر لغرض سوف تذكره التغريبة بعد قليل.

- ٩ -

وصل الريس مرسي بمركبه إلى مصر القديمة فوجد السواقي دائرة وخشبها يفرقع كالعادة، وقواديسها ترفع المياه إلى مجرى العيون لتندفع إلى القلعة حيث يسكن الباشا الوالي. . وبعد تسلم الغلال أخذ أخاه حتحوت لزيارة سالم مدكور الزيات، وفي الطريق إلى الأزبكية صادفا بعض الغوازي سافرات بلا نقاب، وكانت احداهن تأكل عندما وجدت حتحوت يحملق في صدرها المكشوف، فابتسمت له واهتز هلال النحاس في جانب أنفها وهي تدعوه إلى الطعام فغض بصره خجلاً حتى سحبه أخوه إلى جهة الرويعي قائلاً:

- في يوم سبوعك حملتك غجرية مثلها ووضعتك في الطست وبللت بدنك في أول حموم لك وعمرك سبعة أيام، وتنبأت لك بأحداث غريبة عجيبة!!

وعلى الفور التفت نحوها فكاد يصطدم بامرأة شابة شاحبة الوجه، لها برقع أسود وطرحة زرقاء، رأته يحملق فيها فتصنعت الحياء وجذبت الطرحة إلى وجهها فبدت عيناها رائعتين مثل عيني أم الخير.

ورحب بهما الزيات فوجداه بصحة أفضل وقد سلا فقدان ابنه في طاعون إسماعيل، ثم إنه أغلق الدكان وأخذهما إلى بيته للغداء، وهذه المرة لم يذهب بحتحوت إلى الحريم بعد أن رآه شاباً في الثالثة عشرة . . وتحدثوا في أمر الانجليز والفرنسيس .

وبعد هذا الغداء بثلاثة أيام جاء السعاة من الاسكندرية بمكتوب مفاده أن مراكب الانجليز رحلت في اليوم التالي لمجيئها فارتاح الناس، وانصرفوا عن القيل والقال في هذه المسألة، وتحدثوا في أمورهم العادية بعد أن رأوا الأمراء غير خائفين أو مبالين، وسمعوهم يقولون أنه إن جاء جميع الفرنسيس إلى بر مصر فسوف يحطمونهم تحت سنابك الجياد، ويحصدون رؤوسهم بالسيوف الحواد حصد المناجل للسنابل !

وطاف مرسي وحتحوت يشتريان حاجات تجار المنيا، وينقلونها بالجمال والبغال إلى المركب في مصر القديمة . . وبينما هما نائمان في المركب مع النوتية تنبها إلى صوت يتلاشى في الظلام البعيد وكأنه ركض جواد في الطرقات، والليل ينقل الصوت مسافات، ثم عاد السكون، وبعد حين سمع خفيف النوم منهم أصواتاً أخرى مشابهة وعلى فترات متقاربة، لذلك بكروا في النهار إلى دخول المدينة فوجدوا ناسها في مثل فضولهم وفي عيونهم القلق وقلة النوم، لقد وصل إلى قصر مراد بك بالجيزة ثلاثة عشر رسولاً يحملون تباعاً نفس الرسالة من حاكم الاسكندرية السيد محمد كريم، وفدوا عن طريق رشيد ودمنهور وسكك أخرى .

اندس مرسي وحتحوت والنوتية بين الناس :

ـ خير يا خلق الله، لماذا ثلاثة عشر رسولاً؟؟

ـ من باب الاحتياط، افرض أنه اكتفى برسول واحد فقد يتأخر لعلة فيه أو في جواده والأرجح أن يقتله العربان وينهبوه، ومضمون الرسالة خطير، إذ أن مراكب الفرنسيس وصلت في عدد لا أول له ولا آخر، وأنها رست في بحر الاسكندرية، فتجمع الأهالي وعلى رأسهم السيد محمد كريم وقد ركبهم الرعب وتولاهم الفزع وهم يرون المراكب تغطي بحرهم، ثم رأوا رفاصاً فرنسياً يصل إلى البر ويطلب مقابلة القنصل الفرنساوي هناك وبعض كبار أهل البلد، فعوقوهم في المراكب ولم يجاوبوهم، فلما دخل الليل تحولت بعض مراكبهم إلى جهة العجمي وظلوا الليل بطوله ينزلون عساكرهم وآلات الحرب إلى البر، ثم ساروا من غير راحة إلى المدينة، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد الزاحف نحو بلدهم، فعندما خرجوا ومعهم العربان وكاشف أقليم البحيرة لمقاتلتهم لم يستطيعوا مغالبتهم ولا أمكنهم إعاقتهم، ولم يثبتوا في قتالهم وانهزم كاشف البحيرة وعربانه وفروا كعادتهم، وبقي أهل الثغر وحدهم فرجعوا إلى المدينة ليتترسوا في البيوت وخلف الأسوار والأبراج ومعهم البنادق والرماح، ومن ورائهم جراد الفرنسيس الذين وقف كبيرهم بونابرته على ربوة عمود السواري وعاين المدينة وقلاعها فرأى بالسور رغم ارتفاعه وضخامته ثغرات كبيرة، فأصدر أمره بالهجوم العام من ثلاثة جهات، وأخذ الناس يطلقون النار، ودخلت من الفرنسيس أعداد كبيرة وأهل البلد يتربصون لهم بالرمى من البيوت والأسطح ويدافعون عن أهاليهم حتى أعياهم الحال وأدرك كبراؤهم أنهم مأخوذون لكثرة العدو وغلبته، فطلبوا

الأمان فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال وألزموهم بجمع السلاح وإخلاء الأبراج من آلات الحرب والبارود، وفرضوا عليهم تثبيت الجوكار في ثيابهم فوق صدورهم[1].

- ما هو الجوكار؟؟

- لا أعرف.

سكتوا وتلفتوا، وكان بعض الغز يهرعون جهة بيت إبراهيم بك شيخ البلد. ثم انضم اليهم أحد التجار وقال أن الفرنسيس طلبوا الخيل والجمال من أهالي اسكندرية.

- فهم ينوون المجيء الينا هنا.

- طبعاً يا أخي، كما أنهم أخذوا في جمع المال.

فاستاء مرسي:

- ذهب القبطان جاء هؤلاء، ألا يكفينا نهب الغز؟!

---

(١) جاءت الحملة من أكثر من ثلثمائة سفينة على رأسها سفينة القيادة «أوريانت» أي الشرق والتي كانت تقل نابليون وكان في حالة أعياء بسبب دوار البحر، وقد وصلت بعد رحيل الانجليز بيوم واحد.. وقد بلغ عدد الفرنسيين الذين نزلوا العجمي في ليلة ٢ يوليو ١٧٩٨ خمسة آلاف، بينما كان جميع أهالي الاسكندرية ثمانية آلاف، ولم يكن لديهم سوى برميل واحد من بارود المدفعية، والثابت أن رصاصة كادت تقتل نابليون في إحدى الحواري الضيقة جداً من طلقات كثيرة صوبها رجل وامرأة من إحدى النوافذ، وظلا يطلقان الرصاص حتى تقدم الجنود واقتحموا المنزل.. وسقطت المدينة في الساعة الحادية عشرة من صباح نفس اليوم!.. أما الجوكار فعبارة عن ثلاثة دوائر زرقاء وحمراء وبيضاء من الجوخ أو الحرير تثبت فوق بعضها بحيث تصغر كل دائرة عن التي تحتها لتكون شارة الجمهورية الفرنسية، وتعلق على الصدر علامة على الولاء.

فتلفت الناس حولهم ونصحوه بكبح اللسان خشية اندساس العسس والبصاصين، لأن اللسان مثل الحصان لا بد له من لجام!

كل ذلك وحتحوت يسمع ويتأمل ولا يتكلم . . ثم أن مرسي أخذه وانصرف حانقاً، فشاهد الانزعاج على وجوه الناس وسمع بعضهم يتحدث عن الفرار والابتعاد عن المدينة، وزاد اللغط وتسامع الأهالي باجتماع الأمراء والعلماء والقاضي والباشا الوالي ومراد بك في بيت ابراهيم بك بالقصر العيني فتوجهوا إلى هناك، فلما وصلوا ومنعهم عسكر الغز من الاقتراب وقفوا يتصايحون يريدون الاطمئنان، وبعد ساعات انفض الاجتماع وتفرق المجتمعون، بعد أن أرسل الباشا الوالي مكاتبة للدولة العلية التي هي تركيا لطلب العون وسرعة إرسال الجيوش للمساعدة.

صاح مرسي:

ـ بين وصول الرسالة وإعداد الجيوش ومجيئها عدة شهور، ماذا نفعل خلالها؟؟

رد جاره:

ـ نواجههم نحن بمساعدة البكوات المماليك وأجنادهم، وهم حرفتهم الحرب.

ـ من أجل هذا ندفع لهم الميري والفرد والمظالم وحق الطريق.

فتأمله ملياً وقال:

ـ أيها الشاب، ما حك جلدك مثل ظفرك، المماليك حفنة آلاف والفرنسيس جيش جرار مثل الجراد، وعلينا أن نسد النقص بشد الهمم والتجهز للقتال والنهوض نهضة الأبطال.

وصارت مدينة مصر لا تنام، خمسة أيام والعسكر في حركة لجمع مهمات الحرب والاستعداد للسفر لملاقاة الفرنجة، وجهزوا البارود والمدافع والقرب والخيام، وأخذوا أغلب ما يحتاجونه إليه من الناس بدون ثمن، وأهل مصر في كرب زائد لأن الناس تعرف أن عسكر الغز ليس عندهم استعداد لبذل الأموال والنفوس في هذه المهمات، وأنهم ركنوا إلى الدهر ولم يعملوا حساب غدره فأشادوا القصور وأهملوا الثغور، واستبدلوا بأبطال الرجال ربات الخدور وبشجعان الفرسان حسان الغلمان، وهجروا حلبة المران وغرقوا في ميدان الخلاعة وناموا في غفلتهم وهاموا في سفاهاتهم، وساروا عكس سير الأقدمين عندما كانت الغلبة للبلاد وذلك أيام الرجال رجال والزمان زمان!!

من أجل هذا حدث عدم الاطمئنان عند الناس، فتزاحموا بعد صلاة الجمعة من حول الأمراء، ورأى مرسي مراد بك وقد ازداد سمنة وصار في الخمسين أو أكثر وشاب البياض احمرار لحيته، ورأى ابراهيم بك لأول مرة وخمن أنه يكبر مراد بحوالي العشرين عاماً، طويل نحيف ذا أنف أقنى، تتفق ملامحه مع ما سمعه عنه من شح وحقارة. ورمق مراد الناس بعين قاسية وعلا صوته الأجش:

ـ لماذا الخوف من هؤلاء الحمير؟ أليسوا شبيهين بالتجار الفرنجة الذين نراهم بيننا كل يوم؟!

ثم إنه لمح عن قرب وإلى جوار الحائط بائع شمام فسار نحوه وأخرج سيفه وضرب كوم الشمام فشق عدداً منه بسهولة وسالت مياهه ولبه، وقال:

ـ إن خيالتهم قليلون وسنقطعهم إرباً مثل هذا الشمام.

فتصايح الناس حماساً، ولمعت عيناه:

ـ إنه يكفيني لو جاءوا في مائة ألف من رجالهم أن أبعث ببعض صغار المماليك ليقطعوا رؤوسهم.

فانصرف الناس مطمئنين، لكن الخوف عاودهم في اليوم التالي.

أما مراد فقد تكاملت عساكره وصناجقه بعد يومين، وتقدمهم ومعه عدة وافرة من المدافع والبارود، وسافر في البر مع الخيالة على صهوات جيادهم المطهمة يتبعهم الخدم والعبيد والأتباع والبدو المسلحون والمتطوعون من أهل مصر بالبنادق والنبابيت فكانوا جميعاً عشرين ألفاً، بينما سافر الغليونجية والمغاربة في البحر بالغلايين الصغار[1]. . وبعدما خرج أرسل يأمر بعمل سلسلة من الحديد في غاية التخانة والمتانة طولها مائة وثلاثون ذراعاً بقصد نصبها عند بوغاز رشيد من البر الشرقي إلى الغربي لتمنع عبور مراكب الفرنسيس لبحر النيل!! . . وأمر بأن تقام هناك المتاريس والمدافع ظناً منه أن الفرنجة لا يقدرون على مقابلته في البر لنقص فرسانهم الراكبة، وأنهم سيقاتلونه في بحر النيل من فوق المراكب، لكنهم فعلوا غير ذلك وتوجهوا إلى مدينة مصر من جهة البر.

وبخروج مراد بك والعسكر من القاهرة العامرة بدت الوحشة في الأسواق وكثر الهرج بين الناس والاشاعات، وظهر اللصوص وهاجموا في كل ليلة أطراف البلد، فصارت الطرق تخلو من المغرب فلا يمشي فيها أحد، وزادت الفوضى فأنزل الأغا المنادي ينادي بفتح الأسواق

---

(١) البحر: النيل، والغليونجية أي البحارة، والصناجق أي الضباط الكبار.

ليلاً وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين وذلك لتبديد الوحشة وحدوث الاستئناس في قلوب الناس وخوفاً من تسلل الدخلاء والجواسيس . . أما العلماء فصاروا يجتمعون في الأزهر كل يوم لقراءة البخاري وغيره من الأذكار والدعوات، وكذا مشايخ الفقراء، ويجتمع الأطفال في الكتاتيب للدعاء وتلاوة اسمه تعالى لطيف لطيف.

وفي النزال قابلت سفن الفرنسيس غلايين مراد قرب «شبراخيت»، والعدد متكافىء، وتبادلا القنابل، والفلاحون على البر يرمون المراكب الغازية بالرصاص والحجارة، وغرقت خمس من سفن الفرنجة وبدا النصر للغز وشيكاً، لكن المكتوب وضع سداد التصويب في مدافع الفرنجة فصوبوا على مركب مراد التي تحمل الذخيرة فانفجرت وتطايرت مع باقي السفن شظايا في الهواء بما فيها من آلات الحرب، واحترق رئيس الطوبجية ومن معه، وطار بحارتها كالطيور وسقطوا صرعى[1].

وبعد ذلك جاء دور جيش البر، فعاين بونابرته من فوق جواده وبمنظاره المعظم عساكر مراد وتعجب، رأى الصحراء تمتد إلى آخر المدى بصفرة رمالها ومن فوقها السماء الزرقاء بلا غيمة واحدة، والخيول العربية الأصيلة الجميلة المطهمة تنفخ وتصهل وتطفر في رشاقة وخفة تحت راكبيها من الغز المدججين بسلاح نظيف لامع مرصع بالذهب والجواهر البارقة تحت الشمس، من سيوف طويلة محدبة ورماح وصوالج وحراب وبنادق وبلط لكسر الدروع وخناجر، ولكل واحد

---

(١) كان عدد السفن الفرنسية اثني عشر وعدة مراكب للنقل . . والطوبجية أي المدفعجية.

ثلاث طبنجات وحول صدره حلة من الزرد لحمايته من السهام، والريش الناصع فوق عمائمهم الكبيرة وملابسهم الزاهية الفاخرة، ولرؤسائهم الخوذات المذهبة راكبين جيادهم من فوق سروج هائلة . .

وعاين مراد بك جيش عدوه، فنظر وتعجب، إذ أنه رأى العسكر في ثياب زرقاء صوفية رخيصة والغبار يعلوهم ووجوههم مثل وجوه الغلمان المرد، وزاد عجبه عندما سمع الموسيقى تعلو من معسكرهم عند الفجر، لكنه اطمأن لقلة خيالتهم . . بعد ذلك زاد عجبه فوق عجبه السابق عندما رأى الجنود يتحركون في أماكنهم بسرعة ثم يصطفون في خمسة مربعات متباعدة، ولم يفهم السر وراء ذلك ولم يعرف كيف سينازلونه وهم بهذا الوضع بينما الطبيعي أن يهجم الجيش على الجيش ويلاقي الرجل غريمه، فقرر الهجوم بسرعة، وانطلقت عساكره في ضراوة كالبروق الخاطفة، وعبيدهم يجرون من ورائهم حتى اقتربوا من مربعات الفرنسيس وكل واحد يطلق بندقيته ثم يدسها تحت فخذه ويطلق طبنجاته واحدة بعد الأخرى ويلقيها من فوق كتفه فيلتقطها خادمه، ثم يقذف حراب الجريد، ثم يسحب سيفه تجهزاً لمواجهة عدوه رجلاً لرجل، ولجام جواده بين نواجذه . .

لكن العدو لم يخرج لهم، وبقيت مربعات الجنود صامتة كالآلة البكماء، ومع دخول المماليك مدى نيرانهم أطلق رجال الصف الأول من المربع بنادقهم ثم جلسوا راكعين فتبعهم الصف الثاني في الاطلاق فالثالث فالرابع. فلم يجد أي مملوكي فرصته في المبارزة بالسيف واظهار المهارة في قطع الرقاب بضربة عكسية لا ثاني لها! . . فلما

عاين مراد بك ذلك اهتز من الرعب وولى منهزماً وترك الأثقال والمدافع فتبعته عساكره الخيالة ونزلت المشاة في المراكب الباقية ورجعوا من غير أن يقع قتال صحيح[1].

عندما وصلت الأخبار إلى مدينة مصر انزعج الناس، وجرى معهم مرسي وحتحوت إلى أكثر من جهة قد يكون فيها من يعرف المزيد، ثم سمعوا أن إبراهيم بك ركب لساحل بولاق فتوجهوا إليها، وحضر الباشا الوالي والعلماء ورؤوس الناس وأعملوا رأيهم في هذا الحدث الجسيم، وأجمعوا على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا، وبدأ إبراهيم بك وأمراؤه وكشافوه فى إقامتها .. وبعدها وصل مراد بر امبابة مهزوماً يعلوه غبار الخيبة هو وعسكره وشرع في عمل المتاريس من بشتيل إلى آخر أمبابة، وأحضر المراكب الكبيرة والغلايين التي أنشأها بالجيزة وأوقفها على ساحل امبابة وشحنها بالمدافع . .

رأى حتحوت البرين الغربي والشرقي مملوءين بالعساكر والمتاريس والخيالة، فأخذ يتأمل زحام العسكر واصطدامهم ببعضهم عند التحرك،

---

(١) الثابت ان نابليون أمر بعزف المارسيلييز لعلمه بمدى تأثيره الحماسي في الجنود بعد ان رآهم مرهقين من سيرهم الشاق الطويل على الأقدام في لهب الصحراء من الاسكندرية وحتى شبراخيت وبملابس صوفية . . أما سهام الجريد فهي سهام طولها حوالي المتر مصنوعة من جريد النخيل بعد شقه وثقفه فتصبح كالحراب . . وكان الفرنسيون يحاربون مثل آلة متماسكة تتحرك بخطة مرسومة، ليس باعتبارهم أفراداً بل باعتبارهم جزءاً لا يتجزأ من قلعة متحركة، على عكس المملوكي الذي امتلك المهارة الفردية والشجاعة بينما جهل فن الحرب ومناوراتها.

وجنوح بعض الغلايين الصغيرة، وعاين المراكب المرصوصة الممتدة من البر الشرقي إلى البر الغربي وهم يثبتوها ويسمروها بمسامير ورباطات غليظة مفتولة من ألياف النخيل ويثقلوها بمراسي وأحجار ركزوها بقرار النهر، حتى كونت ما يشبه الكوبري وظهر أن ذلك لأجل التعدية . . ولسبب ما احتار الغلام وسأل :

ـ من أين سيأتي الأعداء؟؟

تأمل مرسي الاستحكامات كي يستوحي الجواب ففشل، وخشي أن يكون مراد بك نفسه لا يعرف، فاستدار منصرفاً في ضيق، وبعد خطوات تلفت حوله فلم يجد أخاه إلى جواره، عاد منزعجاً يبحث عنه وسط الزحام ومئات الناس فوجده واقفاً مكانه، جذبه منبهاً :

ـ لا تبتعد عني مهما حدث حتى لا تضل .

ـ أنت الذي ابتعدت وتركتني مكاني .

وفي مصر القديمة تأكدا أن الفرنسيس أخذوا دمنهور ورشيد، وطلب النوتية الاقلاع فوراً إلى الصعيد قبل وقوع المعامع، لكن مرسي قال :

ـ لماذا الخوف، الفرنسيس قلة وبعيدون عن بلادهم ونحن كثرة، وستكون الغلبة لنا بإذن الله، والأمراء مطمئنون .

ـ إن كانوا مطمئنين فلماذا ينقلون أمتعتهم من بيوتهم الكبار المشهورة المعروف أماكنها إلى البيوت الصغار التي لا يعرفها أحد؟؟

ـ كذب، إنهم على رؤوس الجيوش في بولاق وإمبابة .

ينقلونها في الليل، ويوزعونها على معارفهم وثقاتهم أمانات، وأرسلوا بعضها إلى الأرياف، وهذا فعل من ينتظر الهزيمة، وأهل البلد أنفسهم لما رأوا هذا داخلهم الخوف والفزع، وتجهز الأغنياء منهم للهرب، لولا أن إبراهيم بك منعهم وهدد من يهرب وكان أولى به أن يمنع نفسه!!

سكت مرسي وقتاً وحتحوت يراقبه وهو مثله يريد البقاء لمشاهدة هزيمة الفرنجة، وبعد صمت كأنه الدهر هرش الريس رقبته وقال:

ـ ننتظر عدة أيام، الحرب عند بولاق ونحن في مصر القديمة فإن وجدنا الدائرة تدور على الأمراء أسرعنا إلى أهالينا في الصعيد، لماذا العجلة والفرنسيس ما زالوا بعيدين!

فبقوا، وكل يوم ينزلون إلى المدينة وكلما وجدوا مجموعة تتحدث اقتربوا منها، وفي يوم الثلاثاء دار الناس في الطرقات ينادون بالنفير العام[1].. وخرجوا إلى المتاريس، ومر اليوم بطوله دون ظهور الغزاة، فكرروا ذلك في يوم الأربعاء، وأغلق التجار الدكاكين والوكالات وخرج الجميع إلى بر بولاق، وكل طائفة من أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم، وتطوع بعض الناس بالانفاق على ذوي الحرف التي بارت لقفل الأسواق وشدة الانشغال، وجهز بعضهم جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل، بحيث أن جميع الناس بذلوا ما في وسعهم، أيضاً القبط تجهزت منهم مجموعة اندرجت في جيش مراد بك، وزاد سعر البارود والرصاص بحيث يباع الرطل

(١) أي أعلنوا حالة الطوارىء القصوى في يوم الثلاثاء ١٧ يوليو ١٧٩٨.

بستين فضة والرصاص بتسعين، وغلا السلاح وندر، وخرج الفقراء بالطبول والأعلام وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة . . وتاه حتحوت من مرسي مرة ثانية ثم عثر عليه بعد جهد جهيد ! ! . . وصعد نقيب الأشراف السيد عمر مكرم إلى القلعة وأنزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة البيرق النبوي، فنشره بين يديه من القلعة إلى أن وصل بولاق وهو راكب ومن حوله الألوف بالنبابيت والعصي يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح والطبول والزمور وغير ذلك، والعامة تطالب بقتل النصارى الشوام والأروام واليهود فيمنعهم الباشا الوالي وإبراهيم بك[1].

وفي ذيل الموكب العظيم سار مرسي ممسكاً بكف حتحوت، وعندما تلفت وراءه رأى الطرقات مقفرة خالية تماماً إلا من نساء البيوت في النوافذ وعلى الأسطح والأطفال وضعاف الرجال، وقد انفردت الكلاب والقطط بالشوارع . .

ثم إن حتحوت شعر بالاختناق وسط الغبار المتصاعد من آلاف الأقدام، وعند بولاق أحس يداً تتلمسه، ورأى رجلاً ضريراً يسأله أن يصف له ما يرى، فقال :

- أرى أمامي جميع الأهالي والعسكر . . بنادق ومدافع ونبابيت وخيام، وثياب أشكال وأصناف وعربان عند الأطراف . .

فقال الضرير:

(١) الأروام وهم غير الروم أو الأتراك، وقد تم التحفظ عليهم موزعين ما بين القلعة وبيوت الأمراء لحمايتهم هم ونصارى الشام.

ـ كأنه يوم الحشر.

فرد حتحوت حائراً :

ـ وجيش مراد بك بالبر الغربي عند بولاق بعيداً عن جيش إبراهيم بك بالبر الشرقي . .

ـ ثقة ابراهيم بمراد مثل ثقة القط بالكلب .

ثم جاء يوم الخميس فزاد الهول على الفقراء الذين يحصلون القوت يوماً بيوم، وكثرالجمع وفي الليل باتوا بالخيام خوفاً من وصول الفرنجة، ومن لا يجد مكاناً يعود إلى بيته ثم يرجع في الفجر، ومرسي وحتحوت يبيتان في مركبهما، ومصر القديمة خالية من كل حس، وفي ليل الخميس سمعوا أصواتاً تتسلل ورأوا أشباحاً تحوم عن قرب فامسكوا أسلحتهم، وهمس حتحوت :

ـ أهم الفرنسيس؟؟

وعندما حاول أحد الحائمين صعود المركب نال شومة على أم رأسه فغاص غارقاً وفر الباقون . . وأجاب مرسي سؤال أخيه :

ـ لصوص من أولاد البلد يغتنمون فرصة انشغال الحكام، حتى الناس في بلاد الأرياف قاموا على ساق يقتل بعضهم البعض تصفية لضغائن قديمة، وبعض الأعراب أغاروا على الأطراف والنواحي، ألم تسمع حديث الرجل الذي كان عن يميني عند الظهر؟؟

ـ كنت أشرح للأعمى .

وهنا صاح شيخ النوتية :

ـ كلمة نصوح يا ريس مرسي، من الفجر نبدأ الرحيل، الأجناد المماليك قلوبهم متنافرة وعزيمتهم منحلة وآراؤهم متضاربة، إنهم غارقون في عزهم وجاههم حريصون على حريمهم وغلمانهم، مختالون في زينتهم من غير حمية، مغترون في هرجلة، والحرب لها ناسها وعقولها، أنا سمعت من أستاذك الريس جابر عن حروب سابقة كانت نظاماً ومكراً، أما ما رأيته في بولاق فهو الفوضى والغفلة!!.. ولقد سمعنا اشاعات بقرب وصول الفرنسيس، قال البعض أنهم آتون من البر الغربي، وآخرون قالوا من البر الشرقي، وغيرهم قالوا من البرين، لو أنت مكان مراد بك ماذا كنت تفعل؟؟

ـ كنت أرسل الجواسيس للتأكد.

ـ ها أنت قلتها رغم كونك نوتياً وليس جندياً، إنه بدلاً من أن يرسل فرقاً تناوشهم وتتبعهم تركهم ينفردون بالفلاحين على طول السكة، وماذا تفعل النبابيت أمام المدافع؟؟

غير أنه مع طلوع النهار توجه مرسي إلى بولاق، وكان يوم جمعة، أراد أن يترك حتحوت بالمركب كي لا يضل منه لكنه رفض، فأخذه بعد التنبيه عليه بعدم الابتعاد، وهناك وجدوا أنظار الناس والجند جميعاً تتابع في حذر وترقب مركباً كبيراً به جملة من الناس في ملابس المغاربة، فظنوهم فرنسيس في لبس التنكر، فلما نزلوا إلى البر والتفوا من حولهم تكلموا بلكنة المغاربة وقالوا:

ـ نحن مسلمون مثلكم، وكنا أسرى في مالطة وأفرج عنا الفرنسيس وأحضرونا هنا.

جاوبهم الناس بالشك :

ـ لماذا لم يأسروكم عبيداً؟؟

فردوا بأنه لا يوجد بينهم عبيد، ولا يأسرون المسلمين أبداً، وإنما أنقذوهم من أسر المالطيين! وللتو واللحظة اختلف الناس، منهم من سكت ومنهم من قال جواسيس ولا بد من قتلهم، ومنهم من قال إن كان الفرنسيس أعتقوهم لوجه الله فمن باب أولى نحن . . ثم سكت الجميع عندما وجدوهم يحملون رسالة من قبل الفرنسيس قالوا عنها بكلام غير واضح أنها من قبل السلطان، فتلهف الجميع لمعرفة فحواها . . وقبل أن ترحل الشمس بحرها الفظيع عرف الناس مجمل الرسالة، وكان بونابرته قد أرسل منها نسخاً كثيرة مطبوعة يقول فيها أنه منذ عصور طويلة وزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازا والكرجستان يفسدون في الأقليم الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها مثله، وأن رب العالمين القادر على كل شيء قد حتم زوال دولتهم، وأنه أكثر من المماليك يعبد الله سبحانه وتعالى ويحترم نبيه محمد والقرآن العظيم . . وجميع الناس متساوون عند الله، والأشياء التي تفرقهم بعضهم عن بعض هي العقل والفضائل والعلوم فقط . . وليبين المماليك ما العقل والفضائل والمعرفة التي تميزهم عن الآخرين وتستوجب أن يتملكوا وحدهم الأرض الخصبة والجواري الحسان والخيول الأصيلة والمساكن الفاخرة! ! . . وإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها لهم رب العالمين بذلك .

صاح رجل :

ـ استغفر الله، رب العالمين لا يكتب حججاً للناس .

فأجاب آخر:

ـ ليس هذا لب الموضوع، ورب العالمين خلق الناس متساوين، والغز لهم الجواري والجاه والعز ونحن لنا الذل والفقر!!

فاتهمه بالكفر، فدافع عنه بعض الناس وضمنوه، وطالبوا بالسكوت لسماع باقي رسالة بونابرته، قال: «من اليوم فصاعد لا يستثني أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية».. فبرقت عيونهم في رضاء، لكنهم استاءوا من تهديده «كل قرية تقوم على عساكري تحرق بالنار.. وكل قرية تطيعهم عليها برفع العلم الفرنساوي وأيضاً علم السلطان العثماني دام بقاؤه».

صاح مرسي:

ـ ما له ومال السلطان؟!

فرد أحد الجواسيس الذين على هيئة أسرى:

ـ إنه قادم من طرفه، هكذا قال لنا والله أعلم.

فسألوه عن الفرنسيس وشكلهم وحالهم فقال:

ـ إنهم يحلقون شواربهم ولحاهم.

دهش الناس وسألوا:

ـ فماذا يفرق وجوههم عن وجوه الحريم؟!

ـ ولا يحلقون رؤوسهم ولا شعر عانتهم، ولا يخلعون نعالهم أبداً ويطأون بها على الفرش الثمين، ومن دعته الحاجة قضاها في أي مكان

اتفق ولو بمرأى من الناس!!

فقال مرسي:

ـ هذه وساخة وسنهزمهم بإذن الله.

فرد الأسير بحماس زائد:

ـ آمين يا رب العالمين.

- ١٠ -

في اليوم الموعود، يوم تطاحن الفرسان وظهور الشجاع من الجبان، اختفى الأسرى ولا يدري أحد أين ذهبوا، وما ذهبوا في الحقيقة إلا إلى الفرنسيس ليبلغوهم بما رأوا . . وظهرت غبرتان في الأفق لا أول لهما ولا آخر، الأولى من فعل رياح الخماسين والثانية خمد أولها ولم يخمد آخرها وكادت تخفي الأهرامات عن يمينها، ثم لاح جيش الفرنسيس العرمرم، وغيطان الشمام عن يساره بامتداد النيل، فتوقف كبيرهم وتأمل بمنظاره المعظم استعدادات الغز وفرح وهنأ نفسه، رأى مراد قد عبر إلى امبابة وجعل النيل في ظهره، وكان يخشى أن يجعل النهر بينهما فيترك له مشقة عبور المياه تحت لهيب التراشق . . ورأى استحكامات مراد على قدر من البلاهة ومدافعه الأربعين ثابتة وليست متحركة على عجلات، فابتسم وراح يتأمل الأهرامات طويلاً تاركاً جنوده يستريحون من إرهاق السير الطويل ومناوشات الأهالي والعربان طوال الطريق، ومن حرارة الشمس التي بدأت تسخن، ومن اللعنة التي أنزلها الله في أمعائهم على شكل مرض الدوسنطاريا فتضعضعت هممهم في أرض الغربة . .

وتركهم مراد حتى يدخلوا في نطاق مدافعه الأربعين فإذا بهم يهرولون إلى الغيطان ويقطعون الشمام ويشقونه بسنابك البنادق ويلتهمونه، فتعجب، ومرسي وحتحوت والجميع لا يصدقون، وبقي مراد بك فوق جواده النافر الدائم الحركة ينتظر، وانتظر ساعة زمنية مرت وكأنها ألف عام أصدر بعدها بونابرته أوامره إلى الضباط لتشكيل مربعات الجنود على النسق المعروف لديهم وبنظام مفهوم في رأسه، على أن يبدأ الهجوم على ميمنة الغز بعيداً عن مرامي مدافعهم الأربعين ثم على الميسرة فالقلب، فإذا تخلخلت صفوفهم اخترقها ودفعهم إلى النيل المبارك من ورائهم. فلما تم له تقسيم المربعات رآها مراد مثل القلاع المتحركة وفهم الغرض بعد أن كانت الشمس قد دارت وجاءت في عيون عسكره!!

تعجبت الناس وحط عليها صمت القبور، وهم يرون مربعات الجنود تضج بقرع الطبول وتناوش خيالة مراد في الخلاء، فاحتار واستغاث بالمشاة ففعل بذلك الغلطة التي يندم عليها كل قائد، إذ شل مدافعه لاختلاط الحابل بالنابل لأنها لو انطلقت أصابت مشاته مع الفرنسيس، ثم أنه هاجم على الفور المربعات بفرسانه، فاندفعوا اندفاع السهام والأتباع يلهثون من خلفهم وجمال الذخيرة تتواثب فوق الرمال.. وكل مربع يبقى ساكناً دون إطلاق حتى يصبح المماليك أدنى ما يكونوا فيطلق الصف الأول نيرانه، وكل مربع له أربعة ضلوع، وكل ضلع له عشرة صفوف، بعد الأول يطلق الثاني ثم يهبط إلى الأرض فيطلق الثالث، وهكذا حتى العاشر، فلم تضع طلقة واحدة سدى.. وجميع ذلك كي تصدق نبوءة الغجرية فيرى حتحوت أنهار

الدماء وتكاثر جثث الغز قتلى وجرحى، وثيابهم الفاخرة تحترق شائطة من اختراق الرصاص وحشوات البنادق، ودخانها يضيع بين الغبار عند سنابك الخيل وارتطام القتلى بالرمال واستفحال زوابع الخماسين!!

ويرى الأحياء تساقط زملائهم فيدورون دورة كبيرة ويعاودون الهجوم، بأن يستديروا في قوس طويل يندفع إلى أضلاع المربعات، يجربونها واحداً بعد الآخر، حتى صارت جيادهم مثخنة بالجراح، فإن اندفع جواد داخل صفوف الفرنسيس تلقت السنابك صدر صاحبه وانهالت كعوب البنادق تدق رأسه.. ومراد بك يداوم ورجاله في كر وفر، وشعر بالغيظ من طريقة الفرنجة، جبناء يحاربون مثل القلعة متلاصقين، لا يجرؤ أحدهم على الخروج وجهاً لوجه، وتمنى لو خرج له بونابرته في مبارزة سيوف أو طبنجات.. وعاد في قوس إلى الوراء وتتبعه الأمراء والعسكر وانتظر حتى انتظموا ثم دفعهم في سهم نحو أحد الأضلاع، فمالوا إلى الأمام بأجسامهم، والتهبت عيونهم بالحمام من تحت عمائمهم الضخام، وفي أعقابهم الأتباع والمشاة والخدم، ومن وراء الجميع عشرات الجمال تحمل سلال الذخيرة والسلاح، بين سحب الدخان والغبار وجلبة الهجوم والصراخ وصياح الحناجر ودقات الطبول والنفخ في الأبواق.. وانتظرتهم بنادق الفرنسيس حتى اقتربوا ثم رشقتهم في رمي متتابع، وتساقط الغز من حول مراد فتراجع إلى المتاريس بفلوله، وعندها فقط تقدمت المربعات نحو هذه المتاريس ورمت بمدافعها من بعد فردت عليها مدافع مراد وكذلك رمت مدافع الغليونجية التي في الغلايين.. لكنهم قبل أن يعيدوا حشو مدافعهم انقض عليهم الفرنسيس مثل القضاء المحتوم، فلما رأى عسكر ابراهيم

بك في البر الشرقي ببولاق سير القتال هب عدد منهم للمؤازرة، لكنهم شرعوا في تعدية النيل من مكان واحد، واندفع مرسي في عدد كبير من الناس، والمراكب قليلة جداً، فلم يتمكن الجميع من الوصول إلاّ وقد انهزم معسكر مراد بك في البر الغربي . . .

وفقد حتحوت مكان مرسي، والريح النكباء قد اشتد هبوبها، وأمواج بحر النيل في قوة اضطرابها، والرمال يعلو غبارها فتسفها الريح في وجوه العسكر فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه لكون الريح آتية من جهة الفرنسيس، وكان ذلك من أعظم أسباب الهزيمة! . . وحاول حتحوت أن يفتح عينيه لكن الأتربة منعته من رؤية الشاطىء الآخر فأدرك أنه ضل أخيه، لكنه قرر أن يقابله فيما بعد بمركبهما بمصر القديمة، واحمرت عيناه وعيون جميع الناس من كثرة دعكها!!

وكان مرسي وهو النوتى الماهر قد وقع من فوق القارب الذي ركبه، فسبح حتى البر الغربي وصعد ليجد البارود في كل مكان والمدافع، ورأى الطابور الفرنسي الذي تقدم لقتال مراد وقد انقسم على الكيفية المعلومة عندهم في الحرب وهم يقتربون من المتاريس، ثم دقوا الطبول وأرسلوا بنادقهم المتتالية ومدافعهم، وهبوب الخماسين آخذ في الأزدياد حتى أظلمت الدنيا، وكادت الفرقعات أن تصم الآذان بحيث خيّل للناس في بر بولاق أن الأرض تزلزلت وخيل لمرسي في بر المعمعة أن السماء تسقط فوق رأسه، لكنه اندفع بقلب الأسد الجسور يحاول القتال فلم يجد الفرصة وسط هذا الحشر، وتراشقوا حوالي ثلاثة أرباع الساعة ثم كانت الهزيمة الماحقة، وغرق الكثير من خيالة الغز في البحر لإحاطة العدو بهم واضطرارهم إلى التقهقر جهة النيل

المبارك، والدنيا ظلام.. ووقع منهم الأسرى في يد الفرنسيس، فمنهم المعلم نقولا الأرمني رئيس مراكب مراد[1].

وكاد مرسي أن يقع أسيراً كذلك لولا أنه ارتمى على الأرض بين القتلى، وظل يزحف مبتعداً، والجميع منهمكون في القتل، حتى رأى جواداً بلا فارسه فتعلق به، وجره الجواد على الأرض مسافة قبل أن يتمكن من ركوبه والهرب به إلى جهة مراد بك، الذي كان يهرب برجاله جهة الجيزة، وانحشر مرسي بينهم.. ولما رأى الغليونجية سيدهم يهرب تحققوا من الكسرة والهزيمة فأضرموا النيران في الغلايين وكانت بالعشرات حتى وصل عددها إلى ثلاثمائة!!

ولما وصل مراد إلى بيته قضى بعض الأشغال في نحو ربع ساعة ثم أمر بسحب الغليون الكبير الراسي أمام قصره ليصحبه معه إلى جهة الصعيد، فوجده مغروزاً في الطين لقلة المياه ولثقل الغليون بما فيه من أحمال زائدة من عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة، ونزل مرسي إلى الطين عله يجد طريقه لزحزحته، لكن مراد كان على عجل فأمر بحرقه!!

وعندما حاول مرسي ركوب الجواد أمسكه أحد الغز من قفاه، في الوقت الذي كان فيه مراد يأمر بحرق ستين سفينة أخرى راسية في النيل عند جزيرة الروضة وقد شحنها مماليكه قبل المعركة بخزائن أموالهم

---

(١) قتل أو غرق في هذا اليوم من ثلاثة إلى أربعة آلاف مملوكي وتابع (معظمهم من الأتباع).. وأسر منهم حوالي الألف، ومن الفرنسيين مائتان فقط، واستولت قواتهم على أربعين مدفع سليمة لم تمس ونحو ثمانمائة جمل ودابة من دواب حمل الأمتعة، ومخازن طائلة من الطعام وصناديق ملآنة بالفضة وغير ذلك من الكنوز.

وكنوزهم لعدم ثقتهم في الانتصار من مبدأ الأمر، فلما وجد مراد أن الوقت لا يتسع لتزويد هذه السفن بالبحارة أمر بإشعال النيران فيها كي يوفر النوتية للسفن التي ستتبعه، ووقف امراؤه في حسرة يراقبون اتقاد النار في المراكب بمقتنياتهم الثمينة.

التفت مراد إلى قصره والبساتين المحيطة به ثم استبعد من ذهنه فكرة طرأت، أن يحرق القصر، وقال للأمراء:

ـ في يوم ما سيرحل هذا الفرنسي مثلما جاء ورحل حسن باشا القبطان.

وما أن انتهى من قوله حتى سمع جلبة وصوتاً يستنجد به، فالتفت، وألقى المملوكي بمرسي تحت قدميه قائلاً إنه جاسوس، فهب واقفاً وقال:

ـ أنا مرسي التلاوي والبك الأمير يعرفني وأعمل نوتياً

فأمر مراد باعطائه سلاح وزرد وجعله ريساً على أحد مراكب الأسطول، فهرول مرسي إلى المركب وقد نسي تماماً شقيقه الصغير حتحوت!!..

أما في ساحة المعمعة فقد حول الفرنسيس مدافعهم وبنادقهم إلى البر الشرقي وضربوها، فقامت صيحة عظيمة ببر بولاق، وتساقط القتلى من الأهالي، فلما عاين العامة وأخلاط الناس ذلك رفعوا أصواتهم يقولون: يا رب يا لطيف ويا رجال الله ونحو ذلك، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم، فكان العقلاء يصرخون عليهم

ويأمرونهم بترك ذلك لأن الحرب تكون بالقنابل والسيوف وليس بالنباح فلا يستمعون!

أما ما كان من أمر ابراهيم بك فهو لم يصمد، وفعل مثل شريكه الهارب، فقام ومعه الباشا الوالي والأمراء وسائر العسكر والرعايا وركبوا فوق الخيول وأتباعهم على الأقدام وفروا هاربين تاركين جميع الأثقال والخيام كما هي لم يأخذوا منها شيئاً، ويمموا وجوههم جهة العادلية، ومن هناك أرسل إبراهيم بك فأخذ حريمه وكذلك فعل من كان معه من أمراء، فأركبوا النساء الخيول أو البغال أو الحمير، ومشت الجواري والخادمات[1].

ثم أن الفرنسيس في بر امبابة بقوا وتحت أرجلهم القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة المتروكة، ووقفوا سعداء، يراقبون وهم منهكون هروب الأمراء والباشا، وشاهد الأهالي فعل الحكام فانسحبوا مذعورين جهة المدينة، ودخلوها أفواجاً، وجرفت جموعهم حتحوت فدخل المدينة معهم من باب البحر، والجميع في غاية ما يكونون من الفزع وتوقع الهلاك وهم يصيحون بالعويل والنحيب، والنساء تستقبلهم بأعلى صراخ، وكل إنسان مشغول بنفسه عن أبيه وابنه، وليس أحد مع أحد..

فلما كان وقت العشاء رأوا النيران تملأ عنان السماء من جهة الجيزة وبولاق والروضة فسرت شائعة بينهم أن الفرنجة عبروا إلى بولاق

(١) العادلية هي الوايلية الآن، ومن هناك ارتحلوا إلى بلبيس ومنها إلى سوريا حاملين ما وصلت إليه أيديهم من الأموال والتحف، وبذلك ترك أمراء المماليك سكان القاهرة وحدهم وجهاً لوجه امام الجيش الفرنسي.

وأحرقوها وكذلك الجيزة، وأن مقدمتهم وصلت إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء، فزاد الفزع والجزع، وخرج أعيان الناس والأكابر ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين من بيوتهم بقصد مغادرةالمدينة من كل أبوابها البعيدة عن الفرنسيس، فتخلعت قلوب الناس وهم يرون الكبار يفرون من بعد المماليك، فتحركت عزائمهم للهرب هم أيضاً، والجميع لا يدرون أي طريق يسلكون وفي أي مقر يستقرون، وحتحوت الغلام أكثرهم حيرة يريد الذهاب إلى مصر القديمة على أمل اللقاء بمرسي وانقاذ المركب! . . وزاد الطلب على بهائم النقل فبيع الحمار الأعرج والبغل الضعيف بأضعاف ثمنه، وخرج الفقراء على الأقدام حاملين الأمتعة على الرؤوس بينما نساؤهم تحمل الأطفال على الأكتاف، ومن أسعده الحظ بحمار أركب زوجته وابنته ومشى على قدميه، واندفع حتحوت إلى الناصرية بقصد الخروج إلى مصر القديمة، والنساء في كل مكان سافرات بالأطفال الباكين في ظلام الليل، وكل إنسان يأخذ على قدر ما يحمل من مال ومتاع، بينما وحشة الخلاء خارج سور المدينة، وبات يقيناً أن الحال سيدوم على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها . .

وكأن هذا العذاب لم يكن بكفاية فبمجرد خروجهم من أبواب السور إلى الخلاء وجدوا العربان والفلاحين الذين جلبوا في الأصل من قراهم للدفاع عن المدينة يتلقفونهم بالسلب والنهب، فأخذوا أمتعتهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه شيئاً من المأكل أو الملبس، حتى النساء عروهن وفضحوهن وهتكوهن، وتركوا حتحوت بيديه الخاويتين وجلبابه الريفي الذي لا يغري أحداً بسرقته،

وتركوا طاقية أم الخير الجميلة على رأسه . . وكان ما أخذته العرب شيئاً كثيراً يفوق الحصر، وكانت الأموال والذخائر التي خرجت من المدينة في تلك الليلة أضعاف ما بقي بها لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان ومساتير الناس وحريمهم، ولم يبق إلا الفقراء الذين ليس لهم مأوى، ومن تأخر في الخروج ورأى ما حاق بالسابقين من هتك عاد إلى داره!!

أما كبير الفرنسة بونابرته فبمجرد أن اطمأن تلفت حوله واختار أن يبيت في قصر مراد بك بالجيزة، ووصله بعد هروب صاحبه بساعات بينما النيران ما زالت مشتعلة في الغليون والذخيرة أمامه، وما زالت تحرق المقتنيات في مراكب جزيرة الروضة . . وعلى ضوئها وضوء المشاعل دخل القصر ماراً تحت تكعيبة طويلة مغطاة بالكروم وتثقلها عناقيد العنب، فمد يده وقطف عنقوداً وذاق إحدى حباته فوجده صنفاً ممتازاً لا يقل عن الأصناف التي يصنعون منها أنبذتهم، ثم وقف يتأمل نقوش المدخل، وفي الداخل أشعلوا الشمعدانات والقناديل المحاطة بالنقوش العربية المفرغة فانعكست الرسوم على الأرض والجدران وتداخلت في تناغم أخاذ، وظهر نقش الأثاث الفاخر ومتكآته المنجدة بالحرير والشراريب الذهبية، كما ظهرت زخارف الجدران من كل شكل ولون . . وما أن جلس بونابرته وأتباعه على وسائد ريش النعام الوثيرة حتى شعروا بأبدانهم تسترخي من بعد إرهاق سروج الخيول الجافة، وهبت من النوافذ نسمات ليلية لطيفة أنستهم لفحات الحر ولهيب الشمس، وبدت الأهرامات تحت وهج الحرائق شاهدة على عظمة ملوك قدماء خلدوا في تاريخ مصر المحروسة . .

أما حتحوت المسكين فقد قطع الطريق الموحش إلى مصر القديمة، فوجد الظلام والخواء ولم يجد مركباً واحدة راسية، ولم يجد من يسأله عنها فحزن وتبلبلت أفكاره وصعب عليه تصديق ظنه بأن مرسي رحل بدونه، رأى أحد فقراء الدراويش فعرف منه أن ما حدث غير ما فكر فيه، إذ أن النوتية لما وجدوا جميع المراكب تحل قلاعها وتبتعد انتظروا إلى ما قبل الغروب بقليل ثم أقلعوا بدورهم.. زاده هذا الكلام هما على هم لأن مرسي لم يظهر بالمكان، وعصره الألم من فكرة أن يكون قد أصيب عندما اندفع إلى بر إمبابة، فقفل راجعاً إلى المدينة وبعد خطوات توقف واستدار يسير في محاذاة النهر ومع اتجاه تياره وقد قرر أن يبحث عن أخيه في بولاق مهما كان الثمن، ومشى بين نقيق الضفادع وصرير الصراصير ساعة زمنية حتى اقترب من ساحة الوغى فرأى عن بعد عسكر الفرنسيس نصبوا الخيام وأوقدوا المشاعل وقد نام غالبيتهم بملابس القتال، وعدداً من الحراس يتثاءب هنا وهناك، سبح إلى البر الآخر وصعد الجسر وأطل برأسه وراح يراقب عن كثب ثلاثة من الجنود يتنقلون بين قتلى المماليك وهم يفتشون في ثيابهم بحثاً عن المال فلم يعثروا على شيء، لكن أحدهم أمسك بعمامة أحد القتلى ووضعها على رأسه ضاحكاً وبرطم بلسانه الأعجمي، وعندما خلعها انحلت وإذا بهم يسمعون صوت رنين العملات الذهبية وهي تتساقط، فجمعوها ثم طافوا كالمجانين يحلون العمائم ويجمعون الذهب حتى امتلأت جيوبهم وتعبوا من كثرة ما جمعوا، ثم سمعوا صوتاً يناديهم فالتفتوا وكروا عائدين..

بعد انصرافهم زحف الغلام إلى البر، وطاف يتفحص وجوه القتلى

من الأهالي متغلباً على رعبه، وكان يخشى أن يجد بينهم وجه أخيه مرسي، داوم على ذلك وقتاً طويلاً حتى أعياه الإنهاك فاستدار عائداً إلى الجسر، لكنه توقف وقتاً، ثم حمل معه بعض العمائم وهبط بها تحت الجسر وسار مبتعداً، بعد أن اطمأن راح يفكها ويخرج المال المخبأ فيها، حتى جمع ما يزيد على مائتي قطعة ذهبية، وللتو والساعة دب النشاط في بدنه من جديد! . . ثم أنه صر جميع المال في شال واحد لفه حول بطنه بإحكام من تحت سرواله ثم أنزل الجلباب وسار إلى مصر القديمة، واتخذ مكاناً بين أكوام الغلال وتمدد فشعر بجسده يسترخي، وقبل أن يروح في النوم تأمل مآذن القاهرة والقلعة ولهيب الحرائق في بولاق والجيزة والروضة تنعكس عليها . .

فكانت ليلة في غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله بمصر المحروسة ولا سمع بما يشابهه في تاريخ الأقدمين[1].

---

(١) كانت خسائر الأهالي جسيمة تفوق الحصر ومعظمهم مات غرقاً . . ومعركة النيل أو الأهرام وقعت في ٢١ يوليو ١٧٩٨ حيث تكون جيش نابليون من ثلاثين ألف مقاتل مدربين على أحدث نظم القتال ومزودين بأكثر أسلحة الحرب تطوراً، بينما كان جيش المماليك يعوزه الاستعداد وكفاية القيادة، وقد تقاعسوا عن المران وترميم القلاع، حتى قلعة صلاح الدين أهملوا رعايتها، وكان بها ستة مدافع عتيقة يستغرق حشو المدفع منها نصف ساعة، أي أن المدفع يطلق طلقة واحدة كل نصف ساعة!!

- ١١ -

عند الفجر أيقظت العصافير حتحوت، رآها تلتقط رزقهـا من غلال الرصيف، وعلى الأرض العديد منها ميتاً من فعل معارك امبابة من غبار ودخان وفرقعات المدافع . . هبط الجسر الترابي وغسل وجهه ثم سار مسرعاً صوب بولاق وعندما دنا أخذ حذره، وجد الفرنسيس قد سبقوه، ورآهـم يطوفـون بالعشـرات بين الجثـث يحلـون العمائـم ويخرجون المخبوء، فلما انتهـوا بعـد عدة ساعـات استـداروا يجمعـون الثياب الثمينة والخناجر والسيوف المرصعة والطبنجات ثم يلقون بالجثث إلى نهر النيل ليجرفها التيار شمالاً وربما إلى رشيد فالبحر المالح الكبير . . كما أن عدداً كبيراً منهم عبر إلى بولاق حيث كان ابراهيم بك وانهمكوا ينقلون ما تركه من ذخائر وطعام جعل معظمهم يتركون البحث عن ذهب العمائم مفضلين وجبة طازجة عليه، فأدرك حتحوت مدى جوعهـم وبؤسهم فابتعد عن شرهم !

أما بونابرته فعندما استيقـظ في قصـر مراد بك بالجيزة وجـد أتباعـه بالبستان يقطفون عناقيد العنب اللذيذة حتى كادوا يأتـون علـى ما فيه وكان كثيراً، وبعد ذلك اكتشفوا ترسانة مراد ففرحـوا بمـا وجـدوه من

ذخائر ومدافع وبارود وآلات حرب!

أمـا الفقـراء وعامـة الأهالـي فقـد بقـوا في بيوتهـم بالحـارات والزوايا، ومعظمهم لم ينم إلا بسبب هد الحيل، والذي لم ينم بقي دائم التصنت لكل خطوة خارج البيت، وناح الـكثيرون صارخين: يا ويلنا يا ويلنا، وقعنا في أسر الفرنجة! وكان الصياح همـا وغمـا مثـل الليل، ثم أنهم تسللوا إلى الحارات وتجمعوا والأبواب مغلقة، ولما لم يروا للفرنجة أثراً بالمدينة فتحوا أبواب الحواري وذهبوا يبحثون عن الأخبار، وهم في حيرة متوقعين قدوم الفرنسيس ووقوع المكروه..

بينما خارج السور رأى حتحوت أعداداً كبيرة من الـذين فروا ليلاً عائدين في أسوأ حال وبلا ثياب وقد ذهبـت أموالهـم وأمتعتهـم إلـى العربان والمنسـر.. دخـل المدينـة معهـم والطرقـات الـكبيرة خاوية والأسواق مقفلة، ولما عرف الأهالي أن الفرنسيس لم يعبروا إلى البر الشرقي خرجوا من الحارات وتوجهوا جهة الأزهر، وجدوا باقي الأحياء قد سبقوهم واجتمعوا إلى بعض العلماء والمشايخ وتشـاوروا واتفـق رأيهم على إرسال رسول إلى الفرنسيس يسبر غورهم ويعرف غرضهم، ففعلوا ذلك وأرسلوا الرسالة على يد أحد المشايخ وبصحبتـه شخص مغربي يعـرف لغتهـم، فركبا بغلتين وسـارا، وبعـد خطـوات اندفـع حتحوت يمسك لجام بغلة الشيخ وكأنه سائسه الخـاص، فلـم يمانـع الرجل لأن ذلك يعطيه بعض الوجاهة والحيثية، وذهبوا وغابوا والناس كأنهم على جمر النار.

وعندما وصلوا قصر مراد في بر الجيزة رأوا بعض الفرنجة مستلقين في ظل التكعيبة، فأوقفهم الحراس وتكلم معهـم المغربـي، وعندئـذ

دخل عسكري وغاب ثم خرج وأخذ الشيخ والمغربي، أما حتحوت فقد بقي مع البغلتين وراح يتسلى بمراقبة العسكر، بعضهم يجردون مخازن الذخيرة، وآخرون يسبحون في النهر، حاول أحد الحراس مداعبته فلم يستجب وتزحزح من مكانه كي يرى داخل القصر من خلال بابه الكبير، وكان مرافقاه قد دخلا إلى القاعة واختفيا عن ناظريه حيث وجدا بونابرته نفسه جالساً على أريكة مراد بك الوثيرة، ورغم خوفهما فقد بهرهما الزخرف والبهرج! . . وأخذ بونابرته الرسالة وأعطاها لترجمانه، فلما فهم معناها ومغزاها وأن مضمونها السؤال عن قصده، سأل على لسان الترجمان:

ـ أين العظماء والمشايخ ولماذا تأخروا عن الحضور الينا لنرتب لهم ما يكون فيه راحة الجميع؟

ثم أنه وجدهما في خوف وارتباك فبش في وجهيهما وطمأنهما، وقال الشيخ على لسان المغربي:

ـ اننا نريد الأمان منكم.

ـ سبق وأرسلت الأمان في مكتوبي مع أسارى مالطة.

ثم أملى رسالة أمان جديدة أعطاها للشيخ قائلاً:

ـ أريد أن يأتي المشايخ وكبار القوم لمقابلتي لنرتب منهم ديوانا للحكم.

ففهم قصده وخرج مع المغربي إلى حتحوت، وعادوا جميعاً إلى الأزهر، فتصايح الناس بالسؤال، ولما رأوا المكتوب سكنوا، وكان مضمونه: «من عسكر الجيزة خطاباً لأهل مصر، كنا قد أرسلنا لكم في

السابق كتاباً فيه الكفاية ذكرنا فيه أننا ما حضرنا إلا بقصد ازالة المماليك الذين عاملوا التجار الفرنساوية بالذل والاحتقار وأخذوا مالهم ومال السلطان، ولما حضرنا إلى البر الغربي خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقون وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم عندنا وهرب الآخرون ونحن وراءهم حتى لا يبقى منهم أحد في القطر المصري، وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية فليكونوا مطمئنين في مساكنهم مرتاحين في دكاكينهم متاجرين». . فاطمأنت نفوس الناس، وركب المشايخ والوجاقلية[1] وذهبوا إلى بر الجيزة، فتلقاهم بونابرته مبتسماً وسألهم على لسان الترجمان :

ـ أنتم المشايخ الكبار.

فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا، فأظهر الضيق والعجب وسأل :

ـ لأي شيء يخافون؟؟ اكتبوا لهم بالحضور كي نعمل لكم ديواناً .

ثم أنه دعاهم للعشاء معه فخافوا الرفض، وجلسوا وجلس مثلهم فوق الوسائد، ومثلما غسلوا أيديهم غسل، وأولمهم لحماً مشوياً وأرزاً، وكان الحلو من عنب البستان ثم شربوا القهوة. . كل ذلك والناس ينتظرونهم فلما طالت غيبتهم ظنوهم وقعوا أسرى في يد بونابرته، ولم تهدأ خواطرهم إلا بعودتهم شبعانين .

وفي تلك الليلة ذهب بعض الناس إلى بيوت الأمراء الهاربين ونهبوا ما بها، وعند الصباح لحق بهم آخرون فأخذوا جميع ما في البيوت من

(١) الضباط الكبار .

فرش ونحاس وامتعة وغير ذلك وباعوه بأبخس الأسعار وهم يقولون:

- هذه بعض أموالنا، والغز حرفتهم الحرب والنزال لكنهم خذلونا وفروا!

وعند العصر تجرأوا وذهبوا إلى بيت ابراهيم بك وبيت مراد بك بقيسون وأفرغوهما من كل شيء ثم أضرموا النيران فيهما..

أما حتحوت فقد وجد خنجراً نفيساً أخفاه في ثيابه مع النقود الذهبية، وقبل المغرب خرج إلى مصر القديمة الخاوية وجلس، وبينما هو يفكر في تدبير حاله والسفر إلى الصعيد رغم انقطاع الطريق إذا به يسمع طبولاً وموسيقى افرنجية، نظر فرأى جنوداً فرنساوية تتجه إلى المدينة.. وكان الناس قد أرسلوا مكاتيب الأمان إلى المشايخ الكبار والأعيان ليعودوا، وباتوا يتوقعون مجيء الفرنسيس أثناء النهار، فلما وجدوهم يدخلون بالليل بالمشاعل خافوا أن تكون نيتهم حرق البيوت، وراحوا يرقبون من خلف المشربيات، فرأوا الموسيقى والطبول ثم الجنود وعلى رأسهم كبيرهم الذي ظنوه بونابرته، لكنه كان صنجقة ديبه الذي صار قائمقام مصر وبصحبته خمسة من أتباعه الصناجقة[1].. ومشوا في الطرقات الخالية يرقبون أسطح البيوت في تحسب لأي هجوم، ونبحت الكلاب وراح بعضها يعض الخيول في أقدامها، وظنوا المدينة قد هجرها أهلها لولا صياح النسوة داخل جميع البيوت، فتقدموا مطمئنين بنظامهم المعروف لديهم، بينما

---

(١) المقصود الجنرال ديبوي الذي عينه نابليون مستحفظانا للقاهرة أي مدير الأمن أو المحافظ، فدخلها مساء ٢٣ يوليو ١٧٩٨ مع سريتان وخمسة ضباط (صناجقية).. أما نابليون فقد دخلها في اليوم التالي وكان في التاسعة والعشرين من عمره.

النيران تلتهم بيتي إبراهيم بك ومراد بك وتنير لهم الطريق إلى جانب مشاعلهم .

فلما اكتشف الناس في الصباح أن ديبه ليس كبير الفرنسيس تساءلوا متى يأتي بونابرته؟؟

وفي هذا الصباح ذهب حتحوت إلى دكان الزيات بالرويعي ليطلب معاونته فوجده مغلقاً مثل جميع الدكاكين، فكر في الذهاب إلى بيته لكنه استحى أن يفعل ذلك، وبينما هو يتوجه إلى ميدان الأزبكية إذا به يرى العسكر الفرنساوية منتشرين في كل مكان وقد نصبوا مدافعهم إلى كل اتجاه، ثم ملأت اسماعه دقات الطبول ونفخ الأبواق بشكل عظيم، مما جعل الناس يخرجون ويتجمعون بعد أن سرت شائعة بدخول بونابرته فأحبوا أن يروه، وفي موكب منتظم في طوابير تتقدمه الموسيقى رأوا شاباً يانعاً حليق الذقن بملابس الفرنجة ونياشين الكبار، يحيطه صناجقته وطوابير الجنود في محاذاته ومن ورائه، وسار الموكب فلم يصدق الناس أنه الكبير لصغر سنه، أمام قصر محمد بك الألفي بالأزبكية نزل من على صهوة جواده فبدا قصير القامة شاحب اللون وقبعته أوسع من رأسه وله نظرات هادئة باردة تطل من عينيه الرماديتين، فلما رأوا جميع الضباط يحيونه ورأوا ديبه المستحفظان يستقبله صدقوا أنه سلطان الفرنسيس الكبير، وقالوا: «سبحانه يضع سره في أضعف خلقه» . . وعندئذ بدا لهم وكأنه نمر يتحفز للوثوب فسرت القشعريرة في أبدانهم . .

وكان ديبه قد سبق له وعاين قصر محمد بك الألفي المملوكي فوجده

مناسباً لمقام كبيره، وكان الألفي قد بنى هذا القصر واعتنى بعمارته أعظم الاعتناء، وزخرفه وصرف عليه أموالاً طائلة، وفرشه بأفخر الرياش من حرير وسجاد وأخشاب، وجعل في كل طابق حماماً، وأمر أن تكون لنوافذه ألواح زجاجية ملونة على شكل رسومات، وسلالمه من الرخام والمرمر والجرانيت المصقول المجلوب من أسوان، وأرضيته مزركشة بالفسيفساء، وبنى نافورة بديعة فاخرة في قاعة الاستقبال، وجعل له بستاناً وحديقة مترامية الأطراف تمتد إلى الريف المحيط بالمدينة، فلما انتهى من جميع ذلك حدثت الواقعة وجاء الفرنسيس، فكأنه بناه من أجل أن يسكنه بونابرته الذي صار اسمه السلطان الكبير وهو الرجل الصغير!!.. فدخل القصر متقدماً اتباعه وقبل أن يختفي استدار ونظر إلى الناس ورفع يده ملوحاً، فلم يفهموا أنه يحييهم وظنوه يأمرهم بالانصراف فهرولوا مبتعدين، فتعجب واختفى!

أما حتحوت فقد تعجب كذلك، ثم سار على مهل وقد أحس بالجوع وتمنى لو كانت نقود الذهب التي معه أرغفة وغموساً. ثم مضى يبحث عن زيات فاتح فكلت قدماه ولم يجد، إلى أن وجد بالناصرية وقرب البوابة فرناً لا يعمل، فتقدم من صاحبه وأخرج له قطعة ذهبية طالباً شراء الخبز، فتأمل الرجل ثوبه الريفي الأزرق مسترِيباً لأن الفلاح لا يملك الذهب، فقال حتحوت:

ـ أرسلني عم مذكور الزيات بالرويعي.

فأحضر له بعض الأرغفة القديمة الجافة، أخذها ومضى خارجاً من بوابة السور إلى طريق مصر القديمة الموحش وهو يقرقش الخبز في سعادة كبيرة، وظل سائراً حتى الميناء حيث الهدوء الشامل لولا

أصوات السواقي التي ترفع المياه إلى مجرى العيون ، فدخل إلى مكمنه الذي يبيت فيه ، واستقبلته الكلاب بهزات الذيول دون نباح وقد ألفته ، وبينما هو كذلك رفع رأسه ليجد أمامه شاباً صغيراً ضئيل الجسد في حجم مرسي، لكنه لم يكن هو، ورآه شاهراً سكيناً صدئة، ولم يسمع صوت اقترابه بسبب قرقعة خشب السواقي، هبّ قافزاً وتراجع ورفع جلبابه وسحب خنجره الفاخر، فلما وقعت أنظار الشاب عليه لمعت عيناه وأنزل يده بالسكين وقال :

ـ هذا خنجر من خناجر المماليك ، من أين سرقته ؟؟

لم يجاوبه ، وجلس الشاب كي يعطيه الأمان، لكن حتحوت ظل شاهراً خنجره ، فقال الشاب :

ـ أنا أراقبك منذ يوم الحرب وهذا مكاني أنا ، فمن أين انت؟؟

حكى له قصته من الأول إلى الآخر ، فهز رأسه وقال :

ـ معك خبز وأنا جائع .

أعطاه رغيفاً وانتظره حتى أتى عليه وسأله :

ـ من أنت؟؟

ـ يسمونني الشاطر.

ـ واسمك الحقيقي؟

ـ نادني بالشاطر.

ثم قال :

ـ اسمع، لقد أحببتك، فهل ترغب في أن نتآخى؟؟

فقطب حتحوت محتاراً، فما كان من الشاطر إلا أن أمسك سكينه فسارع حتحوت يشهر خنجره فضحك وقال:

ـ قلت لك لا تخف.

ثم وخز طرف السكين وخزة خفيفة في رسغه فظهر دمه وتقدم من حتحوت وفعل معه بالمثل وألصق الجرح بالجرح حتى امتزجت الدماء، وقال:

ـ أنت الآن أخي فلا تخف مني بعد ذلك.

ثم أنهما راحا يتحدثان حتى عرف الواحد منهما كل شيء عن صاحبه، وحتحوت لا يكف عن التأمل في وجه الشاطر، فسأله لماذا يفعل ذلك فتردد، ولما ألح تلعثم حتحوت خجلاً، فقال الشاطر:

ـ تخجل من القول بأنني جميل مثل البنت المليحة!!

ثم ضحك وبعد ذلك بان عليه الحزن وقال:

ـ أخذت الجمال عن أمي، كانت أحلى نساء السبتية.

فسأله عنها فقال:

ـ ماتت هي وأبي وإخوتي في طاعون اسماعيل، ولا أفهم لماذا نجوت أنا؟؟.. وصرت طفلاً وحيداً جائعاً فطردني صاحب البيت، فرحت أفعل مثل طيور الميناء، ألتقط رزقي يوماً بيوم، وفي الأيام التي لا أجد فيها عملاً أسرق الطعام.

جلبابه مخرجاً لفة نقوده الذهبية فحملق الشاطر ثم راح يعدها، أوقفه حتحوت وسارع يكومها في كومين متساوين وأعطاه أحدهما:

ـ قلت أنك صرت أخي، هذا نصيبك فخذه.

فبكى من شدة التأثر، ثم خبأ كل واحد نصيبه ومضيا نحو بوابة السور، وقال الشاطر:

ـ بهذا المال ننام ونأكل بالخان ونقول أننا تجار، أنا من قليوب وأنت من الصعيد، جئنا هنا وانقطع بنا الطريق بمجيء الفرنسيس، هذا إن سألونا.. لكن علينا قبل ذلك أن نبدل ثياب الصعاليك هذه ونلبس ملابس تجار، والمشكلة أن الدكاكين والوكائل مقفولة مع أننا نملك مالاً كثيراً.

وافقه حتحوت ثم سأل عما يفعلاه بعد نفاذ النقود، ففكر الشاطر ثم استدار يتأمل العسكر الفرنساوي وقال:

ـ أذكر الآن ما فعله الشطار مع بحارة حسن باشا القبطان.

ـ وماذا فعل الشطار؟؟

ـ أصل الحيلة مكر النساء، كانت المرأة الفقيرة الشريفة إن جاعت تستدرج العسكري التركي إلى مكان خلوي، وعندما يقترب منها تخرج يدها من تحت الملاءة بشومة ثقيلة قصيرة وتضربه على أم رأسه وتأخذ ما معه وتتركه، أحياناً كانت تشترك أكثر من واحدة!.. بعد ذلك أخذ الشطار الفكرة فيخرج اثنان منهم، اثنان مثلنا هكذا، وأحدهما يخفي لحيته خلف الملاءة والبرقع بحيث لا تظهر سوى عيناه ويتقدم وحده

مبتسماً ويتقصع أمام أحد الروم فيظنه امرأة فاسدة ويتبعه إلى مكان بعيد عن الناس، وهناك يتسلل الآخر ويقتله، وهما لا يكتفيان مثل النساء بأمواله فقط وإنما يأخذان سلاحه وجميع ملابسه بما فيها ويتركانه عارياً للكلاب والغربان! . . لكن بعض الساقطات كن يذهبن إلى الروم بدافع الفجور لأن الرومي أبيض وجميل!! . . وسوف نفعل مع صنف الفرنساوي نفس الشيء!!

فارتجف حتحوت من فكرة القتل لكنه سأل:

ـ ومن هم الشطار؟؟

ـ الشطار رجال شجعان يجيدون المكائد ونصب المصائد، وينصفون المساكين الضعفاء ضد الملاعين الأقوياء.

دخلا المدينة مبكرين، فوجداها على حالها والمنادي في الطرقات الخالية ينادي بالأمان لجميع الناس على أرواحهم وممتلكاتهم وبمنع النهب، وينادي التجار بفتح الدكاكين والوكالات، وظل يطوف بانحاء المدينة ومن ورائه حتحوت والشاطر على أمل أن تفتح الدكاكين . . ومضى الظهر ولم ينفذ الناس المطلوب وبقوا في بيوتهم داخل الحواري المقفولة وقلوبهم مرجوفة وصدورهم في غم وضيق . . واضطر الصديقان إلى أكل الخبز القديم اليابس.

وفي تجوالهما وجدا العسكر الفرنساوية يمرون على بيوت الأمراء التي لم تنهب ويفتحونها وينتقون من محتوياتها ما طاب لهم ثم يخرجون تاركين الأبواب مفتوحة، فدخلا من بعدهم وبحثا أول ما

بحثا عن أنواع الفطير والحلويات والجبن والعسل وأكلا حتى شبعا ثم اختارا ما راق لهما من خفيف المتاع وثمينه وخرجا، ومع خروجهما وجدا بعض الهائمين الجائعين يفعلون مثلهما، ثم راحوا جميعاً يتبعون العساكر ويستأصلون ما يتركونه . . فلما سرقوا جميع البيوت المهجورة استداروا يهجمون على بيوت التجار فاشتكوا إلى ديبه المستحفظان، فأعطاهم ورقا لا يعرفون المكتوب فيها ألصقوها على أبوابهم فصارت تمنع العساكر من التعدي عليهم، فظنها الناس أحجبة بها تعاويذ لمنع الضرر لكنها كانت أوامر من ديبه بعدم التعرض للسكان مكتوبة بلسانهم . .

ثم أن الشاطر وحتحوت ما أن وجدا الدكاكين تفتح حتى اشتريا ملابس جديدة كانت مفصلة لحساب بعض الغز الهاربين، فارتدى كل واحد سروالاً فضفاضاً من الكتان شده حول وسطه بشريطة تكة، ومن فوقه قميص بأكمام واسعة جداً من الحرير المخلوط بالقطن، وفوقه صديري قصير من الجوخ بلا أكمام، ثم القفطان الطويل الملفوف بشال ملون عند الوسط تدلى منه طرف منديل مطرز بالحرير، وفوق جميع ذلك الجبة الخارجية وكانت من فاخر الجوخ، فشعر حتحوت بالضيق لعدم التعود، ثم زاد تململه عندما وضع على رأسه قلنسوة قطنية صغيرة من تحت طربوش أحمر له شرابة زرقاء حريرية، لف حوله شال كشميري أبيض فصار معمماً مثل التجار الموسرين، وقد وضع جميع ذلك فوق طاقية أم الخير التي رفض خلعها، ثم انتعل مركوباً من الجلد المراكشي مدبباً ومعقوفاً من الأمام . . وعندما تم جميع ذلك تأمل كل واحد زميله وضحك، وقال حتحوت أن أهله بقرية تلة لو رأوه

هكذا لما عرفوه ولربما ظنوه البك الكاشف ـ ثم سارا في اختيال ودخلا إلى خان بالناصرية للمبيت، ولأول مرة منذ زمن قديم ناما في غرفة لها أربعة جدران وسقف ونافذة لها مشربية من الخشب، وفيها وسائد وحشيات!

بعد ذلك شاهدا موكباً عجيباً، سرية قوامها مائة من المشاة القساة من الأروام . . والجزائريين والمغاربة المتوحشين وأمامهم قارع الطبول مثل مواكب الأمراء، على رأسهم فارس أبيض فارع الطول تتقد عيناه تحت العمامة البيضاء الضخمة وعلى شفتيه ابتسامة شريرة يجمد لها الدم في العروق، وبين يديه الخدم بالحراب المفضضة، وقد ارتدى ثوباً غريباً موشى بالقصب وحزاماً أحمر وسراويل فضفاضة ومعطفاً مثل البكوات تعلوه رمانتان على كتفيه مما يضعهما الصناجق . . فدهش الشاطر وقال:

ـ هذا فرط الرمان، العسكري الرومي النصراني، يبدو أنهم جعلوه كتخدا مستحفظان، وكان طوبجيا يضرب المدافع عند محمد بك الألفي صاحب القصر الذي ينزل فيه بونابرته، وله حانوت بخط الموسكي يبيع فيه القوارير الزجاجية أيام البطالة!![1].

ثم وجداه ينزل ببيت يحيى الكاشف الكبير بحارة عابدين ويستولى

---

(١) كتخدا مستحفظان أي نائب محافظ (القاهرة). وفرط الرمان هو بارتلمو الذي عينه ديبوي نائباً له بدرجة كولونيل، وكان يحب العراك وقطع الرقاب بالجملة . . وقد قدم مرة للجنرال ديبوي زكيبة مملوءة برؤوس البدو بينما كان يتناول الغداء مع صفوته فأصيب بالقيء، وكانت زوجته عملاقة البدن رهيبة تركب أحياناً إلى جواره!!

على ما فيه من فرش وأثاث ومتاع وجوار وخدم وعبيد، وبعد ذلك علم الناس أنه صار يعين للأجناد مراكز بأخطاط المدينة يجلسون بها. .

ويوماً بعد يوم صارت عسكر الفرنجة تدخل المدينة حتى امتلأت بهم الطرقات، وسكنوا في البيوت خارج الحارات لأن أهاليها خافوا منهم، وظهر أن من طبعهم حب الشراب إلى حد النشوة وترويح النفس، فإذا زادوا عن الحد لا يخرجون من منازلهم يعربدون مثلما يفعل الغز أو الروم، ومن سكر وخرج إلى الأسواق ووقع منه أمر مخل عاقبوه. . ولهذا لم يشوشوا على أحد، بل يأخذون المشتريات بزيادة عن ثمنها وليس غصباً دون مقابل مثل المماليك، وهذه من أعظم المكائد لأجل اللعب بعقول العامة فيحبونهم[1].

وأكثر ما انهمكوا عليه هو أنواع المأكولات فكانوا مثل الكلاب السعرانة، فلما وجد الناس منهم ذلك زادوا في الأثمان فصارت البيضة بنصف فضة بعد أن كانت الأربعة بنصف فضة، وصغر رغيف الخبز وطحنوه بترابه، وجميع هذا تضرر منه الأهالي! . . وبعد أن يشبعوا يستأجرون الحمير ويبرطعون بها اليوم كله في غاية السرعة مما أربك المرور في الطرقات فوقعت حوادث الطرق الشنيعة من تصادم مروع بين الجمال والبغال والحمير خاصة عند مفارق الطرق!!

ثم أن بعض الناس فتحوا عدة دكاكين بجوار تجمعاتهم يبيعون فيها الفطير والكعك والسمك المقلي واللحوم والدجاج المحمر، وفتح

---

(١) كان نابليون قد وزع منشورا على جنوده قبيل احتلال الاسكندرية بأن يحترموا تقاليد المصريين ودياناتهم وعاداتهم.

النصارى الأروام دكاكين لبيع المسكرات وعدة خمارات ومقاه، وطافت جماعة في الأسواق تبيع لهم العرق في القرب كسقاة الماء.. وباع الأجانب الخمور في بركة الفيل وأنشأوا حمامات على طريقتهم، وباعوا كذلك طرابيشهم التي على شكل أطباق، وعطور وخلافه.. ثم صار العسكر يخرجون إلى الصحراء يصيدون النعام ويضعون ريشه في برانيطهم، وراح بعض الصغار يسترزقون من تنظيف بنادقهم.. وبعد العصر يخرج بعضهم مع نسائهم الحاسرات الوجوه والمرتديات الفساتين والطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة، والمناديل الحريرية الملونة مسدولة على مناكبهن، ويركبن الخيول والحمير مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية وحرافيش العامة، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء[1] .

كما أن عبداً معتوقاً من أساري مالطة فتح مقهى عجيباً، صار الناس يجتمعون للجلوس عنده والسهر حصة من الليل، فاستأنسوا بالاجتماعات والتسلي والخلاعة، ووافق ذلك هوى بعض العامة المطبوعين على المجون مثل الفرنساوية، وكان هذا العبد المعتوق حلبي الأصل من مدينة حلب، وعمل ترجماناً لضابط منهم، ثم تزوج من امرأة من بنات البلد رضيت به وصارت تذهب معه كل ليلة إلى هذا المقهى سافرة وذراعها في ذراعه، فكان هذا من أسوأ ما حدث!!

وجلس عنده حتحوت والشاطر فرحب بهما الحلبي وشجعهما على

---

(١) المكاري هو الحمّار أي الذي يؤجر حماره، وكان الحمار مثل التاكسي الآن.. والمعروف أن عدداً من جنود الحملة نجحوا في إحضار نسائهم معهم متخفيات في ثياب الجنود.. وحرافيش العامة أي صعاليكهم.

السهر عنده، ولم يكن ذلك منهما قلة حياء وإنما فضولاً ! . . لكن الأعجب من هذا المقهى تلك الأماكن التي فتحها بعض الفرنجة من سكان البلد، إذ استأجر صاحب المكان بيتاً ليس بقصد السكن فيه وإنما لتقديم أنواع الأطعمة والأشربة إلى الفرنسيس على طريقة بلادهم، فيشتري الأغنام والدجاج والخضار والأسماك والعسل والسكر، ويطبخه الطباخون، ويضع على بابه علامة يعرفونها فيما بينهم، فإذا مرت طائفة تريد الأكل ورأوا هذه العلامة دخلوا إلى هذا المكان، فيجدون به عدة مجالس دون وأعلى، وعلى كل مجلس ورقة بها مقدار الدراهم التي يدفعها الداخل، فيتجهون إلى ما يريدون من المجالس على قدر أموالهم، ولا يأكلون على الصواني وهم متربعون على الأرض مثل خلق الله، وإنما يجلسون على مقاعد ملتفة من حول خوان يوضع عليها الطعام، ويخدمهم الفراشون على نظامهم، فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه، وبعد فراغهم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ولا مساومة ! !

ثم أن الفرنسيس استولوا على جواري الأمراء المماليك الأرمنيات والكرجيات اللطيفات، ولم يبيعوهن كما فعل القبطان وإنما عاشروهن مثل الزوجات، فلما علمت الجواري السود رغبتهم في الإناث ذهبن إليهم فرادى وأزواجاً ونططن الحوائط وتسلقن إليهم من الطاقات وأرشدوهم على مخبآت أسيادهن الهاربين، أما غلمان المماليك فإن الفرنسيس لم يرغبوا فيهم ! . . ثم زاد تداخل ناقصات العقول والقاصرات معهم، في البداية بخجل ومع بعض الأحتشام ومبالغة في الاختفاء، ثم خلعت أكثرهن برقع الحياء بالكامل وطرحن الحشمة والوقار وقلدن نساء الفرنجة .

وكان ديبه قد أرسل يطلب المشايخ والوجاقلية عنده للتشاور في تعيين عشرة أنفار من المصريين للديوان ليس فيهم مملوكي واحد لأنه كان ممتنعاً عن تقليد المناصب لجنس الغز، فطلبوا تعيين اثنين منهم في مناصب الشرطة الكبيرة وأفهموه أن السوقة لا يخافون إلا منهم!![1].

وفي اليوم التالي أمر بونابرته بانشاء ديوان مشابه في كل إقليم يتكون من سبعة أشخاص يسهرون على مصالح الإقليم وتعرض عليه الشكاوى ويوقف اعتداء القرى بعضها على بعض.

ومن غرائب أرباب الديوان أيضاً أنهم تشفعوا لدى الفرنسيس للإفراج عن الأسرى من المماليك، فقبلوا شفاعتهم بعد إلحاح وأطلقوهم، فدخلوا الجامع الأزهر وهم في أسوأ حال وثيابهم ممزقة، ومكثوا يأكلون من صدقات الفقراء، وقبل ذلك ما كان أحد المصريين يجرؤ على ركوب دابته أمامهم، وفي ذلك عبرة للمعتبرين!

(١) الوجاقلية أي ضباط الأمن، وكان المفروض أن يقوم الديوان بعمل الحكومة تقريباً أو مجلس المحافظة.

- ١٢ -

سرعان ما غلب الطبع على التطبع ، وبدأ الفرنسيس يسلكون مسلك اللعين حسن باشا القبطان ، فتصالحوا مع الست نفيسة زوجة مراد بك وأتباعها من نساء الأمراء بمائة وعشرين ألف ريال ، ثم طلبوا السلف من التجار مسلمين وقبط وشوام وفرنجة من سكان البلد، فسألوا التخفيف ولم يجابوا ، حتى السقائين لم يعتقوهم ، وكل من دفع مالاً أخذ به صكاً، والصك مضمون بايراد الجمارك ، والجمارك في الثغور، والثغور تحاصرها سفن الانجليز أعداء الفرنسيس، وكان هذا من خبيث الأفعال . . وبعد أن كان مال الناس مثل عصفور في اليد صار مثل عصفور فوق الشجرة ، إذ أن بعض نصارى الشوام نقلوا عن رجل مسلم من أعيان تجار وكالة الصابون أنه قال أن مراكب الانجليز حاربت مراكب الفرنساوية بثغر الاسكندرية وأغرقوها عن آخرها ، وأحرقوا مركبهم الكبير المسمى «نصف الدنيا» . . فلما بلغ هذا الكلام إلى الفرنسيس أحضروا التاجر وواجهوه بأقواله فقال أنه حكى ما سمعه عن فلان النصراني ، فأحضروه وأمروا بقطع لسانيهما معاً أو يدفع كل واحد منهما مائة ريال ، فتشفع المشايخ لهما وفشلوا ، فذهب أحدهم

وأحضر مائتي ريال ودفعها، فلما قبضها الوكيل الفرنسي ردهاً ثانية إليه وطلب منه تفريقها على الفقراء، فأظهر الشيخ أنه فرقها كما أشار وردها إلى صاحبها[1].

فلما وجد الفرنسيس أنهم صاروا معزولين عن وطنهم حزنوا واغتموا، وبندقوا بالرصاص على بعض الناس بالأزبكية والرميلة، ثم طلبوا الخيول والجمال والسلاح وأيضاً الأبقار والثيران، ورغب كبيرهم بونابرته في مداراة كمده فتمحك في وفاء النيل المبارك فألصق أوراقاً مطبوعة على النواصي وفي الوكالات، وأخرج المنادي ينادى بالطرقات على الناس بالخروج على جري العادة للاحتفال والتنزه عند مقياس الروضة، وذهب في كامل نياشينه وطبوله وزموره، وجلس عند جسر السد ومعه قواده وأرباب الديوان والأعيان وأصحاب المشورة بالقفاطين والعمائم البهية، ثم قرأ القاضي حجة النيل طالباً تقديم الشكر لله ودفع الميري للجباة[2].

ومع قطع الجسر دوت المدافع، وما لبث الفيضان أن غمر ترعة الخليج، لكنه لم يغمر ميدان الأزبكية فقد منعوا عنه المياه بسبب وجود

---

(١) حاصر الانجليز جميع موانيء مصر على البحر المتوسط، وأغرق أسطولهم بقيادة نلسون الأسطول الفرنسي الذي جاء بالحملة إلى مصر، وأحرق سفينة القيادة أوريان أي الشرق والشرق نصف الدنيا وهي السفينة التي جاء بها نابليون، وقد حدثت موقعة أبي قير في ١٠ أغسطس ١٧٩٨.

(٢) جلب نابليون مع حملته مطبعتين حروفهما فرنسية ويونانية وعربية، ولم تكن الطباعة قد عرفت في مصر قبل ذلك، وبقيت احداها في الاسكندرية حتى نهاية عام ١٧٩٨ ثم نقلت إلى القاهرة وعليها طبعت جميع منشورات نابليون، وكان أول كتاب طبع في مصر هو: «تمرينات في العربية مختارة من القرآن لينتفع بها دارسو العربية».

المدافع أمام قصر صارى عسكر بونابرته، وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد للتنزه سوى بعض الناس البطالين وبعض نصارى الشوام والقبط والأروام والأفرنج من سكان البلد والقاصرات السافرات!

أما ما كان من أمر مراد بك فهو بعد أن هرب إلى الصعيد حبس مراكب الغلال هناك ومنعها من السفر إلى مدينة مصر، فشحت في الأسواق وزادت أسعارها زيادة فاحشة، فشكا الأهالي، وزاد غضب بونابرته لأن البحر المالح يملكه الانجليز والصعيد يحكمه مراد، فجلس يفكر ويدبر.

وكان انقطاع المراكب نكبة على حتحوت الذي يريد العودة إلى أهله، وكلما ذهب إلى مصر القديمة ترحب به كلاب الميناء ولا يجد مركباً تقله . . وبعد وفاء النيل وجد غلايين الحرب الفرنسية تحتل المكان متجمعة هناك، والعسكر ينقلون البضائع ويشونوها على الرصيف، فاحتار وقال الشاطر:

- يبدو أنهم يجهزون لقتال مراد بالصعيد.

- وبذلك تذهب الحرب إلى الناس هناك. وتنقطع الطريق على تماما!!

ثم أن الابتئاس بان عليه، فعطف عليه صاحبه وكان يعرف أنه دائم التفكير في أهله وأنه في غاية القلق على أخيه مرسي، فراح يطيب خاطره حتى دخلا من باب السور إلى الناصرية فوجدا عدداً من الفرنسيس وقد فتحوا قصر حسن كاشف شركس الجديد[1] وأيضاً

(١) مكان مدرسة السنية الآن.

القصور المجاورة وبيت السنارى[1] ويدخلون إليها صناديق مقفلة في حرص شديد، فوقفا يراقبان وقال حتحوت:

ـ ماذا سيفعلون بهذه القصور؟؟

ـ علمي علمك، لكني شمتان في حسن كاشف شركس اللعين، لقد عمَّر هذا القصر الجديد وصرف عليه أموالاً عظيمة من ظلم العباد، وعند تمام بياضه وفرشه جاء هؤلاء ففر، وها هم يأخذونه وليتهم أخذوا حياته!

ثم التفتا فرأيا غلاماً أسود يخرج خلف رجل فرنساوي في ملابس الفرنجة العادية، اقتربا منه وابتسم له الشاطر فابتسم لهما، وسألوه عما يحدث فمط شفتيه وقال:

ـ لا أعرف، سيسكن هنا سيدى «دنون» هذا وآخرون . . .

ثم عرفا أن سيده هذا الذي اسمه دنون عاطل لا عمل له إلا الرسومات[2] . . وأنكر معرفته بمحتويات الصناديق، وقال:

ـ قد تكون ملابسهم.

ورأى حتحوت أن وجهه الأسود وسيم الملامح فسأله إن كان من النوبة، فبدت أسنانه البيضاء وهو يجيب ضاحكاً:

---

(١) ما زال موجوداً ويتبع وزارة الثقافة الآن.

(٢) المقصود دينون (فيفيان دينون): كاتب وفنان رسم مجموعة رائعة من الصور عن الآثار المصرية، كما رسم بعض المعارك أثناء وقوعها، وفيما بعد عين في عهد امبراطورية نابليون بادارة المتاحف وصار عضواً في المجمع العلمي الفرنسي.

- أنا كردفاني من كردفان بالسودان، واسمى إدريس.

وعرفاه باسميهما ووعداه باللقاء في الأيام التالية ففرح وقال:

- لأول مرة يكون لي صاحبان في مصر.

ثم قطع كلامه ولوح بالتحية وهو يتبع دنون الذي دخل يطمئن على انزال الصناديق في حرص زائد، فقال الشاطر:

- لا بد أن نعرف ما في الصناديق، قد يكون ذهباً أو فضة.

راقب حتحوت ضخامة الصناديق وعددها فلم يوافقه، ثم علما في اليوم التالي من إدريس أن هذه الصناديق كانت مملوءة بالكتب والمجلدات والرسومات وبعض الآلات الغريبة فأصيبا بالدهشة والحيرة، ثم همس لهما أن السلطان الكبير بونابرته سيزور المكان بعد قليل، فانتظرا يراقبان، فرأيا رجلاً وقوراً يصل ظنه الشاطر شيخ البلد الفرنساوي جاء يفتش لكن إدريس ضحك وقال:

- هذا الرجل أيضاً عاطل، واسمه «منج» ويعمل بالكيمياء.

فصاح الشاطر في زهو لحتحوت:

- ألم أقل لك، الكيمياء يعني تحويل النحاس إلى ذهب بواسطة طلاسم سرية[1].

---

(١) حضر مع الحملة الفرنسية العديد من صفوة العلماء الفرنسيين، فشكل منهم نابليون المجمع العلمي وكلفهم بدراسة كل شيء عن مصر من زراعة وحرف وتاريخ وعادات وخلافه، وكان أول اجتماع للمجمع العلمي في ٢٣ أغسطس ١٧٩٨ . . ومونج (٥٢ سنة) هو واضع أسس الهندسة الوصفية، وكان مساعداً للعالم الشهير لافوازييه وقيل أنه شهد له باكتشاف تركيب الماء من الأيدروجين.

ثم حدث هرج ونشاط وأبعدوهما، وملأ العساكر الطريق من حول القصر، فانصرفا خارجين من بوابة السور إلى الطريق الموحش المؤدي لمصر القديمة، ثم تسللا إلى مكمنهما وراحا يراقبان، فوجدا الحركة هناك في تزايد وبدا مؤكداً أن هذه المراكب مسافرة للحرب في الصعيد، فابتأس حتحوت وتأمل المياه تملأ النهر وهاج شوقه إلى أمه وأبيه وسنبلة وزهرة ومنصور وجميع قريته والنوتية، لا بد أنهم شربوا من هذه المياه عند مرورها عليهم! . . لكنه أفاق على الشاطر يلفت نظره إلى جندي فرنساوي ينزوي عن قربهما وينزل بنطلونه ليقضي حاجته، توتر الشاطر وقال:

ـ هذه فرصتنا، فلنقتله.

ثم مد يده يخرج سكينه من تحت الجلباب بينما جمد حتحوت شاحباً مرتجفاً، وتأهب الشاطر للانقضاض وتأهب هو للفرار، والسواقي تقرقع بأصواتها المقلقة، ثم حانت التفاته من العسكري فوجداه شاباً صغيراً شاحباً وعيناه كليلتان وبهما احمرار شديد ورفع يده يدلكهما وهو يئن ويضج، فأحسا به مريض البطن إلى جانب العينين، فارتجفت يد الشاطر وأعاد السكين إلى مخبئه وانصرف مع حتحوت منكس الرأس في خجل لتردده، وبعد مسيرة قال معتذراً:

ـ لم أقتله لأنه مسكين، لكننا لن نرحم التالي.

فلما عادا إلى المدينة وجدا العسكر ما زالوا يملأون الناصرية ففهما بأن

= والاكسجين، وكان من رأيه أنه لو استوطنت ٢٠,٠٠٠ أسرة فرنسية مصر يشتغل افرادها بالتجارة والصناعة لغدت مصر أجمل المستعمرات الفرنسية، وما زال الشارع الذي به قصر السناري يحمل اسمه.

السلطان الكبير قد يكون بالداخل، ومضيا وحتحوت منشغل التفكير في وسيلة يعود بها إلى أهله والمراكب لا تأتي ولا تروح، فإن هو ذهب عن طريق البر لربما خرج له العربان وقتلوه، فتجلد.. لكن مع حلول المولد النبوي زاد اشتياقه إلى اسرته، ثم شغلته احتفالات أهل مدينة مصر بهذه الذكرى، وكان السلطان الكبير قد أمر بالاحتفال به على جري العادة، فاستمتع حتحوت مع الشاطر ثلاثة أيام بلياليها بالهتاف والغناء في الطرقات، ومشاهدة المئات يمشون في المواكب بالمشاعل والشموع الكبيرة ينشدون ويمدحون، وصارت الميادين عامرة بالمعارض والفرج الصغيرة، وأهل الملاهي بالدببة المدربة والقردة الماهرة تبهر الناس وتضحك الصغار، والمغنون والمغنيات ينشدون الأدوار، والحواة يخفون الثعابين ثم يظهروها فتذكر الحاوي الذي لاقاه في أول زيارة له وأخفى طاقيته فبكى حتى أعادها له بعد أن نفخ في الصدفة الكبيرة!.. وفي المساء كان يأتي دور الدراويش في الذكر ومن تمسه هزة التجلي ويغيب عن وعيه تتمسح فيه النساء للتبرك..

أما السلطان الكبير فقد ذهب إلى دار السيد البكري للعشاء وخلع عليه خلعة ثمينة وعينه نقيباً للأشراف مكان السيد عمر مكرم الذي فر مع إبراهيم بك إلى الشام، وكانت صينية بونابرته من الفضة الخالصة صفت عليها أصناف الطعام من هضاب اللحم وتلال الأرز، وأكل صاري عسكر الفرنسيس بونابرته بأصابعه مثل المشايخ والأعيان، ولم يعجبه الأكل لأنه ليس على طريقته وهذا من أهم أسباب صفرة وجهه الدائمة!!.. وطول النهار وعسكره يلعبون الألعاب ويدقون الطبول الكبيرة بميدان الأزبكية، وطبلاتهم الكبيرة تشبه طبلات النوبة التركية، وعدة آلات ومزامير مختلفة

الأصوات، وعملوا في الليل حراقة النفوط والصواريخ التي تصعد في الهواء بألوان بهية!..

ووجدها حتحوت مناسبة لائقة لزيارة مدكور الزيات، فأخذ الشاطر وذهب إلى دكان الزيات بالرويعي، الذي دهش لرؤياه ولم يعرفه في البداية بسبب ثيابه الفاخرة الغالية، ثم استمع منه إلى قصته من الأول إلى الآخر، وشاركه القلق على مرسي. ثم انتهى الكلام، فأخرج الزيات من صدر قفطانه كيس التبغ من تحت حزامه وعبأ الشبك ثم أخرج الزناد والصوفان واشعل الشبك وراح يدخن، وكانت قصبة الشبك مغطى معظمها بالحرير والشراريب ولها فم كهرمان[1].. ومع الصمت راح الشاطر يتأمل بغلة الزيات المربوطة وبردعتها المحشوة ذات الغطاء الجلدي الأحمر المحلى بالشراريب وبقطع النقد الصغيرة، ثم تأمل الخاتم الفضي في إصبع التاجر وقرر شراء خاتم مثله ثم استبعد الفكرة لأنه ليس في حاجة إلى ختم صك أو رسالة[2].

وشرب القهوة المرة المحوجة بالحبهان في فنجان صغير بلا أذن محاط بظرف نحاسي، أما حتحوت فقد اكتفى بالعرقسوس، ولما وقفا للانصراف لم يستبقهما للغداء، وطلب من حتحوت أن يلجأ إليه إن احتاج لشيء ووعده أن يخبره عن أول قافلة تكون صاعدة إلى الصعيد، فشكره وانصرف وفي الطريق قال للشاطر:

---

(١) الشبك قصبة طويلة في آخرها حجر فخار يوضع به الدخان، أما الصوفان والزناد فلإشعال النار مثل الولاعة الآن.

(٢) كان الخاتم يوضع بخنصر اليد اليمنى وينقش عليه اسم صاحبه مع كلمة خادمه أي خادم الله، ويستعمل لختم الرسائل والمكاتبات بعد تلطيخه بالحبر.

ـ هل لاحظت نظراته لثيابنا، لعله يظننا سرقناها.

ـ مع أننا اشتريناها بنقودنا الذهبية!

فنظر إليه ولم يتكلم ، وعند المفترق وبينما أحد جمال الحمل يخرج إلى الطريق الواسع إذا به يصطدم ببغل تركبه امرأة سافرة كانت تسابق أحد العساكر فوقعا، وقال الشاطر مستاء:

ـ كثرت حوادث المرور بسببهم هذه الأيام!

أما ما كان من أمر الأهل بقرية تلة في إقليم المنيا فإنهم باتوا في شدة من القلق والهم بسبب أخبار الحرب، ومبروكة لا تنام لغياب زوجها مرسي، وكل يوم يذهب رضوان إلى المينا ويسأل عن المركب ويزور عمه الريس جابر في بيته، وبات معروفاً لديه أن مراد بك هرب تاركاً كل شيء للفرنسيس وأنه مع اتباعه في نواحي بني سويف والفيوم غرب بحر يوسف، وتبرم الريس جابر من مراد لأنه دائم الهرب إلى الصعيد، وكان أولى به أن يلحق بقسيمه ابراهيم بك في غزة أو الشام لترتاح الأهالي من قرفه!

وظلت أم الخير تذهب إلى السوق قرب موردة الحنش كل أسبوع وليس كل شهر كعادتها ومعها مبروكة، وتظلان جالستين على أمل عودة الغائبين، ثم يعود بهما رضوان آخر النهار، وكانوا في أثناء ذلك يتركون مندور ومسعود في رعاية اختهما زهرة التي قاربت أن تكون عروساً في الثانية عشرة، وعمتهما سنبلة التي صارت في لون القمح ورشاقة غصن البان، ونسي الجميع الضحك، وقالت أم الخير متذكرة نبوءة الغجرية:

ـ ها هو تغرب شمالاً ورأى أنهار الدماء!!

فقال رضوان يطمئنها:

ـ وبقيت له تغريبة الجنوب، سيعود قريباً بإذن الله.

فناحت مبروكة:

ـ فماذا عن مرسي زوجي أبي أولادي والغجرية لم تقل عنه شيئاً؟!

ومرت الأيام ثقيلة إلى أن وقعت المفاجأة وعاد النوتية بالمركب من غير ريسها مرسي وأخيه، وقال أحدهم:

ـ انتظرناهما يوم الحرب والوغى بطوله، هربت جميع المراكب من مصر القديمة وبقينا نحن حتى الغروب، فلما رأينا العسكر الفرنساوي يتجهون إلى الجيزة أقلعنا إلى ما بعد حلوان وبتنا هناك، وفي النهار تسللنا على أرجلنا إلى مصر القديمة فلم نجد أي مخلوق، ورأينا غلايين الفرنسيس تتجول ما بين الجيزة وبولاق فقفلنا عائدين..

وما أن انتهوا من حكايتهم حتى اتهمهم الريس جابر بالجبن، لكن رضوان سألهم والدماء تغلي في عروقه عن مصير ولديه، فقالوا أن علم ذلك عند الخالق، فدعا إلى الخالق أن يسخطهم حميراً، فقال أحدهم:

ـ ابنك مرسي عنيد مثل حمار السباخ، ظللنا أسبوعاً قبل الحرب نرجوه أن نعود فيرفض مفضلاً البقاء للفرجة.

وناحت مبروكة ولطمت أم الخير، أما رضوان فقد تذكر نصائح المرحوم والده حتحوت الكبير وتماسك وجلس يأمر بالشاي في هدوء ثم قال بصوت الواثق:

ـ هما بخير وسيرجعان بإذن الواحد الأحد، وسيلتئم شمل الأسرة كأحسن ما يكون.

فعادوا إلى حياتهم بدموع أقل ووسوسة أخف، لكنهم ضاعفوا من قيمة النذر الذي نذروه لعودة الغائبين في سلام وأمان.

أما مرسي فكانت له حكاية تروى، فقد أبحر ضمن غلايين الغز حاملاً العتاد، بينما سار مراد بك وفرسانه على البر، وكان غرض مراد أن يتحصن في إقليم الفيوم فتوقف عند مشارف بني سويف وأمر الغلايين بالتوجه جنوباً حتى ديروط لتدخل من هناك إلى بحر يوسف وتعود وتقابله قرب الفيوم[1]. .

ومع اقتراب الغلايين من شاطىء المنيا خرج الأهالي يراقبونها وقد حسبوها غلايين بونابرته وتوقعوا الحرب، ودمعت عينا مرسي وهو يرى الشاطىء والمدينة وموردة الحنش حيث سيقفون حيناً للتموين، واحتار إن كان ينزل ويزور أهله، ولكن ماذا يقول عن حتحوت؟! وكيف يواجه أباه وأمه؟ وكان في أشد الشوق اليهما وإلى مبروكة امرأته وزهرة وسنبلة ومنصور ومندور، لكن خجله كان أقوى، واحساسه بالذنب جعل وزنه يقل رغم نحافته وصغر جسده، وذلك منذ يوم المعركة الغبراء عندما ترك أخاه يضل منه والمفروض أن يرعاه خاصة وقت الشدائد. وأدرك أن ما فعله هو الرعونة، وأن عبوره من بولاق إلى إمبابة عند كسرة جيش مراد كان حماساً زائداً لم يقدم وربما أخر، لهذا كله بقي حبيس الغليون لا ينزل البر مخفياً نفسه عن أعين نوتيته ونوتية المراكب الأخرى، يعذبه الشوق وأهله على بعد قريب. لكنه قبل الرحيل إلى ديروط لم يقدر على كبت أشواقه ونزل يزور مركبه الراسية فاستقبلوه النوتية بالأحضان، ورأوه على عجل، وطلب منهم

(١) وقتها كان بحر يوسف يخرج من النيل رأساً من عند ديروط. أما الآن فهو يخرج من ترعة الإبراهيمية ومن نفس البلدة.

إبلاغ الريس جابر أنه بخير كي يطمئن أسرته، فلما سألوه عن حتحوت تركهم قائلاً:

ـ هو أيضاً بخير.

وبقدر فرحة أم الخير كان غضبها لأنه لم يزرها، غير أن الدار باتت هانئة، وإن كانت المخاوف عاودت الأم لأن أحداً لم ير حتحوت، ولأنها لم تكن راضية عن زج مرسي نفسه في حروب الغز نهابي الميري والفرد والبراني والمظالم!

وكانت الغلايين قد سارت جنوباً إلى ديروط ثم دخلت إلى بحر يوسف وقفلت عائدة فيه شمالاً، وبعد رحيل طويل عبرت من جوار بر المنيا من أقصى الغرب وواصلت لتلاقي جيش مراد بك عند «اللاهون» قرب الفيوم، فوجدوه في خيمة فاخرة مع امرائه تعلوها البيارق اللامعة ومن حولها الحراس المسلحين بملابسهم الثمينة.. وتحير مرسي فيما ينوى مراد عمله ازاء بونابرته، لكنه لاحظ انضمام مئات من العربان إلى جيشه، وعلم أنه كتب مراسلات عديدة ختمها بخاتمه الذهبي الكبير في خنصره والذي فيه اسمه ولقبه وأرسلها إلى مشايخ العرب والأمراء وحكام الصعيد وإلى أتباعه بمدينة مصر والوجه البحري، وأيضاً إلى الانجليز في أسطولهم أمام الاسكندرية، ولقسيمه ابراهيم بك في غزة، وبالجزار باشا في عكا.. وحمل هذه الرسائل البدو على الهجين السريع، فظن مرسي أنه يتريث حتى تصله امدادات العتاد والرجال ثم يقودهم من أجل حرب السلطان الفرنساوي الكبير الذي كان غاضباً بسبب انقطاع غلال الصعيد. ومن أجل هذا كان تجمع الجنود والغلايين الذي رآه حتحوت في مصر القديمة والجيزة.

وكان شغل حتحوت الشاغل العودة إلى أهله، وكان الشاطر يغير الموضوع دائماً، لكنه لما رأى حزنه وانطواءه قال:

ـ لأنك نوتي فأنت تظن أنه لا توجد سكة إلا النهر، جرب البر.

ـ البر طريق خطر.

ـ لن ترحل بهذه الثياب الجديدة بل القديمة.

ـ ومن أين لنا بالدابة.

ـ تقصد لك؟؟

ـ بل لنا، وأنا أحب أن تأتي معي، أنت لا أهل لك هنا، وفي المنيا ستصبح منا وتتزوج من أختي سنبلة أو من ابنة مرسي زهرة، ألم نتآخ؟

وبعد رفض وامتناع عاد الشاطر وراقته الفكرة، وعندما سألا عن ثمن البغال اكتشفا أن ما تبقى معهما لا يكفي لشراء اثنين، ذلك أن دواب الحمل زادت أسعارها بسبب استيلاء الفرنسيس على جميع أنواعها، وعندئذ قال الشاطر:

ـ نقتل فرنسيا ونأخذ أمواله..

ولتحقيق ذلك ظلا يذهبان إلى مصر القديمة على أمل الاختلاء بأحد العسكر، وفي يوم كان مسطوراً في لوح الغيب وتم تدوينه في كتب التاريخ لاحظا أن حركة الفرنسيس تزايدت، وأن ما كان مشوناً على البر صار مرصوصاً فوق الغلايين.. فراحا يتحينان الفرصة فإذا بعسكري سيء الحظ ينزوي لقضاء حاجته بعيداً عن الأعين مثل زميله السابق الذي كان مريضاً بعينيه ومعدته، فتقدم الشاطر يشاغله بينما أمسك حتحوت بحجر ثقيل

ورفعه، لكنه في اللحظة الأخيرة جبن وألقاه، فغضب رفيقه والتقط الحجر وضرب به الجندي الذي وقع على الأرض وبنطلونه وسرواله مفكوكين، فذعر حتحوت وارتعد، وأخرج الشاطر ما في جيوب القتيل وجرى مبتعداً حتى تعب وجلس فلحقه حتحوت، وبعد أن التقطا أنفاسهما قلبا في أشياء العسكري فأصابتهما خيبة الأمل والأسى لأن جميع ثروته لم تتعد السبعة عشر ريالاً!! . . فبقي حتحوت يلهث ثم غمت عليه نفسه وتقيأ حتى امتلأت عيناه بالدموع وقال:

ـ إنه فقير مثلنا!

فأومأ الشاطر لكنه قال:

ـ لماذا جاء إلى بلدنا، إنه من الأعداء وقتلهم حلال!

ـ ستحزن أمه كثيراً.

فوقف الشاطر وجذبه من ذراعه يوقفه:

ـ وهل عملوا حساب أمهاتنا ؟؟

وعندئذ فكر حتحوت في أم الخير وأخيه مرسي وكان يظنه قد مات، بينما كانت المراكب الفرنسية ترحل تباعاً إلى الجنوب ينقصها أحد عساكر حملة الصعيد.

- ١٣ -

كانت الرياح شمالية والنهر عالياً عندما بدأت رحلة القوات البرية صوب الجنوب يقودهم فارس ضئيل الجسم كبير العقل، يفوق سلطانه الكبير مكراً ودهاء، بوجهه ندبة من ضربة سيف قديمة، همام مغـوار عنيد، وإن كان دميم الوجه أشعث الشعر سيء الملبس رديء المظهر، سمته أمه يوم أن ولد «ديزه»[١].

تحرك ديزه ترافقه من جواريه سارة الحبشية، وكانت رعناء مع أنها في الخامسة عشرة من عمرها، فائرة الجسد دافئة البدن، راغبة مستعرة الشهوة على الدوام، ولم يدفع فيها ريالاً واحداً لأنها أهديت إليه ضمن كثيرات، لكنه اختارها هي بالذات لسبب عظيم، فهو عندما جربها في مدينة مصـر عرف أنها من نوع الجواري غاليات الثمن، يكون جسدها في الصيف بارداً فلا تعرق وفي الشتاء دافئاً فتمتع الذكر[٢].

---

(١) ديزيه هو قائد حملة الصعيد، وهو مقاتل تنطبق عليه فعلاً الأوصـاف المـذكورة في التغريبة أعلاه، وكان معه ٣٠٠٠ من المشاة وعدة مدافع وألف من خيالة وسرب من الجمال حملة المؤن والعتاد، وقد تحرك في مساء ٢٥ أغسطس ١٧٩٨ . . بالاضافة إلى أسطول القوارب الصغير الذي أبحر من مصر القديمة والجيزة.

(٢) كانت لديه أيضاً «استيزا» فتاة من جورجيا لطيفة شقراء رقيقة في الرابعة عشرة، وصفها :

وقد سبق ديزه المراكب إلى بني سويف فنصب المعسكر والخيام وبقي عدة أيام يستطلع أخبار الغز، فعرف أنهم يعسكرون ناحية البهنسا غرب بحر يوسف، وأن أسطولهم معهم هناك يحمل المؤن والمتاع، وهو الأسطول الذي به الريس مرسي بن رضوان بن حتحوت الجد . . فأخذ كتيبة وسار براً إلى هناك خائضاً مع رجاله في وحل الفيضان حتى ركبهم، ساعة بعد ساعة ثانية ثم ثالثة، فرآهم بدوي من فوق ناقته فسبقهم ينذر مراد بك، فأمر بهدم الخيام، وتأهب مرسي والرجال للقتال، فإذا به يأمر المراكب بالفرار جنوباً إلى ديروط حتى لا تقع في يد الفرنجة فأخذت ترتحل، وكان غليون مرسي قرب المؤخرة ويستعد للاقلاع بعد رحيل المراكب السابقة عليه فإذا بأحد المراكب تجنح وتحجز المراكب الأربعة الأخيرة ومنها مركب مرسي، ولم يكن الوقت كافياً لجرها بالحبال من على البر، بينما طلائع الفرنساوية قد ظهرت وعلى رأسهم ديزه، فأمر مراد نوتية المراكب المحجوزة بتركها واللحاق به، ووصل ديزه بينما آخر إبل المماليك تختفي في الصحراء غرباً، فلم يفز إلا بحمولة المراكب من أسلحة وغلال، فاغتاظ لأن الصيد الكبير أفلت منه وكان أمام ناظريه، وقرر أن يحرمه من الأسطول وأن يغرقه عند

= في خطاباته بأنها جميلة مثل فينوس، وقد آلت إليه بحق الميراث لأن سيدها المملوكي كان قد قتل . . ثم أهديت اليه سارة التي رافقته حملة الصعيد، كذلك تملك «مارا» وكانت ما زالت طفلة أصلها من شواطىء دجلة، وفاطمة التي كانت حسناء جميلة التكوين طويلة ولكنها تعيسة بسبب سبيها، بالاضافة إلى ثلاثة زنجيات، وغلام أسود صغير اسمه باقل، ومملوك صغير اسمه اسماعيل قال عنه أنه حلو الصورة كأنه ملاك . .

أما نابليون فقد خدمه عدد من العبيد والمماليك والجواري، منهم رستم رضا الذي أخذه معه إلى فرنسا، وكان هدية من السيد البكري يقوم مقام المحظية له أحياناً . . وعند مجيئه إلى مصر أهديت له ست جوارٍ من حسناوات الشرق، وجدهن بدينات فصرفهن من غير أن يمسسهن .

ديروط في أثناء خروجه إلى النيل لأن مراد بك بلا مراكب الذخيرة لا يساوي شيئاً، فأسرع ووصل المنيا وسارة الحبشية مثل ظله، تطعمه وتشربه وفي الليل تدلك له عضلات رقبته فيسترخي ويرتاح، وعندما يتحسس جسدها يجده رطباً رغم القيظ فيستريح في حضنها حتى النشوة، فإذا انتابتها الرعونة رفسته بقدميها بعيداً عنها وتكورت تنام فلا يقدر على مسها، وينظر إليها مأخوذاً حتى ينام أو يقوم يكتب المراسلات للسلطان الكبير في مدينة مصر..

ولم يقف ولم يسترح حتى وصل ديروط فشاء رب الكون أن تكون مراكب المماليك قد دخلت النيل وسبقته إلى أسيوط، فلما وصل هناك وجدها سبقته إلى جرجا، فقرر أن يترك المراكب ويعود إلى مراد نفسه قرب الفيوم لأن المراكب بلا مراد بك لا تساوي شيئاً، واستحث رجاله على السير، والحر يدفعهم للعطش، والعطش يدفعهم للشرب والعرق، وكلما شربوا المزيد عطشوا، والأمراض تنتشر بينهم من نوع الدوسنطاريا أو الرمد أو كليهما، فتخلى عن بعض مراكبه لاعادة المرضى إلى مدينة مصر وأثناء رحيلها شمالاً مرت على المنيا، بينما اتجه هو إلى ديروط قاصداً الدخول إلى بحر يوسف لملاحقة مراد قرب الفيوم، فأخذ نصف المراكب وترك النصف الآخر بالنيل لمراقبة ارسال الغلال إلى بونابرته، وأرهقه بحر يوسف وعاكسه لجهل بحارته بأسرار منحنياته ولانخفاض منسوب الترعه، والأهالي على الجانبين يرمونهم ببعض رشات الرصاص وكثير من الحجارة، وقبل أن يستريحوا في النوم ليلاً يدوي نفير الصحيان قبل الفجر، فيخوضون الوحل لجر المراكب أو يمشون في الرمال حتى بليت أحذيتهم وثقبت نعالها، والشمس تلتهب عند الظهيرة وتعكس الرمال لهيباً مضاعفاً، والرمد

يستفحل أمره، ومائة من عسكره يفقدون البصر ويسحبهم مائة آخرين، حتى يأتي المغرب فيبحثون عن مأوى للنوم!

بينما مراد بك يجلس في خيمته الجديدة مرتاحاً تخدمه الجواري الشركسيات، ويدلك قدميه غلامان أمردان، ويحرك الهواء له عبدان أسودان بمراوح من ريش النعام، ولا تجرؤ واحدة من جواريه عصيان رغبته أو رفسه كما تفعل سارة مع ديزه أحياناً وإلا باعها أو وهبها لتابع له يفعل بها ما يشاء أو يفصل رأسها عن بدنها. . ومن حوله خيام الأمراء وعساكره مرتاحون، نوم وأكل وملبس من أحسن الأنواع، ومئات العربان قد انضموا إليه، وطلائعه تذهب تناوش ديزه في الطريق بعض الوقت ثم تتركه لترحيب أهالي كل قرية يعبرها بالرصاص والحجارة. .

وعرف مراد بك أن عدد فرسانه أكثر من ضعف جميع جيش ديزه البائس، ورغم هذا خاف مرسي أن يعود إلى عوائده ويهرب. . وعندما لاح الفرنسيس كانوا منهكين في غاية التعب، ونظر كبيرهم ديزه فوجد نفسه محاصراً من جميع الجهات، وغريمه قد ملك المرتفعات، فبسرعة انقسم جيشه إلى المربعات المعروفة لديهم فصاروا وكأنهم قلاع متحركة، وانتظروا، وتمنى مرسي لو تركهم مراد على هذه الحال ويبقى على حصارهم حتى يموتوا جوعاً وضجراً ويكتفي بإطلاق مدافعه الثمانية عليهم من فوق التلال، لكن طبول المماليك قرعت وانحدرت العسكر من عل بالخيول والاتباع يلهثون من خلفهم، تاركين أماكنهم المحصنة ليحيطوا بجيش الفرنسيس من كل صوب في حماسة زائدة. . وكما حدث في إمبابة بقيت المربعات ساكتة حتى اقترب الفرسان ففتحوا النيران لتفتك بهم فتكاً ذريعاً، ثم استلقوا على بطونهم فوق الرمال فأتاحوا بذلك الفرصة لمدفعيتهم أن

تطلق قنابلها من فوقهم على خيالة مراد بك، وتساقط الكماة وانكسرت هجمتهم، فانسحبوا وهاجموا من جديد مرة ثانية وثالثة ولعدة ساعات، حتى نجحوا في إحداث عدة ثغرات بالمربعات وذبحوا عدداً من الفرنسيس وذبح الفرنسيس منهم عدداً، والشمس ترى كل ذلك وتسرع نحو المغيب فيزيد اصفرارها من حمرة الدماء التي تتشربها الرمال!! . .

وكأن مراد تذكر فجأة مدافعه الثمانية فأمر مماليكه وعربانه بالانسحاب لتنطلق المدفعية تفتك بالمربعات الصامدة، وكادت الدائرة تدور على ديزه بحيث لم يجد بداً من الصعود صوب المدافع تاركاً جرحاه فنزلت إليهم العرب وذبحتهم، لكنه نجح في الاستيلاء على المدافع بأسنة الرماح! . . فبصق مرسي على الأرض ازدراء وهو يتبع مراد ورجاله فارين متوغلين في الصحراء بخيولهم وهجينهم تاركين قتلاهم وجلهم من أبناء البلد المصريين، وطارده جنود ديزه من كومة إلى أخرى مقتفين المسالك والأمتعة المتساقطة والبنادق المحطمة وآثار العجلات التي اختفت في الخلاء المترامي! . . وشهدت الشمس الغاربة أن ديزه لا يقل مكراً عن السلطان الكبير بونابرته، فصار لقبه في الصعيد السلطان الصغير! . . وكان التعب قد غلبه فلم يفكر في ملاحقة مراد الذي فر صوب إقليم الفيوم[1].

وبعد راحة الجنود قام ديزه وزحف جهة الفيوم واحتلها، وبعد أن احتلها طلب من الأهالي المصرية الميري وباقي أصناف المكوس باسم السلطان التركي النائم في الديار الرومية[2]. . وكان مراد قد جمعها منهم باسم نفس

---

(١) تعرف هذه المعركة باسم معركة «سدمنت» ٧ أكتوبر ١٧٩٨ وتلي في الأهمية معركة الأهرام التي تعرف أحياناً بمعركة امبابة .
(٢) اسطنبول .

السلطان الذي لم تصله طبعاً نصف فضة واحدة من هذا أو ذاك. ثم أرسل جرحاه وعميانه ومرضاه إلى بونبرته في مدينة مصر وطلب منه سرعة الإمداد بالرجال والعتاد والمأكولات والأدوية، وبونابرته لا يرد عليه.

لكنه قبل أن يرتاح في الفيوم كان أهالي بني سويف قد هاجموا قوته الصغيرة بها وقتلوا معظم أفرادها وأسروا الباقين وأخذوا الغلال والسلاح، فتوجه إليهم وأدبهم، وبقي هناك يجمع الميري نهاراً ويستلقي على بطنه ليلاً مستسلماً لأنامل سارة تدلك بدنه المتعب! . . لكن ديزه الماكر ما كان يكسب لولا المصري الذي اسمه يعقوب، وهو المعلم القبطي ابن يوحنا من ماريه غزال، وكان المباشر على الصعيد كله يجمع الميري منه[1]. . وكان ثريا له جوار وعبيد، فلما جاء حسن باشا القبطان أذله وباع جواريه وعبيده وحرمه من ركوب فرسه وأرغمه بأن يغير اسمه عندما منع كل قبطي أو يهودي من التسمي بأسماء الأنبياء والرسل، وأجبره على المشي مترجلاً إلى جوار الحائط تحت عمامة سوداء فزفته أولاد السفلة بصياح السخرية فمكث سجيناً في بيته لا يخرج من القهر والهوان، وكبس القبطان بيوته ونهب متاعه، ثم سجن امرأته مارية غزال حتى صالحه عليها بأكياس كثيرة من مخبآته، فلما ذهب القبطان المكير وجاء السلطان الكبير بونابرته وعامله باحترام انضم إليه وقلبه يقطر كرها ومقتاً للروم والغز، ورافق ديزه في هجومه على المماليك، فلم يكن يفعل شيئاً إلا بمشورته، ولم يقل عنه شجاعة واحترافاً للحرب، ورأى أهل الصعيد هذا وكان شهيراً لديهم فأسموا جيش ديزه بجيش المعلم يعقوب، وإن أوجزوا قالوا جيش المعلم، وهو الذي دبر

(١) إن كان كاشف يجمع الميري من أقليم بعينه (محافظة) فإن المباشر على الصعيد هو المسئول عن جمع الضرائب من جنوب الوادي كله مقابل نسبة معينة هي أجره.

لديزه أنواع المكر والدهاء، وأطلعه على الخبايا وصنع الحيل!

أما مرسي فبينما هو دائم التحرك من خلف مراد بك لا يستقر بمكان، كانت والدته أم الخير بالسوق القريب من موردة الحنش تبيع الدجاج والأرانب ومعها رضوان رجلها ومبروكة زوجة ابنها، يبيعون ويسألون النوتية عن الريس مرسي، بينما هم كذلك والفلاحون يبيعون من حولهم، جاء غليون فرنساوي ونزل عسكره إلى البر فوجدوا السوق وما به من خيرات، فاختاروا أجود الأصناف وحملوها، وانتظر الأهالي أن يدفعوا، وكان جملة ما أخذوه من أم الخير سبعة دجاجات بداري صغار وخمسة أرانب وعدداً من البيض، رفضوا أن يدفعوا ثمنها، فاعترض رضوان طريقهم وطالبهم بالدفع، فرفض أفراد السرية واتجهوا نحو مركبهم الحربية، وقبل أن يصلوها زعق رضوان والرجال فعلت النبابيت وانهالت فوق رؤوس العسكر، وعلت صيحات النساء تحث الرجال على الجهاد فقتلوا من الجنود خمسة وجرحوا منهم ثمانية، وجاءتهم النجدة من رفقائهم، وجاء أهالي المدينة وتدخل كبراؤهم في الأمر، وفض الشجار بعد أن دفع الجنود ثمن ما أخذوه، وعندما علم السلطان الصغير بالأمر جنح إلى المهادنة والمداهنة وأصدر أمراً مشدداً بمنع نهب العسكر لأهالي إقليم المنيا، ثم عاد إلى مقره وإلى رعونة سارة المحببة إلى قلبه!

- ١٤ -

وخلال جميع ذلك كان حتحوت والشاطر قد استأجرا سكناً صغيراً أجرته في الشهر كله تعادل أجرة يومين في الخان، وذلك لتوفير المال، وكانا قد وطدا صداقتهما مع إدريس الكردفاني، وهدف الشاطر أن يعرف ماذا يدور داخل قصر حسن كاشف شركس بالناصرية، فمعظم الفرنسيس الذين سكنوا به من كبار السن الوقورين، وجميعهم ليسوا جنوداً ولا حكاماً ولا رجال دين ولا تجاراً ولا زراعاً، فهم اذن من العاملين بالكيمياء وتحويل المعدن الرخيص إلى الذهب النفيس، وكانوا قد علقوا لافتة على الباب بلغتهم تقول أن المكان اسمه «المجمع العلمي». . فطلب الشاطر من إدريس أن يأخذهما إلى الداخل، فتردد واقترح عليهما العمل عندهم:

ـ إنهم ليسوا مثل الغز، ستنالان أجراً مجزياً، وتذهبان إلى حال سبيلكما كل يوم بعد الظهر.

فوافقا، وكان غرض الشاطر أن يعرف أسرارهم ثم يدس لهم السم واحداً تلو الآخر! . . وعندما دخلا بهرهما القصر الرائع بنظامه التركي، وحديقته الظليلة والفسقيات البديعة المزركشة والأعمدة الواقفة في

الهـواء من أجـل الزينـة ، وكل يوم يأخـذان أجرهمـا ويتلـكآن في الانصراف بقصد التجسس على أسرار هذا المجمع العلمي العجيب ، وعندما ضبطهما دنون ابتسم لهما وطمأنهما وطاف بهما أرجاء المكان وقدمهما إلى سكانـه من الفلكيين وأهـل المعرفـة والعلـوم الـرياضية والنقوشات والمصورين والحسـاب الـذين اذا اجتمعـوا ملأوا قاعـة القصر الكبيرة ، ولا شاغل لهم إلا العمل ليل نهار ، ولهم تطلع زائـد للعلوم ومعرفة اللغات وتصاريفها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أي لغة كانت إلى لغتهم في أقرب وقت ! . . كما أن عندهم آلات تسهل العمل ، فبدل حمل الأتربة بالمقاطف والقصعان عندهم عربـة صغيرة بيدين ممتدتين للوراء يملؤها العامل حجارة أو رملاً فتحمل قدر عشرة قصعات ثم يرفعها من يديها ويدفعها أمامه فتمشي على عجلتها الأمامية إلى مكان العمل ثم يميلها بإحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة [١] .

وقد رأيا عند المدعو نوى [٢] . وتلاميذه في مكانهم الخاص الآلات الفلـكية الغريبـة المتقنـة الصنـع ، وآلات الارتفـاع البديعـة العجيبـة التركيب الغالية الثمن ، ولكنها لا قيمـة لهـا إلا عنـد من يعـرف كيف يستخدمها ، ونظرا عبر النظارات المعظمـة التي تجعـل النجـم البعيد قريباً ، وتسجل أجرام الكواكب وارتفاعاتها . . وكل آلة فيها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبـراريم لطيفـة بحيث إذا ركبت

(١) حتى الجبرتي يتحدث عن هذه العربة البدائية بانبهار شديد، مما يوضـح مدى التخلف الذي كانت فيه مصر وقت مجيء الحملة!

(٢) نوى من علماء الفلك، ونشرت ابحاثه الفلكية الخاصة بمصر في كتاب تخطيط مصر الجزء الأول .

صارت آلة كبيرة وإذا انحلت وضعت في علبة صغيرة! . . وكذلك الساعات التي تسير بثواني الدقائق الغريبة الشكل الثمينة النفيسة . .

وشاهدا قاعة فسيحة بها جملة كبيرة من الكتب وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها لمن يحب القراءة فيتصفحون ويراجعون ويكتبون، حتى أسافلهم من العسكر سمحوا لهم بالقراءة وهم جالسون في فسحة المكان المقابل لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة . . وإذا حضر أحد المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعوه من الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة وإظهار السرور، مثلما فعلوا مع حتحوت والشاطر . . وبهذه القاعة كرات البلاد والأقاليم ورسومات الحيوانات والطيور والنباتات، وعندهم تواريخ القدماء وسير الأمم مما يحير العقول، وصور السواحل والبحار والأهرامات وعلوم التشريح والطب والهندسة وجر الأثقال، وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم مثل بردة البوصيري!

وفي بيت السناري عند ريجو المصور[1] شاهدا رسوماً لآدميين ظنوها بارزة في الفراغ، مجسمة تكاد تنطق، مميزاً رسومات المشايخ واحداً واحداً، كل واحد على حدته في دائرة وكذلك الأعيان، والأسماك والحيتان بأنواعها، فيأخذون الحيوان الذي لا يوجد مثله في بلادهم ويضعون جسمه في ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ولا يبلو مع الزمن!

---

(١) ريجو رسام رسم رجالات مصر في ذلك العصر الذي تتحدث عنه التغريبة ووضعت في كتاب تخطيط أو وصف مصر.

وأفردوا للحكيم رويا مكاناً لصناعة الحكمة والطب الكيماوي، فوضع آلاته ومساحيقه وأهوانه وركب آلات لتقطير الماء فيخرج نقياً شفافاً، وكذلك آلات تصعيد الأرواح وأملاح الأرمدة المستخرجة من أعشاب ونباتات مصرية، وعنده قوارير وألوان من الزجاج والبللور على رفوف.. وقام أمامهما بلعبة سحرية، إذ أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوعة فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئاً في كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا الماءان وصعد دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر، ففغر حتحوت فمه دهشة وتراجع الشاطر رهبة، فما كان من رويا إلا وأخذ شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه على السندان وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت البندقية! .. ومن أعجب العجائب فلكة مستديرة أداروا بها زجاجة فتولد من حركتها شرار له صوت وطقطقة، أوصلوا بها سلكاً رفيعاً وجعلوا إدريس يلمسها فارتج بدنه وارتعد جسده وطقطقت عظام كتفيه وسواعده في الحال برجة سريعة[1] ..

ولهم في هذه التفانين أمور وأحوال وتراكيب عجيبة، وأما عمل ادريس فكان خدمة دنون، أما حتحوت والشاطر فقد عملا في مكان الحدادين، يحرك كل واحد منفاخاً كبيراً يخرج منه الهواء متصلاً كثيراً فتتأجج النيران في كانون كبير فينصهر الحديد ويأخذوه ليصنعوا منه

(١) لم يكن اكتشاف الكهرباء قد عرف في مصر وقتها، والحكيم رويا هو الطبيب روييه كبير صيادلة الجيش الفرنسي، وصناعة الحكمة هي صناعة الطب والصيدلة.

السندانات والمطارق والقلاووزات، وفوق منهم صناع الآلات الدقيقة مثل آلات الهندسة وغيرها، وذات ليلة سأل الشاطر حتحوت:

- أنا لا أعرف سبب مجيء هؤلاء الناس هنا، لكننا لن نضع السم لهم.

فأعجب حتحوت برأيه، وحرصا بعد ذلك على التقاط بعض المهارات والحيل منهم، وفقدا الأمل نهائياً في كيمياء تحويل المعدن الخسيس إلى ذهب نفيس، فلمعت عينا ادريس من وجهه الأسمر وقال:

- الذهب يوجد عندنا في جبال القمر بنفس كثرة وجود الملح عندكم.

وحكى لهما عن هذه الجبال، وكيف أنها عالية جداً لا يقدر على تسلقها إلا فارس الفوارس لأنها مسكونة بالمردة والعفاريت والغيلان التي تعيش على أكل الإنس، وكل هؤلاء لا عمل لهم إلا حماية الذهب الموجود هناك، فسأله حتحوت أن كان قد رآها فقال:

- سمعت جدي يتكلم عنها، إنها بعيدة جداً، ولا تصل إليها إلا إذا عبرت الغابات وتغلبت على الأسود والنمور والتماسيح والحيات التي تبتلع الرجال في قضمة واحدة!

- وكيف جئت إلى هنا؟؟

فسالت دموعه ولمعت على وجنتيه وحدثهما عن أمه وأبيه وجده العجوز الطبيب وقريته جنوب كردفان، وكيف أنه خرج منذ عامين

وتوغل في الغابة وإذا برجل شرير من أتباع ملك دارفور القاسي عدو ملك الكردفان يخطفه ويأخذه بعيداً إلى مدينة الفاشر، حيث وجد هناك عشرات الأولاد والبنات المخطوفين مثله، وفي يوم معلوم ربطوهم جميعاً من أرجلهم في حبل طويل غليظ وساروا بهم مدة أربعين يوم وليلة إلى أن وصلوا عند الهرم ثم دخلوا بهم مدينة مصر وباعوهم، وكان الذي يموت في الطريق يفكون قدمه ويلقونه جانباً. .

فسالت دموع حتحوت وتأثر الشاطر واندفع يقول :

ـ لا تحزن يا إدريس، يوماً ما سوف تعود إلى أهلك.

فضحك إدريس ضحكة مثل البكاء، وودعاه وخرج إلى الطريق وقال حتحوت :

ـ لماذا لا نذهب إلى هناك؟

فسأله عن معنى كلامه فقال :

ـ نأخذ إدريس ونهرب به ومعنا زكائب فارغة.

ـ ولماذا زكائب فارغة؟

ـ نذهب إلى السودان ونصعد جبال القمر ونعود بزكائبنا مملوءة بالذهب.

فضحك الشاطر وقتاً وقال :

ـ ارجع أولاً إلى أهلك في المنيا.

فحزن حتحوت متذكراً وجه أم الخير ورضوان وسنبلة وزهرة

ومنصور والآخرين، وبكى أخاه مرسي وكان يظنه قتل في معركة امبابة، فطيب صاحبه من خاطره قائلاً:

ـ سامحني، سنجمع ثمن بغلتين ونسافر معاً إلى أهلك.

وهذا دليل على أن المحبة جمعت بين قلبيهما.

إلى أن كانت ليلة يوم حزين، فإذا بالناس تتكلم وهم في غيظ وغضب بأن السلطان الكبير عندما ذهب إلى قصر مراد بك بالجيزة عقب فراره وجد مكاتبات من السيد محمد كريم الذي كان كبيراً على الاسكندرية، وإن هذه المكاتبات تحث مراد بك على الاجتهاد في حرب الفرنسيس وتهوين أمرهم وتنقيص قدرهم، فاغتاظ بونابرته وأمر باعدام السيد محمد كريم بعد أن أحضره من هناك، ثم سمح له بأن يفتدي نفسه بمبلغ ثلاثين ألف ريال وأعطاه فترة سماح اثني عشرة ساعة وإلا يقتل بعدها، فلما أصبح الصبح تشفع له أرباب الديوان فلم يجابوا، ولم يذهب حتحوت والشاطر إلى عملهما بالمجمع العلمي، وجريا مع الناس قرب انقضاء الأجل، فوجدوا السيد كريم فوق حمارة وعسكر الفرنسيس تحوطه بالسيوف والبنادق ودق الطبول، فازداد تجمع الأهالي، وشقوا به الصليبة إلى الرميلة، فأنزلوه عن الدابة وكتفوه وربطوه واصطفوا في شطرين، شطر يواجه الأهالي بالسيوف وشطر ضرب عليه بالبنادق كعادتهم عندما يقتلون فمات من توه، وقطعوا رأسه ورفعوه على نبوت داروا به جهة الرميلة والمنادي يقول بأن هذا جزاء من يخالف الفرنسيس!

فسبب هذا كله مراد بك الذي أخذ الجواهر لحظة الهرب وترك

الأوراق التي تؤذى الناس، وأيضاً قائمقام الفرنسيس بثغر الاسكندرية كليبر الذي دس للسيد محمد كريم بسبب إنه كان يحرض الأهالي ضدهم.

وكان الناس لا يملكون شيئاً سوى البكاء بسبب غلبة بنادق الفرنجة، ثم أن أتباع القتيل أخذوا رأسه ودفنوه مع جثته وانقضى أمره!.

سار حتحوت وبجواره الشاطر دامع العينين، وجاء وقت الغداء فلم يأكلا، صادفهما بعض العسكر يمرحون فوق الحمير فزاد غيظهما، نزلا إلى ميدان الأزبكية حيث يسكن السلطان الكبير بونابرته، ثم انحرفا إلى الناصرية حيث يسكنان فرأيا أحد العساكر يمشي متمهلا وفتاة تضع ذراعها في ذراعه وهي حاسرة متبرجة، أسرعا فوجداها من البنات المصريات، فتتبعا خطاهما، فلما خرجا من بوابة السور إلى الخلاء تلكآ وقتاً ثم خرجا في أثرهما، فوجدا العسكري يأخذ الفتاة إلى خلوة جوار السور ويقبلها والفاجر تجذبه إلى حضنها وكأنه بعلها، ثم قعدا ويده تعبث في صدرها من غير ممانعة، فرقدت له ونام فوقها وغابا عن الوجود، فأخرج الشاطر سكينه واندفع يغرسه في ظهره فسالت الدماء فوق المرأة، وقبل أن تستوعب ما حدث سالت دماها هي الأخرى، فأخرج ما في جيوبه وركن البندقية، وساعده حتحوت في جر الجثتين إلى مكان جانبي وأهالا فوقهما التراب والرمال والحجارة، ثم جلسا يستريحان حتى زال لهاثهما، وبعد ذلك نهضا وأخفيا البندقية ومضيا..

ثم ظلا عدة أيام في مراقبة دوريات العسكر وتفتيشهم في كل مكان بحثاً عن المفقود، والفرنسيس وتابعهم فرط الرمان يتهمون الأغا كبير

الشرطة بالإهمال والانشغال بالغلمان عن توفير الأمان، فما كان منه إلا أن أمسك بثلاثة من صغار الغز وأعدمهم زاعماً أنهم القتلة، فلما سألوه عن الجثة قال أنهم ألقوها في بحر النيل، فضحك حتحوت والشاطر وارتاحا بسبب كذب الأغا. . ثم توجها إلى البوابة للاطمئنان على البندقية المخبأة فإذا بهم يرون طابوراً من الفرنسيس آتياً من جهة مصر القديمة فارتدا، وسرعان ما دخل الطابور المدينة حاملا جرحى كثيرة من عسكر ديزه، ومروا بهم عبر الطرقات إلى مستشفاهم، فإذا بالناس يصفقون في شماته والأولاد يصيحون في إغاظة، فنزل أصحاب الدرك في اليوم التالي ينبهون على العامة بترك الفضول والكلام في أمور الدولة، وإذا مرت عليهم جماعة من الفرنساوية المجروحين أو المنهزمين يمتنعون عن الصراخ في وجوههم وعن التصفيق والسخرية.

ثم نادوا بعد ذلك بأن كل من عنده بغلة يذهب بها إلى بيت شيخ البلد ديبه ببركة الفيل، فإذا لم يحضرها أخذت منه قهراً ودفع غرامة ثلثمائة ريال، وإذا أحضرها أخذ في ثمنها خمسين ريالاً قلت قيمتها أو زادت، فغنم صاحب البغلة الخسيسة وخسر صاحب النفيسة، وتساءل الناس عن سر جمعها وهل يستعد بونابرته لقتال جديد. فناموا والشك يملؤهم وصحوا والريبة تنهشهم، وصحا حتحوت والشاطر على عويل النسوة ونباح الكلاب، فخرجا يستطلعان الأمر فسمعا خبطاً ودقاً ووجدا العمال يخلعون بوابة الحارة وهم في حماية العسكر، وكانوا جادين في خلع بوابات جميع الحواري والدروب غير النافذة بحجة تسليك المرور، وكانت البوابة كبيرة فقطعوها نصفين، وسار أهل الحارة وراءهم وكأنهم يشيعون البوابة حتى الأزبكية فوجدوا رصيف

الأخشاب قد امتلأ وسط الميدان بالبوابات، وصاحت امرأة:

ـ أصبحت حارتنا مكشوفة وبدون حماية، سوف يكبسوا علينا في بيوتنا[1]!

وعلى الفور زاد الغضب وعم الهلع لكنهم انصرفوا بعد مشاهدتهم دركياً يطوف حاملاً رأسين مقطوعين من فوق نبوتين طويلين ومن ورائه المنادي يقول أن هذا جزاء من يأتي بالمكاتيب من عند المماليك أو يذهب إليهم بمكاتيب، وأن على جميع سكان مصر تعليق الجوكار على صدورهم وأعلى قلاع المراكب من أجل اظهار المحبة الزائدة للفرنسيس. وسبب كل ذلك أن بعض المكاتبات أتت إلى المشايخ سراً من عند ابراهيم بك في غزة تقول أن حضرة مولاه السلطان التركي قد وجه إلى القطر المصري عساكره الرومية لمقاتلة الفرنسيس أعداء الإسلام وجميع الأديان، وأن مراكبه العالية كالجبال ستغطى بحر رشيد واسكندرية وعليها رجال يزدرون بالموت،معهم مدافع سوف تبرق وترعد حتى يصبح مآل هؤلاء الكفرة الخسران والهلاك وينمحي كل أثر لهم. وأن هذه المكاتبات تليت في الجوامع في مدينة مصر والأقاليم وعرف الناس مضمونها، مما أهاج الفلاحين فخرجوا يقاتلون الحاميات الصغيرة..

لهذا استدعى بونابرته مشايخ الديوان فلما استقروا عنده هش وبش ثم قام وخرج من المجلس وعاد بيده طيلسانات ملونة بألوان رايتهم أبيض وأحمر وأزرق، ووضع احداها على كتف الشيخ الشرقاوي

(١) كانت بوابات الحارات تقي سكانها من غارات اللصوص، وكان إغلاقها في حالة وقوع أي وباء يعزل الحارة كلها عن الأماكن الموبوءة.

فتغير مزاجه وراح لونه واحتد طبعه ورمى به إلى الأرض، فتعجب بونابرته وقال بلسان المترجم :

- يا مشايخ لقد صرتم أحبابي، وأنا أقصد تشريفكم بعلامتنا، فإن تميزتم بها عظمتكم العسكر وأدوا لكم التحية مثلي تماماً!

فقالوا أنهم لو ارتدوا هذه الطيلسانات الملونة ضاعت قيمتهم عند الله وأمام الناس، فاغتاظ من ذلك وبرطم بلسانه فلاطفوه وكتمها في نفسه وقال بلسان المترجم :

- إن لم يكن الرداء فلا بد من تعليق الجوكار في صدوركم .

وهي العلامة التي مثل الوردة من ألوان رايتهم الثلاثة، وقال أنها وردة المحبة والإعزاز، فأخذوا يعلقونها عند دخولهم ويخلعونها بمجرد خروجهم . . ثم أنه تكلم في الموضوع الذي يشغل باله وسألهم عن مكاتبات إبراهيم بك فأحضروها له، فلما تلاها وفهم معناها وضع كفه فوق بطنه وقال مغتاظاً إن المماليك كذابون. ثم أنهم خرجوا، وذهب هو إلى زوجته الشقراء التي هي عشيقته وليست زوجته، ولذلك قصة عجيبة داعرة!!

فلما قرب عيدهم أزعجوا الطيور بدق الطبول وضرب المدافع، واجتمعت خيالتهم ومشاتهم بالأزبكية وقد اصطفوا على طريقتهم المعتادة، ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبط والشوام، فاجتمعوا ببيت السلطان الكبير، وكذلك جاء القاضي وكتخدا الباشا[1] . .

(١) كتخدا يعني مساعد، والباشا الوالي كان تركياً ولا حول له ولا قوة والعيد هو عيد الجمهورية الفرنسية الأولى وكان يوم ٢٢ ديسمبر ١٧٩٨ .

ورفعوا الرايات وسارية عظيمة أقاموها بآلة وبناء وسموها شجرة الحرية وأسماها الشاطر خازوق الحرية، ومن حولها عواميد كثيرة أوصلوا بينها حبالاً علقوا فيها القناديل . . وبعد أن لعبوا ميادينهم وعملوا هيئة حربهم مد صاري العسكر سماطاً عظيماً للمشايخ والأعيان، وعند ذاك سحب الشاطر حتحوت هامساً له :

ـ تعال نظهر لهم المحبة الزائدة.

فلما سأله كيف اجابه :

ـ مياه الخليج تدخل ميدان الأزبكية من عند قنطرة الدكة، وهذا العام أمر بونابرته بعدم فتح القنطرة ليبقى الميدان جافاً، هل فهمت؟

فهز رأسه نفياً فقال :

ـ نهدم القنطرة وندع المياه تندفع فيتحول الميدان إلى بركة وينبل بونابرته وضيوفه ويتعكر صفوهم!

فتبعه حتحوت في همة، وعندما وصلا قنطرة الدكة وجدا عدداً من أبناء البلد راجعين في خيبة أمل، وعرفوا أنهم فكروا فيما فكرا فيه، لكن دبية القائمقام لم يفته مثل هذا الملعوب فوضع حرساً كثيرة لحراسة القنطرة، فعادا ليجدا بونابرته وضيوفه وقد أكلوا وشبعوا، فلما كان الغروب أوقدوا القناديل، وعند العشاء عملوا صواريخ وحرق نفوط وشبه سواقي من قار مشتعل، واستمرت القناديل موقدة حتى الصباح فلم تنم العصافير التي تسكن الأشجار القريبة ومات بعضها.

- ١٥ -

بعد أيام زارا صديقهما ادريس الكردفاني، وتحدثا معه ساعة زمنية، وسأله حتحوت عن جبال القمر، وجلس منبهراً يستمع إلى حكايات إدريس عنها وكيف أن هناك مكاناً سرياً به صندوق مسحور من جلس بداخله رأى بلاد الدنيا، فإن هو نظر جهة الشرق رأى بلاد المشرق جميعها بملوكها وناسها ودوابها، وإن هو نظر إلى الغرب شاهد أهل المغرب ومدنهم . . لكن هذا الصندوق المسحور عليه رصد عبارة عن إنسان من النحاس يفضح كل من يقترب ويقتله!

وحدثهما أيضاً عن مدينة النحاس التي بها كنوز الجواهر والذهب والماس ولكنها ليست في جبال القمر وإنما قريبة من مدينة الفاشر التي بيع فيها قبل مجيئه أرض مصر المحروسة

تركاه وسارا إلى البوابة وخرجا من المدينة ثم حاما من حول المكان المدفون فيه العسكري والقاصر الفاجر فوجدا الردم كما هو، ثم أن الشاطر اتجه إلى مخبأ البندقية وأخرجها، وسارا جهة مصر القديمة حيث كمنا في وسط الطريق ينتظران مرور أحد العسكر، وعبر ثلاثة

فاختبآ، ولاحظ حتحوت أن المراكب قد عادت إلى الظهور في الميناء ففرح وقال للشاطر:

ـ عادت مراكب الصعيد وبإمكاننا الذهاب إلى تلة.

فأومأ موافقاً على مضض، وطال بهما الانتظار حتى كادا أن ييأسا عندما سمعا صوتاً قبيحاً يغني برطانة الفرنسيس، ورأيا جندياً يقترب وحيداً وما أن دنا حتى أطلق الشاطر عليه البندقية فسكت عن الغناء وسقط من توه، وقبل أن يتوجها لتفتيشه وجدا ثلاثة عساكر تندفع صوبهما، فأسرعا يجريان إلى المدينة والعسكر تلاحقهما، فدخلا من بوابة السور وعرجا إلى حارة جانبية ومنها إلى حارة أخرى، والشاطر يعرف جميع المسالك، والعساكر من ورائهم، ثم أخطأ الشاطر ودخلا حارة وجداها غير نافذة، فرجعا وقد تعبا، وتأزم موقفهما وساء حتى وجدا جملاً باركاً وصاحبه إلى جواره، فلما فهم ورطتهما أركب حتحوت في خرج الجمل الأيمن والشاطر في الخرج الأيسر ثم نهض الجمل وقاده الجمال على مهل.

ومن عجائب الاتفاق أن خروجه من الحارة المسدودة جاء في نفس وقت وصول العساكر، فالتصقوا إلى جوار الحائط ومالوا بأجسادهم حتى لا يصدمهم الجمل، ثم سارعوا يكملون البحث، بينما الجمل يبتعد بالصديقين وقد اتسخت ملابسهما الثمينة من بقايا مبلولة داخل الخرجين من آخر نقلة، وكانا ينظران إلى الطريق من خلال الثقوب الصغيرة، والجمال يحادثهما ويطمئنهما، ثم سألهما عن المكان الذي يودان النزول عنده فقال حتحوت على مكان سكنهما لكن الشاطر

قاطعه وطلب النزول أمام الحمام العمومي، وبينما هما داخل الخرج إذا بالمنادى يدور منبهاً:

ـ بأمر القائمقام دييه النافذ، على جميع أهل مصر عدم الكلام في أمور الدولة وعدم التصفيق والإكادة عند مرور العسكر المجروحين، وعلى أهل مدينة مصر ايقاد القناديل بالطرق والأسواق، على كل دار قنديل وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل، والمخالف يدفع غرامة ثلاثين ريالاً.. وأن يراعوا الكنس والرش وتنظيف الطرق من الأوساخ والقطط الميتة والأتربة وما يختلط بها من ريش الطيور ومصارين الحيوانات المذبوحة وفضلات المأكولات، وعدم دفن موتاهم في المقابر القريبة من البيوت كمقبرة الأزبكية والرويعي وإنما في القرافات البعيدة، والذي ليس له مقبرة بالقرافة يدفن ميته في قبور المماليك، وإذا دفنوا تكون الحفرة عميقة حتى لا تنبشها الكلاب.. وعلى الناس نشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطح خمسة عشر يوماً، وتبخير البيوت بالبخور القاضي على العفونة، وذلك حتى لا تحصل عدوى الطاعون، وإذا مرض مريض لا بد من الابلاغ عنه، وعلى مشايخ الحارات الفحص والتفتيش من أجل التنفيذ، لكل حارة امرأة ورجلين يدخلون البيوت ويكشفون.

أمام الحمام العمومي برك الجمل، وظلا بالداخل إلى أن أعطاهما الجمال اشارة الأمان فخرجا بسرعة، وأوقف الجمال جمله ومضى رافضاً أي أجرة، وعندما وقفا على الأرض شعرا بدوار خفيف من رجرجة الخرجين فوق الجمل، بعد وقت استعادا اتزانهما ودخلا من الباب العمومي فوجدا المعلم على يمينهما فأودعا لديه نقودهما ووضعها

في صندوق وأقفله ، ثم جاء الخادم وأخذ سكين الشاطر وخنجر حتحوت ونزع الحذاء من قدمي كل واحد وأعطاه قبقاباً، ثم دخلا المسلخ[١] . فوجدا في وسطه فسقية يرتفع ماؤها البارد من طبقة حجرية سفلى مثمنة الأضلاع مكسوة بالرخام، وعلى جوانبها مصطبة مفروشة بالحصر وليوان مغطى بالوسائد[٢] . . فجلسا على الأولى وخلعا ملابسهما وجاءهما الليوانجي وهو ولد أمرد . . وكانت المرة الأولى لحتحوت أن يستحم في حمام، وكان قبل ذلك يستحم في مياه النيل المبارك، وإن كان الجو بارداً ففي الدار بالقرية حيث يجلس وسط الطست ويستحم بالمياه الساخنة من الوعاء الكبير، لذا فقد راح يقتفي تحركات الشاطر، فسلم ملابسه لليوانجي الذي صرها في فوطة ثم لف فوطة أخرى حول وسطه تدلت إلى ركبتيه، ولف رأسه بفوطة ثالثة بحيث ترك أعلى رأسه عارياً، ولم يلف الرابعة حول صدره مثل باقي الزبائن، وفي أقصى الغرفة كان الخادم يعد القهوة على دكة صغيرة، فجلسا يستريحان واحتسيا القهوة . .

وعند دخولهما كان بالمسلخ ثلاثة رجال سكتوا عن الكلام يفحصونهما، ثم عادوا يواصلون ما انقطع، وقال الأول :

ـ كتب السلطان في رسالة أن مراكبه العالية مثل الجبال ستغطي بحر رشيد واسكندرية وعليها رجال يزدرون بالموت معهم مدافع سوف

---

(١) كان المسلخ بالحمام العمومي هو مكان خلع الملابس ويسمى البّراني أو «بيت أول» لأنه أول الغرف الدافئة الممهدة لدخول الغرفة الرئيسية الأكثر حرارة والتي تسمى بيت الحرارة.

(٢) الليوان يشبه المصطبة وإنما أكثر فخامة، والخادم الذي يعمل في هذا المكان يسمى ليوانجي من ليوان.

تبرق وترعد، والفرنسيس قاربت إقامتهم عندنا ثلاثة أشهر ولم نر مراكب أو رعود أو بروق!!

فأكد جاره السمين أنهم قادمون، فقاطعه:

- تحملنا الغز كثيراً وعندما احتجنا إليهم تركونا وهربوا، حتى الأثرياء رحلوا آخذين معهم حريمهم وما لهم وعبيدهم وجواريهم، يبقون معنا وقت السلامة يجمعون المال وعند الشدة يهجرونا!!

جاءت القهوة الثانية فراحوا يحتسونها وقال البدين زاجراً:

- كف عن التلسين، وإن كنت تعني السيد عمر مكرم لذهابه إلى الشام فلا بد أن سفره له ما وراءه.

فتساءل عما وراءه فأجاب محتداً بأنه لو بقي لربما أعدموه مثل السيد محمد كريم، وما كان أحد لينفعه لأن كل إنسان مشغول بنفسه، والدليل أن بونابرته سمح لمحمد كريم بأن يفتدي نفسه بثلاثين ألف ريال وأمهله نصف يوم فأرسل المسكين إلى المشايخ وإلى كبير التجار وصار يترجاهم بأن يفتدوه، فما استجابوا بحجة أنه ليس بيدهم ما يفتدونه به!!

.. رد الآخر بصوت غضوب بأن الرجل بقي صامداً حتى آخر لحظة لدرجة أن مترجم بونابرته أشفق عليه ونصحه قائلاً: «يا كريم أنت رجل غني فماذا يضيرك أن تفتدي نفسك بهذا المبلغ؟!» فأجاب الرجل: «إذا كان مقدراً لي الحياة فلماذا أدفعه؟!».

- كأنك كنت معهما ورأيت وسمعت!

فاغتاظ الشاطر وترك القهوة وأخذ حتحوت، وفتح لهما الليوانجي الباب المؤدي إلى «بيت الحرارة» فوجدا أربعة مصاطب متقاطعة على شكل صليب في وسطها فسقية مثمنة الأضلاع بالرخام الأبيض والأسود، بها ماء ساخن يرتفع من حوض صغير، وسقف الغرفة قباب بها فتحات صغيرة مغطاة بالزجاج، وما لبث أن تصبب جسدهما عرقاً بسبب البخار الساخن المتصاعد، وكان بالداخل خمسة آخرون، ثلاثة في المغطس الساخن الموجود في الركن، واثنان يشطفان جسدهما بالماء الحلو من الصنبورين الساخن والبارد، وسرعان ما تقدم «المكيساتي»[1] من الشاطر وبلل الفوطة التي حول وسطه وأجلسه على مقعد الفسقية الرخامي، فاستسلم لعملية الطقطقة، وبسرعة غريبة طقطق له المكيساتي جميع مفاصله، فلوى جسمه في اتجاه ثم لواه في الاتجاه الآخر حتى طقطق عموده الفقري ثم الرقبة وكذلك أذنيه وجميع أطرافه ببراعة وسرعة، ثم فرش منشفة فوق حافة المغطس وجعله يتمدد ودلك جسده بكفيه ثم دعك بطني قدميه بحجر الحمام ثم بكيس من الصوف الخشن، حتى انتهى من تكييسه على أحسن حال، فنهض ونزل إلى مغطس الماء الساخن، بينما توجه المكيساتي إلى حتحوت الذي تلقى العملية لأول مرة في حياته برهبة وتأذى كاتماً ضحكه في أوقات كثيرة بعصبية ظاهرة خاصة عندما نظف بطني قدميه وعندما قام بتكييس بطنه، ثم شهق عندما غاص في المغطس الساخن!

لكنه كان يسمع حديث الزبائن ومضمونه التوجس من تصرفات الفرنسيس، فكل يوم يبندقون على ثلاثة أو أربعة أفراد لارهاب

(١) عامل التدليك أو «المساج».

الناس، ويطلبون المال من جميع الطوائف بما فاق الغز والترك، ففرضوا على السيدة نفيسة الغرامات الكبيرة بسبب زوجها مراد بك مما جعلها تعطيهم حليها وجواهرها والساعة المرصعة التي سبق وأهداها لها قنصلهم لرعايتهاالتجار الفرنسيس ابان حكم زوجها! . . وغالوا في طلب الخيول والجمال والبغال، وطردوا سكان القلعة وهدموا بيوتهم من أجل وضع المدافع مكانها وتركيزها بعدة مواضع بحيث إن شاءوا ضربوا أية ناحية من المدينة، وهدموا أبنية غالية من أجل تشييد حوائط وأسوار، وطافوا على الأخطاط والوكائل وكتبوا أسماء أصحابها والبوابين وأمروهم بألا يسكن أحد الأغراب أو يسافر إلا بإذن من كبير الشرطة، ثم فرضوا أموالاً على الأملاك والعقارات. . وكل يوم يراهم الناس يمشون علانية مع النسوة الفاسدات ويعرفون أنهن نائمات قائمات في بيوتهم، إلى جانب الخمارات، بحيث أن في زمانهم صار الناس الدون في أحسن حال من حمالين وبياعين وقوادين وحمارين ونساء خوارج، حتى السيد البكري اللوطي ترك ابنته تعيش عند بونابرته فتزيت بزيهم، وهو منشغل عن عرضه بمنافسة الأغا الانكشاري على محبة الصبي التركي الأمرد الذي اسمه هيلانة الجميلة، حتى كاد أعوانهما أن يتقاتلا فتدخل الفرنسيس وحكموا بأن يحتفظ البكري بالصبي نظير تنازله للأغا عن عقار قيم، ففرح بالغلام وترك ابنته مشاعاً للفرنسيس وجعله بونابرته كبيراً للأشراف!

بعد ذلك خرج الشاطر وحتحوت من المغطس الساخن بينما بخار الماء وغضب الزبائن يملأ المكان، وذهبا إلى ركن الحنفية وغسل كل واحد جسده بالليفة والصابون، وأزال المكيساتي الرغاوي بالماء

العذب الذي صبه عليهما من الابريق، وبعد تمام استحمامهما لفا جسديهما بالمناشف الجافة، وعادا إلى «بيت أول» الأقل حرارة وجلسا فوق المصطبة يحتسيان القهوة، بينما بعض الزبائن ينفحون اللاونجي بخمسة فضة أو بعشرة وهم يتحدثون عن بدعة بونابرته الجديدة التي أسماها الديوان العام، إذ استدعى من كل بندر من بنادر البلاد مندوبين مؤلفين من ثلاثة من العلماء وثلاثة من التجار ومثلهم من الأهالي ومشايخ البلاد ورؤساء العربان وعدد من نصارى القبط والشوام ورؤساء الجند، وقال أن غرضه هو تعويد الأعيان المصريين على نظم الحكم والمجالس الشورية، فلما استقر بهم الجلوس شرع الترجمان في قراءة فرمان الافتتاح الذي كتبه بونابرته ومجمله أن قطر مصر هو المركز الوحيد الذي لا نظير له من حيث الخصب، وكان يجلب إليه المتاجر من البلاد البعيدة، وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التي يعرفها الناس في الدنيا كلها أخذت من أجداد أهل مصر الأوائل، ولكون مصر بهذه الصفات طمعت الأمم في تملكها، فملكها أهل بابل واليونان والعرب والترك الآن، إلا أن دولة الترك شددت من خراب مصر بحيث بقي الناس مختفين تحت حجاب الفقر، ثم أن طائفة الفرنسيس بعد أن ذاع صيتهم في أمور الحرب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر من الدولة التركية المفعمة جهلاً وغباوة، ومنع القوي من ظلم الضعيف، لذلك فمن المناسب لأهلها ترك الشغب . . ولأن أعيان الأقاليم أهل خبرة وعقل فسوف يسألهم عن أمور ضرورية يجيبون عليها فيستنير صاري عسكر بآرائهم ويصنع ما يليق فعله . . ثم طلب منهم اختيار شخص منهم يكون كبيراً ورئيساً، فقالوا الشيخ الشرقاوي فقال «نو، نو» يعني لا لا ، إنما ذلك يكون بالقرعة

وبالانتخاب السري، ففعلوا القرعة بأوراق فطلع الأكثر للشيخ الشرقاوي فأصبح رئيساً . . لكن أرباب هذا الديوان العام عندما طلبوا تخفيض الأموال المقررة على الطوائف ردوهم خائبين[1]!

ارتدى الشاطر وحتحوت ثيابهما ودفعا الأجرة وانصرفا، وفي الطريق قال حتحوت في نشوة عجيبة:

ـ أشعر بأني صرت خفيفاً.

فداعبه الشاطر:

ـ لأن الصابون أزال عن بدنك أحمالاً.

ثم زارا ادريس الكردفاني وتحدثا معه من جديد عن السودان وعن مدينة النحاس والمساخيط وعن الذهب الموجود في جبال القمر. . تركاه ومرا من أمام مقهى الحلبي الذي كان من أسارى مالطة والذي يبيع المأكولات بحسب ورقة معلومة وبأثمان محددة وكانا جائعين جداً فتشجعا ودخلا وجلسا على مقعدين أمام خوان وجاءهم الفراشون بالطعام، والحلبي كعادته كل يوم يداعب زبائنه ويسليهم بحكاية امرأة الضابط الفرنساوي الذي نجح في تهريب زوجته الشقراء ضمن الجيش في زي جندي، ثم كان من سوء بخته أن رآها بونابرته في زي المرأة وهي تلعب الورق في البيت الذي يجتمعون فيه كل مساء فراقت في عينيه وأعجبته . ودبر ملعوباً بأن أوفد زوجها برسائل إلى فرنسا،

---

(١) يذهب بعض المؤرخين إلى أن الديوان العام كان أول برلمان بالشرق الأوسط (أكتوبر ١٧٩٨) . . ويقال أن نابليون حضر احدى اجتماعاته مرتدياً جبة وقفطاناً وفوق رأسه عمامة كبيرة ظناً منه أن هذا يكسبه حب المصريين، وفي أثناء سيره كاد يتعثر في ثيابه الفضفاضة!!

وبمجرد رحيله اقترب منها ودلق الماء على فستانها وكأنه بالصدفة، ثم أخذها إلى غرفة فوقية بحجة تنظيف الفستان، وظلت تنظفه الليل كله، وعند الصباح نقلت أمتعتها إلى قصره بالأزبكية، وصار الجميع يؤدون لها التحية العسكرية ويسمونها كليوباترا، تخرج مع السلطان الكبير في رحلاته الخلوية بالصحراء، وعلقت سلسلة حول عنقها فيها صورته.. أما عن رجلها فبعد أن وصل ثغر الاسكندرية ركب مركباً، وفي عرض البحر أسر الانجليز هذا المركب، وفتحوا المكاتبات التي أعطاها له صاري عسكر وقرأوها فاكتشفوا أنها بلاغات قديمة وأوراق عديمة الأهمية، فجلسوا وتشاوروا ثم قرروا إعادة الرجل إلى بر اسكندرية، الذي ركب إلى مدينة مصر بعد أن فهم ملعوب بونابرته، فلما وجد بيته خالياً ذهب وقابلها فأنكرته وردته، فخرج مقهوراً، لتصبح حكايته تسلية جميع العسكر وتسلية الحلبي الذي كان ترجماناً.

لكن حتحوت لم يكن مرتاحاً في الأكل وهو جالساً على المقعد المرتفع، فابتلع الطعام بسرعة، ثم دفعا الثمن المكتوب على الورقة بلا زيادة أو نقصان، وخرجا إلى الطريق والناس من حولهما في أسوأ حالة من الغيظ وكأنهم ينوون الاتيان بفعل خطير..

وبمجرد أن تمددا راحاً في نوم عميق، وقبل أن يروح حتحوت في النوم تماماً قال:

- هذا الحمام يجب أن نذهب إليه كل أسبوع.

فوافقه، ثم خيل إليه وهو بين الصحو والنوم أنه يحدثه عن الطقطقة والتكييس، لكن النوم كان أشطر فلم يكمل حتحوت ولم يستمع الشاطر..

- ١٦ -

صباح اليوم التالي استيقظ حتحوت على هزات قوية، وصوت الشاطر يصيح:

- انهض، قم، الناس يحاربون في كل مكان.

فجلس يستجمع حضور ذهنه، من يحارب من؟ والذي حدث أن جموعاً غفيرة من الناس هرعوا إلى بيت القاضي التركي ابراهيم أفندي أدهم، ودخل عدد منهم بيته وطالبوه أن يذهب إلى السلطان الكبير ويتشفع لديه من أجل الغاء بدعة الضرائب الجديدة التي جعلها على الدكاكين وتسجيل البيوت والبيع والشراء، وطلبوا منه أن يركب معهم فاستجاب، ولكنه لم يكد يتخطى عتبة داره حتى رأى جموع الناس الهائجة نحو الألف أو أكثر، فخاف وقدر خطورة الحال وقال مذعوراً: إن هذه الطريقة ليست مما يتبع في تقديم شكوى، ولم يركب بغلته واعتذر عن مصاحبتهم واستدار يدخل بيته فثارت ثورة الجماهير وصاحت: إلى بونابرته إلى بونابرته، وانهالوا عليه وعلى رجاله ضرباً بالعصي وحدفوه بالحجارة ونهبوا بيته نهباً!!

قال الشاطر:

ـ هذا ما سمعته بالخارج، تعال نَرَ ما يحدث، علنا نصطـاد ثمـن البغلين.

فخرجا بأسرع ما يمكن، ووجـدا النـاس يتجمعـون في الشـوارع زرافات قادمين من كل صوب ووجهتهم الأزهر والغـورية، ينـذرون ويتهددون ويتلاقون من غير تعارف ويتبادلون الشكوى، فلما عبـروا ميدان الأزبكية وجدوا العساكر الفرنساوي على المدافع والبنادق وفي حركة زائدة، ويثبتون بعض المدافع الجديدة عند مداخل الميدان، وما أن اقتربوا من الغورية ووصلوا الأزهر حتى وجـدوا بعض المعممين يشعلون نار الغضب في الناس، والناس تتعاهد على الحماسة، وبأقل من ساعة زمنية ظهـرت الأسلحـة من بنـادق وغـدارات في الشـوارع والميادين بعد ما كانت مستورة عن الأنظار، ومن ليس عنده شيء من هذا حمل عصاه أو نبوته أو شومته أو سهام الجـريد، وعلـت الجلبـة واختلطت الأصوات وأصبح المنظر يبعـث الرهبـة في نفـوس أشجـع الفرنسيس، وصرخ أحد المشايخ الصغار من فوق مصطبة أحد الحوانيت هاتفاً:

ـ اليوم يوم مغازاة الكفار.

ففي الحين والساعة قفلت البلد وأغلقت الأسواق، وصار حتحوت والشاطر ينشئان مع الناس المتاريس بالأخشاب والأحجـار من أجـل الاستعداد لمقدم شيخ البلد ديبه وتابعه فرط الرمان.. وقبل أن يفعلوا شيئاً من هذا وصل ديبه ومعه من خيالته خمسة فقط ومترجمه، وهذا من

فرط شجاعته أو غفلته، جاء من بركة الفيل إلى الموسكى أو الغورية قاصداً بيت القاضي التركي إبراهيم افندي أدهم في بين القصرين، فوجد الشوارع قد ضاقت بالناس والأحجار تتساقط عليه من كل مكان ومن فوق البيوت، فخرج من «بين القصرين» ليجد أمامه جمعاً أكبر يسدون عليه الطريق، وحاول المترجم أن يخاطبهم فشتموه وسبوه، وركبت الرعونة ديبه وكان مندفعاً فانحشر مع خيالته الخمسة في زقاق ضيق منعه من الكر والفر وكاد يقتل رجماً!!.. فوصل فرط الرمان لنجدته بعسكره وأطلق رصاصة فوق رؤوس الناس للتهويش، فهاجوا وماجوا وهجموا بالعصي والطوب والسيوف، وأصابت طوبة رأس أحد أعوان ديبه فكاد يترنح، ثم أصابت طعنة رمح ديبه نفسه في ثديه الأيسر، ومن توه وقع ومعه معاونه، فأطلق فرط الرمان الرصاص في المليان، وتساقط العشرات، ومن لم يمت بالرصاص وطأته الخيل، بحيث فر الباقون طلباً للنجاة!

لكن مصرع ديبه شجع الأهالي وبلغ اسماع جميع الأحياء فتضاعف العدد، ولم يشذ عن هذا الوفاق إلا مصر القديمة وبولاق وعذرهم الأكبر قربهم من معسكرات الفرنسيس خارج سور المدينة، وتم الاستيلاء على المداخل من باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة وباب الشعرية، وأقاموا المتاريس، وفصائل الفرنسيس تقاتل وتتراجع تاركة جثث الناس على الأرض.. وفي زحام المعمعة اقتحم العامة البطالون حي النصارى الأروام وقتلوا الرجال وسبوا النساء ونهبوا دورهم وما جاورهم من بيوت المسلمين وبيوت القبط المصريين على التمام. ثم راحوا ينهبون كل حانوت يقابلونه، فأخذوا ما في خان الملايات من

أمتعة وموجودات، ويرى حتحوت والشاطر جميع ذلك فيغضبان لأن الأصل مغازاة الفرنسيس . .

ثم سمعا أن الناس اقتحموا دار المجمع العلمي ونهبوا أجهزته الكثيرة وقتلوا من فيه فجريا إلى الناصرية وفي ذهنهما صديقهما ادريس الكردفاني، وبعد جري طويل واصطدامات الناس الهائجين وصلوا إلى حارة الناصرية ولكن بعد فوات الأوان، إذ وجدا من الناس من يحمل النظارات الغريبة، ومنهم من يحمل آلات الفلك والهندسة مما هو معدوم النظير، أو يجر خلفه آلات لا يعرف قيمتها إلا من يعرف منفعتها! . . وعندما دخلا الدار وجدا باقي الأجهزة مكسورة قطعاً، فتلفتا يبحثان عن ادريس فلم يجداه، فتوجها إلى البيت الذي يسكن فيه دنون فوجدوه مقفولاً والفرنسيس من أرباب المجمع العلمي متحصنين داخله بالبنادق، وراحا يناديان على صاحبهما ادريس فإذا به يطل عليهما من طاقة صغيرة، ففرحا بسلامته وأشارا له أن ينزل ويمضي معهما فتردد وهز رأسه رفضاً، فتركاه وانصرفا، وقبل أن يصلا نهاية الطريق وجداه يلحق بهما بعد أن خرج إلى حوش الدار وقفز من نافذتها الخلفية الضيقة. . ثم روى لهما عن امرأة عجوز تسكن جوار البيت، قالت لدنون:

- إن تعرضتم للخطر نقبوا الجدار الفاصل بيني وبينكم وتعالوا عندي وسنحميكم .

وسار الثلاثة من حارة إلى حارة، والغروب يطبق على المدينة بحمرته، وكانوا قرب بوابة السور عندما سمعوا ضجة وصراخاً

ورصاصاً، ورأوا عدداً من الفرسان يدخلون قادمين من عند مصر القديمة وبينهم بونابرته شخصياً الذي كان بجزيرة الروضة طول اليوم . . فانهالت عليه أمطار الطوب من كل مكان حتى أنه وهو السلطان الكبير تراجع واتجه إلى باب اللوق ليدخل من هناك إلى بيته بالأزبكية . . وما أن هرب حتى صاح الناس وصفقوا، وقال الشاطر:

- فعلنا ما لم يفعله الغز، وجعلناه يفر مبطوحاً سائح الدم .

قال إدريس :

- لم يبطح ولم يسح دمه!

وأيده حتحوت، لكن الشاطر أصر على أن أحدى رمياته بطحت بونابرته، ثم أخذته الحماسة وقال :

- هيا نسبقه إلى الأزبكية .

وجرى واضطرا إلى اللحاق به . . بينما المدينة في أفظع حال، والطلقات في كل مكان والجثث على الأرض هنا وهناك، والأنات والتأوهات، ودوريات الفرنسيس تهاجم الناس . وميدان الأزبكية مسدود بالمدافع من كل اتجاه، ووصل السلطان الكبير ودخل داره غاضباً يشخط ويسب ويلعن .

فتركوه في ثورته وانسحبوا إلى الأزهر، فوجدوا المتاريس وقد صارت مثل الجدار المنيع، والناس لا حصر لهم، ومن حولهم باعة الترمس والمأكولات والعرقسوس . . وعند آذان المغرب ضبط من معه ساعة ساعته على الساعة الثانية عشرة[1] .

---

(١) كان التوقيت يبدأ من غروب الشمس حيث تكون الساعة الثانية عشرة، وبعده

وبعد ذلك بحوالي الساعتين والظلام في كل مكان إذا بمجموعة من الفرنسيس تحاول الاستطلاع فانهالت عليهم الرصاصات من كل مكان . .

أما الشاطر وحتحوت وادريس فقد تلاصقوا خلف المتاريس ، حتى ناموا في أماكنهم والليل ينقضي في سكون مريب طويل مثل الدهر، والتجهيزات تتزايد، وكل فريق يتخذ عدته لصباح الغد، وعند الفجر توافد أهالي الضواحي الخارجية للمساعدة ففتحوا لهم البوابات التي تحت أيديهم . .

أما الفرنسيس فإنهم أصبحوا مستعدين وعلى التلال متمركزين ، وفوق القلعة واقفين بالمدافع والقنابل والبمبات، ونزلت كتائبهم الكبيرة إلى الطرقات تضرب بالنيران في كل اتجاه ، ومات من مات ، ولجأ عدد كبير من الناس إلى بيوتهم ، وهدأت الأحوال في الأحياء ، وبدا أن الغلبة ستكون للفرنسيس ، وضربهم ينطلق من كل مكان ، فذهب أعضاء الديوان إلى بونابرته ، وقبل عودتهم سكتت المدافع ، وتوجهوا إلى المتاريس بجهة الأزهر فمنعوهم من تخطيها ، ورفع كبيرهم صوته ليسمعه الحشد الصاخب :

- يريدكم بونابرته أن تلقوا السلاح .

فهاجت الناس ، فقال :

- اعقلوا واعلموا أنه لم يبق من المتمردين غيركم .

بساعة تصبح الساعة الواحدة، وبعده بثلاث ساعات تكون الثالثة وهكذا . .
وبعد الساعة الثانية عشرة صباحاً تبدأ الساعة واحدة مرة أخرى .

فسخروا منه وصاح :

ـ إننا أسارى في قبضتهم ، اسمعوا الكلام وإلا دك المكان عليكم .

فلم يأبهوا وقد ظنوا أن الفرنسيس سيأتون بأنفسهم ، لكنهم أرسلوا بعد الظهر مئات القنابل والبمبات من ربى المقطم على الصناديقية والأزهر والغورية والفحامين، فصارت تنفجر بهول لم يحدث من قبل ، وكان معظم الناس لا علم لهم بمثل هذا الهول فجروا إلى كل اتجاه يصيحون دون وعي : «يا سلام من هذه الآلام ، يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف» . . ثم هربوا من كل سوق ودخلوا إلى الشقوق . . وتتابع الرمي من الكيمان حتى تزعزعت الأركان وانهدمت الجدران ، وسقطت بعض الدور والقصور، وسقطت القنابل في الوكائل فصمت الآذان بدوي هائل . .

ثم أن الجدار الواقف بجواره حتحوت انهار فوقع عموده الخشبي على رأسه ، فسقط غارقاً في دمائه ، وارتبك الشاطر وحمله مع ادريس بعيداً ، بينما المتاريس من ورائهم تتناثر وأشلاء القتلى تتكاثر . .

فلما عظم الخطب وزاد الكرب طلبوا الهدنة والتسليم وركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل من قذف ورمي متراسل . . فعاتبهم واتهمهم بالتقصير ثم أمر برفع الرمي، فخرجوا من عنده ينادون بالأمان في المسالك ، فلما تسامع الناس بذلك ردت فيهم الحرارة وتسابقوا لبعضهم بالبشارة . . والغروب على وشك المجيء ، وادريس والشاطر في حيرة من أمر حتحوت ، ونزلت عجوز من دارها وكبست جرحه بالبن ، وعندما تكلم طلب أن يأخذاه بسرعة إلى بيت

مدكور الزيات من قبل حدوث مزيد من الويلات.

فحملاه عبر الحواري الجانبية حتى الموسكي ثم الرويعي، ودق الشاطر باب البيت، وبعد حين طال مثل الدهر سأل البواب من الداخل عن الطارق، فقال الشاطر:

ـ نريد السيد مدكور الزيات، نحن من طرف الريس مرسي رضوان.

فغاب وعاد بعد حين وفتح، وأطل الزيات من الباب في تهيب، فلما رأى حتحوت المصاب تلفت وهو مرتاب، فلما عرفه احتار وفكر أن يردهم ويغلق الباب، لكن الشفقة أخذته فأفسح الطريق ودخلوا جميعاً، ثم أرقدوا المصاب في فناء الدار وهو يئن من الأوجاع. وحكى الشاطر للزيات جميع ما كان فابتأس وقال:

ـ اتركاه وامضيا وسنرعاه، ولكن إياكما والبوح بمكمنه.

فشكراه وانصرفا، وقرر ادريس أن يعود إلى الناصرية حيث دنون الرسام، وتسلل الشاطر في خفة القط إلى داره، وما هي إلا هجعة من الليل إلا والفرنسيس دخلوا المدينة، وراحوا يمرون من غير ممانع عبر الأزقة وفي الشوارع، وهدموا ما وجدوه من متاريس وكأنهم الشياطين أو جند ابليس، ودخلوا الغورية وكروا وترددوا وما هجعوا حتى علموا باليقين أن لا دافع لهم ولا كمين. ودخلوا الأزهر بالخيول ومعهم المشاة كالوعول، فنهبوا القصاعات والودائع والخزانات، وعلى رأسهم فارس غريب المنظر يعدل جيشاً بأكمله وله صدر أسمر، عاري

قوي على صهوة جواد يشب بقائميه ومنخاراه ينفثان الهواء كاللهيب[1] .

وحتحوت في بيت الزيات يعاني الأوجاع، وصاحب الدار يرقبه محتار، لماذا يشارك هذا الغلام في هياج الناس الغاضبين، وهو لا يملك عقاراً أو دكاناً فرضت عليه الضرائب!! . . ثم أن زوجته نزلت وصارت ترعاه ودموعها على وجنتيها تبكي طفلها الذي مات في طاعون اسماعيل، لو عاش لكان في عمر حتحوت، ومن حين لآخر تنصت لسنابك الخيل تدب في الطريق بصوت رهيب ودوريات العسكر تدور وتفتش . .

وعند الصباح كان حتحوت في حال أحسن، وعاتبه الزيات لتركه أمه وأهله والبقاء في مدينة مصر، فقال أن الطريق مقطوع، لكن الزيات أعلمه أن ديزه قد صار يسيطر منذ عدة أيام على معظم الصعيد بحيث أن المراكب صارت تأتي بغلال بني سويف والمنيا وجزء كبير من أقليم أسيوط.

أما السلطان الكبير فقد حزن حزناً كبيراً لموت شيخ البلد ديبه الشجاع وصار طالباً للثأر، فندب فرط الرمان للعسس والتفتيش عن كل من حمل سلاح أو اختلس، فنشط فرط الرمان وصار يأخذ منهم العديد ويجبرهم وهم موثقون من أيديهم بالحبال، ويسحبهم أعوانه إلى السجون ويطالبوهم بالمنهوب ضاغطين عليهم بالضرب والتنكيل حتى دل بعضهم على بعض، وكثير من الناس ذبحوهم وفي زكائب خاطوهم

---

(١) هذه الأوصاف تنطبق أغلب الظن على الجنرال ديماس والد مؤلف الفرسان الثلاثة والكونت دي مونت كريستو، وكان من ضباط الحملة.

وفي بحر النيل ألقوهم، ومنهم نساء كثيرات كن يحرضن الرجال على القتال . .

ثم أمروا الساكنين حول الأزبكية بالانتقال إلى بيوت أخرى، وأسكنوا مكانهم القواد والأتباع الذين كانوا متفرقين، وكل ذلك من أجل تسهيل حمايتهم إن هاج الناس من جديد، حتى أن الشخص منهم صار لا يمشي بدون سلاح، والذي لم يكن معه سلاح يأخذ في يده عصا أو سوطاً . . ومن جملة من انتقل من الدرب الأحمر إلى الأزبكية «كفرلي» المسمى عند العامة بأبي خشبة لأن إحدى رجليه مقطوعة من الركبة وقد ألبسها خشبة يمشي بها بدون معين، ويصعد الدرج وينزل منها أسرع من السليم ويركب الفرس ويرمح به وهو على هذه الحال، وهو المدبر لأمور القلاع عندهم والبناء ومصارف الحروب . .

ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصي عددها إلا الله[1] .

(١) من ٢٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ مصري، وأكثر من مائتي فرنسي منهم الجنرال ديبوي حاكم القاهرة وياوره وعدد من كبار الضباط والعلماء . . وقد بدأت ثورة القاهرة الأولى في ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ .

- ١٧ -

مع الراحة ورعاية الزيات وزوجته والأكل المفيد استرد حتحوت عافيته ، وكان الزيات قد وجد له مركباً متوجهة إلى بني سويف ، فنصحه بالعودة بها على أن يكمل المسافة إلى المنيا بأية وسيلة ، وذلك من أجل أن تطمئن أسرته ، وحمله السلام للريس جابر ومرسي ، ومع سماع اسم مرسي اغتم حتحوت من أجل اعتقاده في وفاته ، وقبل السفر ذهب مع الشاطر لزيارة إدريس الكردفاني فلم يجداه وعرفا أنه ارتحل مع دنون إلى الصعيد لحاقاً بجيش السلطان الصغير ديزه .

وبعد تردد ومماطلة رضي الشاطر أن يرافقه ، ثم تأجل رحيل المركب بسبب عدة أوراق مطبوعة لصقها الفرنسيس بالأسواق مضمونها أنهم في اليوم التالي سوف يطيرون مركبة بالأزبكية في الهواء بحيلة فرنساوي ، فكثر لغط الناس كعادتهم ورغب صاحب المركب ورجاله في مشاهدة هذه الحيلة ، فلما كان قبل العصر اجتمعت الناس والفرنجة ليروا تلك العجيبة ، وحتحوت والشاطر من جملتهم ، فرأوا قماشاً كبيراً فوق عمود قائم ، والقماش أبيض وأحمر وأزرق بلون علم الفرنسيس أسفله فتيلة مغموسة ببعض الأدهان ، وتلك السرجة مصلوبة بسلوك

حديد منها إلى الداخل، ومشدودة ببكر وأحبال، وأطراف هذه الأحبال بأيدي أناس قائمين بأسطح البيوت القريبة منها . . فلما كان بعد العصر بنحو الساعة أوقدوا تلك الفتيل فصعد دخانها إلى ذلك القماش وملأته فانتفخ وصار مثل الكرة، وطلب الدخان الصعود إلى مركزه فلم يجد منفذاً فجذبها إلى العلو، فجذبوها بتلك الأحبال حتى ارتفعت عن الأرض وقطعوا تلك الأحبال، فصعدت إلى أعلى مع الهواء ومشت معه هنيهة لطيفة ثم سقطت طارتها بالفتيلة وسقط أيضاً ذلك القماش، فانكسف طبعهم لسقوطها ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركبة يجلس بها أنفار من الناس ويسافرون فيها إلى البلاد البعيدة، بل ظهر أنها مثل الطيارات التي يعملها الفراشون والأطفال بالمواسم والأعياد[1].

وفي تلك الليلة عملوا حراقة ونفوط وصواريخ بالأزبكية، وكان ذلك اليوم والليلة من أعيادهم لأن صارى عسكر دعا الأعيان وأكابر التجار فلبسوا ثياباً جديدة . . وفي تلك الليلة كذلك كثر مرورهم بالأسواق فكانت الكلاب تعضهم فأطعموها خبزاً مسموماً ومات الكثير منها، فلما طلع النهار ووجدت الناس الكلاب مرمية بالأسواق استأجروا لها أنفاراً جروها إلى الكيمان! . .

وبالمثل جمعوا عدداً كبيراً من النساء الفواحش بسبب نقل الأمراض بين عساكرهم وقطعوا رؤوسهن ووضعوها في زكائب القوها في بحر النيل . . بينما المركب قد رحلت تحمل حتحوت والشاطر، ولأن

(١) ٢٩ نوفمبر ١٧٩٨ ثم ١٧ يناير ١٧٩٩ . . وواضح أنه بالون بدائي.

أصحابها من بني سويف لم يوجد بينهم من يعرف مصير الريس مرسي أو رآه منذ وقوع المعامع . . وبعد نصف ساعة زمنية دار الكلام فحدث حتحوت النوتية عن الآلات التي شاهدها مع صديقه الشاطر عند الفرنسيس بالناصرية، وقال:

- من أجل هذا تسلطنوا علينا لأنهم يهتمون بالعلوم والصناعات!

لكن ريس المركب أكد قائلاً:

- بل بسبب غضب الله علينا لابتعادنا عنه!

- معنى كلامك أنهم قريبون من الله .

وتواصل الحديث ، وبعد قليل عبرت المركب بجوار البقعة الذي سقط بالون الهواء فوقها.

أما عن ادريس الكردفاني فهو قد وصل بصحبة دنون إلى إقليم بني سويف حيث لحقا بجزء من جيش ديزه في قرية اسمها الفقاعي، وكان معسكراً للتجمع في انتظار الإمدادت والتعزيزات، وقبل وصول الفرنسيس كان الغز قد مشطوا قرى الناحية كلها وأخذوا الميري مضاعفاً وأكلوا الكثير من الماعز والخراف والبط والدجاج، واعتدوا على النساء والغلمان، ومع اقتراب الفرنسيس ارتحلوا جنوباً بعد أن أفهموا الأهالي بأن عسكر الفرنجة مثل الغانيات قبضاتهم على السيوف ضعيفة وأذرعهم واهية، فلما وصل هؤلاء تصدى لهم أهالي القرية الأولى بتسعة بنادق عتيقة وبالشوم والطوب فكانت طلقتان من مدفع فرنساوي كفيلة بدك ثلث القرية واستسلام أهلها! . . فدخلها العسكر وقتلوا عدداً من الشبان واعتدوا على الصبايا فماتت ثلاث منهن بفعل

المقاومة، ثم استولوا على البهائم المتبقية من زيارة الغز وحرقوا الديار وارتحلوا، والغز يراقبون كل ذلك التنكيل عن بعد ولا ينجدون الأهالي، فلما علم بذلك سكان القرى التالية جمعوا شملهم وأخذوا النساء والأطفال والشيوخ والبقر والجاموس والجمال وارتحلوا غرباً إلى الصحراء.. وبعد رحيلهم وصل الفرنسيس شاهرين البنادق فخرجت الكلاب المتبقية تنبح عليهم، ووجدوا القرية خاوية إلا من بعض البط والدجاج فسعد الجنود بذلك، وراحوا يطاردون الدواجن التي علا صياحها فجاوبتها الكلاب بنباحها، وذبحوا جميع ما وجدوه، وخلعوا خشب الأبواب والشبابيك والمحاريث والسقوف وجريدة الأسرة وجميع ما يصلح للنيران، واستخدموا أسياخ حشو البنادق أسياخاً للشوي، ثم أكلوا حتى اتخموا بحيث أنهم مع ميل الشمس إلى الغرب تمددوا فوق القش تحت أشجار النخيل يستريحون من المشي الطويل، وعندما أزعجهم نباح الكلاب بندقوا بعضها فهرب الباقي، وبعد ذلك انسحبوا إلى معسكر التجمع عند قرية الفقاعي..

وكان ولد من أبناء هذه القرية اسمه سعد قد تسلل من أهله عائداً إلى القرية بحثاً عن جلبابه الجديد الذي نسي أن يأخذه، فما أن وصل إلى مشارفها حتى شم رائحة الشواء ووجد الديار جدراناً بلا أبواب، والخشب المشتعل وريش الطيور المذبوحة وبقايا عظامها هنا وهناك، والقدور مهشمة والغلال قد اختفت، فشعر بالذهول ثم الحنق فالغيظ والغضب، وجرى إلى معسكر الفرنسيس وانبطع أرضاً يراقب المكان، فرأى السلطان الصغير بثيابه الزرية وشعره الأشعث وجنوده في حالة استرخاء بعد وجبة الطيور، تحرك مقترباً ثم كمن في هدوء يراقب الموقع في نفس

اللحظة كان ادريس الكردفاني قد رآه فراح يراقبه، بينما دنون في حديث مع أحد الضباط، وارتفعت رأس الصبي سعد تراقب من جديد وادريس يرقبه وتلمع عيناه من وجهه الأسمر، فرأى سعد يقترب من أحد العسكر النائمين ويسرق بندقيته ويخبئها تحت جلبابه، وكتم ادريس أنفاسه وزادت لمعة عينيه وتلفت حوله وكأنه يراقب المكان من أجل الصبي سعد، وتذكر صديقيه حتحوت والشاطر وشعر بالحنين لرؤيتهما، لكنه تنبه إلى عسكري آخر يبدو أنه لمح سعداً، تمنى لو صرخ وحذره، لكن العسكري جرى وراءه، والبندقية تحت جلباب الصبي تعطله عن الركض، وشهر العسكري سيفه، وهال الأمر ادريس، وإذا بالجندي يضرب الصبي في ذراعه فيسيل الدم منها ويقف وقد وضع كفه فوق الجرح، وسقطت البندقية إلى الأرض وامسكه العسكري من عنقه وقاده إلى السلطان الصغيرة ديزه وقد التف الجميع، وجاء دنون بورقة وريشة يرسم البطل الصغير، والليل يحط بسواده . .

وكان ديزه جالساً تحت خمس نخلات شقيقات نابتة من بقعة واحدة، وانهال أسئلة بلسان المترجم : من أرسلك؟ من وراءك؟ هل الغز قريبون؟ ما رأى الفلاحين فينا وفي الغز؟ أسئلة كثيرة تحير ذوي الألباب لكن الصبي الهمام بقي واقفاً مشدود القامة مرفوع الهامة يجيب في هدوء بأنه لا يعرف، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال أنه تصرف هكذا بأمر من الله عندما رأى الخراب الذي حاق بقريته، ثم سأل :

ـ من الكبير هنا؟

فلما علم أنه ديزه الذي يحاكمه خلع طاقيته وقدمها إليه، دهش السلطان الصغير ولمعت عيناه ارتباكاً، وسأل عن معنى هذا التصرف فاحتار المترجم وسأل الصبي فقال:

ـ أنا سعد اليتيم أمري الآن بين يديك أحكم بما تشاء .

ففرد ديزه كفيه معجباً بشجاعته ، وأمر بجلده ثلاثين جلدة فلم يرتجف سعد وأعطى ظهره للجلاد ، وأغمض ادريس عينيه كي لا يرى الضرب لكنه سمع صوت الجلدات وشعر أنها تلهب ظهره هو فسد أذنيه بكفيه ، وتمنى لو كان صديقاه حتحوت والشاطر معه ، ولم يكن يعرف أنهما في هذه اللحظة نائمين في المركب العائدة إلى بني سويف . .

وعندما طلع الفجر واصلت المركب رحلتها جنوباً ، ومن جوارها عبرت مجموعة غلايين فرنساوية . وسبقتها بالذخيرة والطعام ، وعلى رأسها غليون كبير اسمه «ايتاليا» الذي هو غليون السلطان الكبير ذاته أرسله لدعم سلطانه الصغير ديزه من أجل السيطرة على الصعيد ومتابعة ارسال الغلال من أجل خبز العسكر وأهل مدينة مصر . .

وكان جنود ديزه قد استيقظوا على صوت النفير واصطفوا ، وبعد عزف الموسيقى واصلوا توغلهم إلى الصعيد لمطاردة مراد بك الذي كان بمدينة المنيا يسبقهم إلى جمع الميري والمال بأنواعه ، ويحرض الناس ضدهم ويجند من العرب والفلاحين كل من يرضى بالانضمام إليه ، فيعطيه السلاح والذخائر وتدريب سريع ثم يصدره في المقدمة ! !

أما عن الريس مرسي فهو بعد وصوله إلى مدينة المنيا في أحد غلايين الغز نزل إلى الشاطىء دامع العينين من الشوق ، وما أن رآه بحارة مركبه حتى رحبوا به ، وسألوه عن أخيه فارتبك ، وكان الريس جابر قد عاد يرعى المركب ، فراح يحكي له عن زوجته مبروكة وكيف أنها تبكي كلما سلمها ريع المركب ، أما أم الخير فحالها حال من القلق على

حتحوت لولا هاتف داخلي يخدرها، قالت الغجرية أنه يتغرب شمالاً ويرى الدماء والحروب وتسلطن الفأر على القط، وشاء رب الكون أن يحدث هذا كله، بقي أن يتغرب جنوباً بين الوحوش الكاسرة والتماسيح والثعابين، وهذا ما زال في علم الغيب، فهو لا بد حي يرزق في مكان ما وكل ذلك بأمر الله، تفكر هكذا وتطمئن نفسها ثم تشرب بلعة ماء لتذهب بغصتها..

عند ذاك بكى مرسي وحكى ما كان من أمر حتحوت معه من الأول إلى الآخر، فأطرق الشيخ طويلاً ولعب بذقنه الأشيب ثم سأله:

- ومن أجل ذلك لم تزر أمك رغم مرورك على المنيا؟؟

فأومأ مرسي خجلاً، فقال:

- هذا والله فعل الجبناء، اذهب وصارحها والأمر لله.

فذهب، واحتضنته وبكت، ولما تلفتت ولم تجد حتحوت دفعته بعيداً، وانتظرت عليه حتى احتضن زوجته مبروكة وأطفاله زهرة ومنصور ومندور ومسرور ثم سألته عن أخيه، فنفذ نصيحة الريس جابر، واستمعت صابرة ثم نهرته ووبخته، وقامت مبروكة تعد له طعاماً شهياً بأن ذبحت له البطة السمينة وراحت تنتف ريشها وعيناها عليه، وأم الخير تكتم غضبتها والوجع يؤلم رأسها.. أما رضوان فعندما عرف لم يعلق ولزم الصمت لكن نظراته القاسية قالت كثيراً.

وبعد الأكل والقهوة جلسوا أمام الدار يستدفئون بشمس الشتاء، وتلقى مرسى تحيات الأهالى ثم آثر الانزواء بالداخل تجنباً لسؤالهم الملحاح عن أخيه.. كل ذلك ورضوان لا يتكلم، وأم الخير تتحدث

إن تحدثت عن ذكريات ولدها الغائب، ومبروكة في لهفة إلى الانفراد بزوجها، وعندما ألمح إلى ذلك منعته أمه متسائلة :

- هل ستبقى؟؟

- يجب أن أعود مع الفجر.

فوجىء بها تمنعه من مضاجعة زوجته، وقالت لمبروكة :

- سيتصرف مثل القط، يضاجعك الليلة فتعلقين منه وتحبلين ويكون هو قد فارقك لاهثاً وراء سيده مراد.

وكانت مبروكة تعرف مدى صلابتها وعنادها، وتعرف فيها الحكمة فنكست رأسها مستسلمة طاعة ومحبة . . أما مرسي فمن شدة خجله بلع ريقه رغم شعوره بالظلم، وبات الليل محروماً من امرأته ورائحة أنوثتها في أنفه وقد استحمت واستعدت له . فكانت ليلة حسرتها كبيرة، وعند الفجر قالت له أم الخير في حسم :

- اترك الغز وعد إلى مدينة مصر وابحث عن ولدي.

فنكس رأسه صامتاً، أمرته :

- خذ مركبك من الريس جابر وابحث عن أخيك.

فسار إلى المنيا مسرعاً وفي نيته تنفيذ رغبتها، لكن المكتوب كان غير ذلك، فهو ما أن وصل المدينة حتى وجد الغز في ارتباك وهرولة وصياح وهم يبحثون عن مراد بك والأمراء، بعد أن علموا بقرب وصول ديزه الماكر والمعلم يعقوب الشاطر وجيش الفرنسيس . . توقع مرسي فرار مراد كعادته فلم يخيب ظنه وأمر بالرحيل على عجل، وأخذت مراكبه

تهرول راحلة فاتجه مرسي صاغراً إلى غليونه، ومع تحركه كانت طلائع الفرنسيس تقترب بغبرتها منهكة من طول المسير، فأسرع فرسان الغـز بغبرتهم جنوباً يلحق بهم تباعاً العائدون من غارات القرى، وكل فارس يحمل شاة أو جدياً يمأميء، أو يسحب وراءه حصاناً نحيلاً ترجل وباعه على وجه السرعة بريال واحد، وآخر أخذ أمامه فلاحة صغيرة تحملق بثوبها الممزق فيما حولها في هذيان الكوابيس وقد سبيها..

وعندما هرولوا جميعاً تركوا خمسة غلايين عجزوا عن تعويمها لكثرة أحمالها من الأقوات والذخائر واثني عشر مدفعاً ثقيلاً، بقيت مكانها حتى أخذها ديزة سالمة، وبذهاب عسكر الغز وحلول عسكر الفرنجة ظهر تباعاً عدد من اتباع مراد بك الهاربين منه، طالبين الانضمام لجيش السلطان الصغير، ثمانية من المشاة اليونانيين، وثلاثة تكلموا بلسان الفرنسيس، قال أولهم أنه من فرسان بلاد النمسا أسره الأتراك في حروبهم مع النمسا ثم باعوه فصار مملوكاً في أرض مصر!

واستراح ديزه في دار الكاشف الهارب مع مراد، ودخلت معه جاريته سارة الحبشية وباقل الأسود واسماعيل المملوكي، وسرعان ما فاحت من البيت رائحة الشواء والمسلوق.. كذلك استراح الضباط والعسكر، ما عدا الرسام دنون وخادمه ادريس الذي انفرجت أسارير وجهه الأسود عن ابتسامة بيضاء سعيدة بتأمل بر المنيا، أرض صديقه حتحوت الرضواني، لو قابله ثانية فسيهرب ويعيش معه عند والدته أم الخير، لقد أحبها من حديث حتحوت عنها وشعر بأن حنانها يمكن أن يسعه. وكان مندهشاً من سيده دنون، الجميع استلقوا طلباً للراحة أما هو فجلس يرسم كل ما يراه، بيوت المدينة المطلة على النيل المبارك

والمراكب والجبل الشرقي . وجلس يراقبه ثم سرعان ما داخله النعاس فنام مكانه ولم يستيقظ إلا على هزات دنون وتوجه معه إلى دار الكاشف من أجل الطعام والنوم في الدفء . .

فجلس إدريس مع باقل واسماعيل في المطبخ ، وسارة الحبشية تدخل مختالة وتأخذ المزيد من الطعام وزجاجات النبيذ الفرنساوي إلى ديزه وأشياعه . . في آخر مرة نظرت إليهم ملياً ، وأعجبها لون المملوكي اسماعيل الأبيض لأنه مخالف للونها ، ورأت وجهاً في جمال الملائكة ، فوضعت أمامه المزيد من الطعام ، ومن أجل خاطره قدمت لادريس حمامة محشوة بالفريك وقطعة كبيرة من لحم الماعز فنسي أن يشكرها وانهمك يأكل ، بينما نظراتها تحتضن اسماعيل . .

وتمنت سارة أن يطول بقائهم في المنيا عدة أيام من أجل الراحة بعد الترحال الطويل ، لكنها تعرف أن الراحة عند ديزه قلقاً وتوتراً ، وصدقت فراستها ، إذ سرعان ما جمع جيوشه وعبيده وسار إلى الجنوب يكمل مطاردة مراد بك ، وغرضه الواحد ألا يتركه يهنأ أو يستريح ، وألا يسبقه في جمع الميري والفرد من البلاد التالية . . فترك حامية ومعها الصرافون لجني المال ، ومضى ومعه دنون ممسكاً باللجام على جواده بين الصحو والنوم ، ومن خلفه ادريس لا يتأمل ما حوله ، فجميع البلاد تتشابه ، نخيل وزرع وقرى بائسة والنيل تعكرت مياهه بطمي الفيضان . .

وكانت سارة الحبشية تسب ديزه في سرها وتلعن جدوده ، لكنها أيضاً واقعة في محبته ، بسبب بأسه رغم صغر سنه وتحكمه في آلاف الجنود ، فارس مغوار يفتح البلاد ويأمر وينهى ، ويحارب لأنه يحب الحرب ،

وينام في حضنها، ويضاجعها ليريح بدنه وليس محبة في الجنس! . . ورغم أنه سلطان الجميع إلا أنه يرتدي مثل ملابس الجنود الخشنة، لا يميزه عنهم إلا بعض الحليات الملونة والشراريب المزركشة، على عكس مالكها السابق الهارب مع مراد بك والذي لم تره يستعمل الأوراق أبداً، أما ديزه فقبل فعل أي شيء يلتف مع أعوانه حول الأوراق المدونة والخرائط الملونة . . وتعرف أنه لا يستريح كثيراً لأنه لا يريد لمراد أن يستريح ولو قليلاً، والجيشان مثل أسراب الجراد يجردون القرى من معظم ما يؤكل! . . لكن المسكين إدريس أبأس منها حالاً لأن سيده دنون يعذبه معه بحمل الأوراق والأقلام والأحبار حتى في أوقات راحة الجميع.

ولم يكن جيش السلطان الصغير ديزه يزحف وإنما يجري، وأمامه على بعد ساعة زمنية أو ساعات قليلة مراد بك يحرض الفلاحين ويقول لهم أنه سوف يدمر الفرنسيس عند أسيوط. فلما اقترب ديزه منها بأسرع ما يكون تركها مراد بك وقال أنه سيدمره عند جرجا.

- ١٨ -

وفي النيل سارت مراكب مراد ضد التيار، وعلى مسيرة أيام قليلة تتابعها مراكب الفرنجة ضد نفس التيار.. وعندما وصل مرسي أسيوط لاح عن قرب ميناء الحمراء وتجهز لأن يرسو عند جسرها الذي يعلو مياه الفيضان، لكنه رأى المراكب السابقة له تواصل سيرها جنوباً خوفاً من جيش ديزه البري، وبسبب الهرولة جنحت ست سفن فتركوها بما حملت، وفي أثناء ابتعاده رأى بيوت المماليك تشرف على أسيوط من أماكنها العالية، وتوقع أن يبيت فيها الفرنسيس..

وفي أعز هذه البيوت وأفخمها نامت سارة الحبشية ليلة هادئة، ومعها اسماعيل وباقل ولحقهم ادريس، واستراح الضباط وسلم السلطان الصغير بدنه المنهك لأنامل جواري صاحب البيت الهارب في حمام دافىء، وقبل أن ينام طلب سارة فنامت في حضنه، وبعد أن فرغ منها أراح رأسه على صدرها البديع فراحت تربت على ندوب وجهه في حنان غريب، والغطاء يدفئهما في برد شتاء أسيوط القارس، وتمنت لو بقيا على هذه الحال، لكنهم في اليوم التالي أسرع الجيش صوب جرجا، وفيها تحققت أمنية سارة فقد بقي الجيش في مكانه ينتظر

المراكب الآتية في بطء بالسلاح والرجال الأصحاء، ورأت سيدها يطوف على الجنود المرضى وقد تفشت فيهم أوجاع المعدة والعين، وأمر بإعادة مائتين من المصابين إلى مدينة مصر، فحسدهم الكثيرون وتمنوا لو كانوا معهم . .

لكن البقاء في نفس المكان عدة أيام أراح أعصابها فراحت تتقرب من اسماعيل المملوكي فتكبر عليها بسبب لونها الأسود، فبكت وتطوع باقل يواسيها وأسنانه تضيء من وجهه الأسمر . . والجنود ينزلون كل يوم يستحمون في النيل مستدفئين بالشمس، ويغنون بأصوات مزعجة، أو ينزلون مدينة جرجا ويعودون بالمشتريات الرخيصة من أطايب المأكول وآنيات عرق البلح، وعند المغرب يترنحون سكراً، فيخرج بعضهم باحثاً عن الفاسدات فإن لم يجد اعتدى على أول من تصادفه، ونادراً ما عادوا كاملي العدد، العشرة يعودون تسعة أو ثمانية، أما المرهقون منهم فيجلسون ويحضرون الراوي الشعبي يغني على ربابته «تغريبة بني هلال» والمترجم يترجمهالهم عبارة عبارة . .

ودهشت سارة عندما رأت السلطان الصغير ديزه بنفسه ينصت في صبر إلى أحداث التغريبة، وأكثر منها دهشة كان ادريس وهو يرى دنون يسجل ما يسمع ويكتبه بلغته، لكنه لاحظ سعادة ديزه عندما احتل الهلاليون تونس الخضراء مع أنها ليست أرضهم، إنها أرض التونسيين والزناتي خليفة، بينما الهلاليون بلادهم في صحراء نجد البعيدة . . وقبل أن ينام استطاع أن يفهم السر، لعل ديزه يظن نفسه أبا زيد الهلالي وقد جاء من وراء البحر المالح الكبير ليحتل مصر الخضراء ويستوطن فيها!

وفي الليلة التالية وبينما ادريس يستمع إلى التغريبة للمرة الثانية تمنى مع سير الأحداث أن ينتصر الزناتي، وكره ابنته الخائنة الفاسدة التي أحبت رجلاً من الأعداء ففتحت لهم أبواب المدينة ليدخلوها ويقتلوا أباها، وجلس يلعنها لخيانتها والدها وأهلها وناسها، وكره ديزه لشماتته في الزناتي . .

وبينما هو كذلك حدث هرج ومرج وانفض سمر الربابة مع مجيء قافلة كبيرة وصلت طالبة الأمان، فأعطاها ديزه الأمان، وظلت تتوافد لعدة ساعات زمنية[1] . . فزاد مقت ادريس بسبب أن قائد القافلة كان ابنا لسلطان بلاد الدارفور أعداء قريته والذين خطفوه منذ سنوات وهو بعد طفلاً وجاءوا به في قافلة مثل هذه وباعوه في أرض مصر عبداً ذليلاً لأحد الغز، الذي هرب فانتقلت ملكيته مع الجواري والبيت والفراش ودواب الحمل إلى السلطان الصغير! . . وهو الآن يكرهه أكثر بسبب أنه دعا شقيق قائد القافلة للعشاء معه، وكان على سارة أن تخدمهما، وكان هذا الدارفوري يضحك كثيراً وشديد السمرة، وقال أنه قادم من رحلة طالت عامين متواصلين حيث زار مكة ثم سار حتى وصل الهند، وأن له ثمانين أخا جميعهم أمراء مثله وجميعهم أبناء لسلطان الدارفور، وأن قافلته مؤلفةمن ألفين من الجمال تحمل للقاهرة سن الفيل وتبر الذهب والتمرهندي والعبيد والجواري السود . .

وتألم ادريس وهو يراقب العبيد خاصة الأطفال وهم مربوطون بحبل واحد من أقدامهم منعاً للهرب، والجواري عاريات الصدور

(١) عشية رأس السنة الجديدة ١٧٩٩.

وقال الزنديق ابن السلطان أن المرأة تكلف بندقية والرجل بندقيتين، وقال أنه يشتري بضائع القاهرة رخيصة ويبيعها في بلاده غالية . . وأكد أن الذهب موجود بكثرة جنوب الدارفور وفي جبال القمر، لكن الطريق إليها محفوف بالمخاطر والوحوش والنهر هناك ملىء بالتماسيح ، عددها هناك يزيد عشرات المرات عن التماسيح في نيل جرجا[1].

وبعد أن أكل كثيراً وشرب كثيراً أهدى ديزه ثلاثة أكياس من تبر الذهب وسن فيل كبير، وعرض عليه أن يختار ما شاء من الجواري ، لكن ديزه ضحك ونظر إلى سارة التي رمقته كالنمرة المتوحشة وقال :

- يكفيني ما لدى !

فابتسمت زهوا ورضاء . . وفي الليل امتلأت عينا ادريس بالدموع وهو يتذكر أمه وأباه وأخوته وقريته في أحراش السودان ، وتمنى لو هرب وعاد إلى هناك .

وفي هذه الأثناء وصل حتحوت وصاحبه الشاطر إلى بر المنيا، بعد الغروب فارتميا خارج السور الشمالي متعبين ، بأقدام متورمة من طول المشي ، فالذي حدث أن المركب أنزلتهما في مدينة بني سويف حسب سابق الاتفاق ، وهناك بقيا عدة أيام يبحثان عن مركب أخرى تأخذهما إلى المنيا فلما لم يجدا قررا المشي ، فسارا أياماً وليالي ينامان في

---

(١) بعد ذلك بحوالي الخمسة أشهر هاجم الفرنسيون القافلة الجديدة الآتية من دارفور واستولوا منها على ٨٩٧ جملاً محملاً، وقد اعتذر نابليون بعدها لسلطان دارفور عن فعلة جنوده ! !

الخلاء متدثرين بجميع ما يملكان من ملابس وقماش بسبب برد الشتاء، وفي مكان بعيد عن المدن والقرى خشية اللصوص والجياع، بعد أن رأيا بأعينهما فعل الجراد من بني آدم في القرى والنجوع والكفور، جراد الغز ثم جراد الفرنسيس، كادت البهائم والطيور أن تختفي من الريف، ولا توجد أنواع الغلال، والجياع في كل مكان، والأطفال في شحوب ونحول، والبكاء والنواح في القرى المحروقة التي قاومت هذا الجراد أو ذاك! . .

وكان حتحوت يأمل أن يصل قبل الغروب لينام في بيت الريس جابر حيث الدفء والطعام الساخن، فتلفت حوله وفكر لمدة دقيقة ورأى أن يتحاملا لمسيرة أخرى حتى موردة الحنش حيث الميناء والمراكب هناك يناما في أي منها، ورأى أن هذه الفكرة معقولة، فلجأ إلى الحيلة كي يقنع صاحبه الذي كاد أن ينام، وتلفت حوله هامساً:

ـ أنا غير مطمئن في هذا المكان، كثيراً ما يختبيء فيه الهاربون من جيش مراد بك، وهم غلاظ قتلة!

وعلى الفور راح النعاس وهب الشاطر واقفاً، وسارا في محاذاة الشاطىء لمدة ساعة زمنية حتى وصلا إلى المراكب، ونظر حتحوت فعرف مركب الريس مرسي فخفق قلبه، ولم يكن بها أي نوتي، فصعد إليها ومعه الشاطر واستلقيا في صقيع الليل ومع نقيق الضفادع وحركة المويجات التي لا تكف، فنام الشاطر من فوره، أما حتحوت فقد منعه الشوق إلى أم الخير من النعاس، وظل مفتوح العينين منكمشاً تحت الغطاء منشغلاً بما يقوله لو لم يكن مرسي قد عاد. لكن التعب شتت أفكاره فتأمل الهواء البارد يلعب بأطراف الأشرعة الملمومة، لتتأرجح

المركب في رتابة وتتلامس أوراق الأشجار العتيقة في وشيش دائم بعث النعاس إلى عينيه فغفى ونام .

وعند الفجر استيقظ على الريس جابر يصعد إلى المركب، فارتمى في حضنه، وحمد جابر ربه لنجاة حتحوت، وسرعان ما عرف منه جميع ما حدث من لحظة سفره إلى مدينة مصر ثم وقوع المعامع وافتراقه عن أخيه مرسي، وكيف أن الله هيأ له الشاطر صديقاً صار أخاً له . . استمع الريس جابر إلى كل ذلك وتعجب من تصاريف الزمن، وقال يرحب بالضيف الجميل الطلعة :

ـ أهلاً بك ، ولتعلم أن جد صاحبك هذا كان اسمه حتحوت وقد مات في اثناء غيابه، وجده كان كذلك، وجد جده، وعلى صاحبك هذا أن يسمي أحد أحفاده بنفس الاسم .

ثم أنه طمأنهما على الريس مرسي فبكى حتحوت مرتين، مرة حزناً على جده الحكيم، ومرة من الفرحة لنجاة أخيه، وكان النوتية قد توافدوا ورحبوا بهما، وعندئذ أمرهما الريس جابر بالتوجه دون ابطاء إلى أم الخير، فودعاه وسارا غرباً إلى قرية تلة، وكلما حاولا الاسراع في المشي فشلا بسبب تورم أقدامهما، وقال الشاطر:

ـ أحلم بأكلة ساخنة ثم أنام أسبوعاً لا أصحو إلا للأكل .

وكانت أم الخير منهمكة في تغيير ملابس مسرور أصغر أحفادها من مرسي ومبروكة، وبعد أن غيرت له أخذته خارج الدار للتشمس، وما أن جلست على حافة القناة الصغيرة حتى شعرت بقلبها يرجف، نظرت إلى البط الصغير يسبح من حول أمه فزادت رجفة قلبها، أحست به

يحدثها بأن تلتفت إلى أطراف القرية، فالتفتت ورأت شابين صغيرين قادمين من طريق المنيا، وبسيرهما عرج واضح، وواحد منهما يتلفت متأملاً الغيطان وجميع ما حوله، دققت النظر ثم هبت واقفة جامدة وهما يقتربان منها حتى أصبح يقيناً أن أحدهما هو حتحوت ولدها الذي رآها فسبق صاحبه ونسي تورم قدميه وجرى نحوها، وأرادت أن تجري نحوه، لكن الفرحة منعتها، فجمدت تمتع أنظارها به وهو يقترب ويدنو إلى أن أحست به في حضنها. . ثم رحبت بصاحبه الذي شعر بمحبة عظيمة نحوها، ولما سأله حتحوت بعد ساعتين عن شعوره قال:

ـ وكأن الله رزقني بأم جديدة.

وعندما رأى سنبلة وجدها جميلة بعينين آسرتين مثل عيني أم الخير، فخفق قلبه محبة، ثم جاءت زهرة ابنة مرسي فاحتارت عواطفه بينها وبين سنبلة، واندهش بسبب أنها تكبر عمتها سنبلة بحول كامل. وعندما رحب به رب الدار رضوان راحت غربته تماماً وشعر أنه في بيته، وبينما أم الخير تطبخ لهما بنفسها بطة مسمنة سرح حالماً بأنه سيستقر هنا ويصاهر صاحبه حتحوت وتصبح هذه القرية وطنه، فجلس يأكل من غير تكلف وهو يكاد يحسد نفسه على لذة الطعام الذي لم يستطعم مثله من قبل، وكان يريد أن يستمر في الأكل طويلاً لولا أن النوم كان غلاباً فتوقف وتثاءب، وبعد الغروب بقليل نام وحتحوت وهما جالسان بين أفراد العائلة . .

قرب الظهر التالي استيقظا وتغديا، وتوافد الزوار للتهنئة بالسلامة، ومن جملتهم فتى اسمه أمين بالغ في الترحيب بحتحوت، وما أن رأته سنبلة حتى احمر وجهها خجلاً وفرحة، وجاء الآخرون

ومضوا وأمين هذا جالس وكأنه من أفراد الأسرة، فشعر حتحوت أن وراءه ما وراءه، وسرعان ما عرف أنه كان قد طلب يد أخته سنبلة من أبيه وأمه فوافقا على شرط ألا يتم أي شيء إلا بعودته سالماً، وداعبه أمين قائلاً:

- وهكذا عذبت قلبي بطول غربتك.

ثم أنه بعد أن اطمأن إلى قرب زواجه نهض منصرفاً، فالتفت الشاطر إلى حتحوت في حياء وهمس بصوت متهدج:

- الآن زالت حيرتي، ستكون زهرة من نصيبي، اسمها زهرة وهي أجمل من كل الزهور، ما رأيك؟؟

فضحك حتحوت ثم قال:

- مرحباً بك، لكن زهرة لها أب اسمه مرسي.

وكانت زهرة قد تأملت طلعته البهية فوقعت محبته في قلبها.. وقالت أمها لحتحوت:

- كان مرسي ينوي البقاء في زيارته الأخيرة لكن أمك صرفته في اليوم التالي ليبحث عنك، ولعله دائخ عليك الآن في مدينة مصر، قلبي معه.

فحزن حتحوت لحسرتها ولام والدته، ولم ينم ليلتها جيداً وبقي يفكر، فلما كان الصباح أخبر صاحبه بأنه قرر الذهاب في أثر مرسي ليعود به، فتنهد الشاطر وهرش في شعره ثم قال بعد تفكير:

- وليكن ما يكون، من مصلحتي عودته كي يصبح حمايا.

ومن عجيب التوافق أن أم الخير في هذه اللحظة كانت تفكر في نبوءة الغجرية القديمة، أن يتغرب حتحوت شمالاً ليرى المعامع ثم جنوباً بين الكواسر والزواحف والبرمائيات ، فلما جاءها يخبرها بعزمه وهو خائف من رفضها، فوجىء بها تشرب بلعة ماء ولا تنطق وتهز رأسها أعلى وأسفل لعدة لحظات ظنها دهوراً، ثم نهضت تذبح أربعة ديوك كجزء من زاد الطريق له ولصاحبه.

وفي الطريق إلى بحر المنيا قال للشاطر:

ـ تظن أمي ومبروكة أن مرسي في مدينة مصر بينما هو في الصعيد مع جيش مراد بك!

ثم أنهما التقيا والريس جابر الذي لم تعجبه الفكرة، لكنه ملأ المركب بعد أيام ببضائع كثيرة مطلوب تسليمها لتجار أسيوط وجرجا وقنا، وقال لهما:

ـ منها رحلة عمل ورحلة بحث عن مرسي، وفقكما الله.

وأقلعت المركب مفرودة الشراع تدفعها ريح الشمال إلى الجنوب . .

أما ما كان من أمر مرسي فلقد ظل ملازماً لجيش الغز، لا يستقرون في مكان، كلما اقترب ديزه بجيشه هربوا جنوباً وظلوا يوغلون في الصعيد، وكان قد مل عشرة الغز ومراد بك وطريقته في محاربة الفرنسيس بالهرب الدائم، لذا لم يصدق أذنه عندما سمعه يعلن بأنه أخيراً سيلاقي ديزه قرب جرجا وبأنه سوف يقضي عليه تماماً بعد أن أنهكه بجره من ورائه هذه المسافة الطويلة، وفرح مرسي على

أمل أن ينتهي من كل هذا . . ثم أنهم عسكروا في بلدة «سمهود» جنوب جرجا التي وصلها ديزه وبقي فيها ينتظر الإمداد القادم بالنهر.

والذي أدهش مرسي من أمر مراد بك مهارته في الحصول على الامدادات بشكل لا ينتهي، رآه ينهب القرى ثم يقنع الفلاحين أنه يفعل هذا من أجل السلطان الرومي في اسطنبول، وقبل أن يتركهم يقنعهم بأن الجيش الفرنسي قد تضاءل ولم يعد ذا شأن ولا تصله الامدادات بسبب أنه صار معزولاً عن مدينة مصر، وأن بإمكان الفلاحين القضاء عليه، وأنه كرماً منه ومحبة يترك لهم جميع الأسلاب التي يأخذونها من الفرنسيس غنيمة صافية حلالاً لهم. ثم يقف عن قرب يتفرج على مقاومتهم لدفع الميري مرة أخرى إلى الفرنسيس فيقوم الاقتتال، ويظل يراقبهم وهم يذبحون قائلاً لأعوانه أن مقتل فرنسي واحد مقابل سبعين أو ثمانين منهم يعتبر مغنماً له. وكم كرهه مرسي كلما رآه لا يخف لنجدتهم، وأدرك أن غلظته زائدة ولا يزيد عليها إلا طيبة الفلاحين، ومن المؤكد أن مطارده الفرنساوي لا قلب له.

وكان مراد بك قد نجح في الحصول على مساعدات أمراء الغز في أقصى جنوب الصعيد، ثم انضم إليه ألفان بالتمام والكمال من عسكر الانكشارية، وكانوا عائدين من الحج بمكة، فعبروا البحر الأحمر ونزلوا مدينة القصير، ثم أسرعوا إلى وادي النيل متلهفين على مقاتلة الفرنسيس من غير أن يكونوا على دراية بطريقتهم في النزال ومربعاتهم وكرهم وفرهم، وبانضمامهم صار جيش مراد جيشاً عرمرماً.

كل هذا بينما ديزه ينتظر الامدادات في جرجا، وبدلاً من أن يسارع مراد بك ويهاجم قبل وصولها قبع في مكانه بخيمته الفاخرة، بينما ديزه في

غاية من الغيظ، ومعه ضباطه، والرسام دينون يمشي ومن ورائه ادريس بالأوراق واقلام الرصاص مستمتعاً برسم آثار الفراعين حيثما وجدت، فما أن وصلت الامدادات حتى قال له ديزه:

- مراد على بعد يومين، نذهب وننتهي منه وبعدها لن يشغلنا سوى هذه الآثار، وسأعاونك على تسجيلها..

ثم أن الفرنسيس انطلقوا إلى سمهود لملاقاة مراد بك، وواجه كل جيش الآخر، الفرنسيس بملابسهم الخشنة وبنادقهم وسنابكهم ومدافعهم فوق العجلات، والغز والشراكسة بملابسهم المزركشة البراقة، ودخل العقل في حرب مع الذهب وكون ديزه مربعين ميمنة وميسرة وضع فرسانه في القلب على شكل مربع ثالث تحميهم المدفعية، وقامت الحرب وحمت الوقائع ونشب الاقتتال وتعالى الغبار والصياح وانفجار البارود وصليل السيوف، إلى أن انهزم مراد وفرّ إلى أسوان، فمر بطريقه على آثار دندرة والأقصر التي لا يعرف أحد سرها من غير التفاتة واحدة[1].

بينما انهمك عساكر الفرنسيس يفرزون جثث القتلى، آخذين بلطة أو صرة حريرية تضم نقوداً ذهبية، أو تميمة لم تفلح في حماية صاحبها من القتل، وهجموا أول ما هجموا على جثث البكوات وقد عرفوا أنهم يتميزون عن المماليك العاديين بلحاهم.

وخاب ظن إدريس عندما حسب أن أوان الراحة قد حان، إذ انطلق

(١) معركة سمهود ٢٢ يناير ١٧٩٩.. وكان جيش مراد مكوناً من ٣٠٠٠ مشاة و ٧٠٠٠ فارس من الصعيد و ٢٠٠٠ من الانكشارية و ٢٠٠٠ مملوكي. بينما تكون جيش ديزيه من ٣٠٠٠ مشاة و ١٠٠٠ خيالة فقط.

ديزه إلى دندرة ، وعندما وقف للراحة نزل عسكره يستحمون إلى جوار الشاطىء وعن قربهم تماسيح ، ثم نهضوا يتابعون المسير حتى وصلوا إلى منحنى للنهر وقفوا بعده مأخوذين أمام العواميد الهائلة والبنايات الشاهقة ، وإذا بدنون يطلب كالمجنون من إدريس أوراقاً وأقلاماً وينهمك في رسم الآثار، بينما وقف الجنود يصفقون لهذه البدائع ، ومن شدة انبهارهم اصطفوا في طوابيرهم المعروفة ومن غير أن يأمرهم أحد ثم راحوا يأدون التحية العسكرية على قرع الطبول وعزف الموسيقى[1] .

اندهش إدريس ، لكنه التفت إلى دنون فوجده يرسم جميع ما يرى ، ثم عاد يرسم مسلة ضخمة وأحد الجنود يسند له اللوحة وآخرون وقفوا عن قربه يظللونه من أشعة الشمس، فظل يرسم وهو يردد كالمهووس بعبارات لم يفهمها ادريس[2] .

ثم جاءه ديزه فركب جواداً وسار إلى جواره ليطوفا وسط الأطلال ، فإذا بسكان الكهوف المجاورة يهاجمونهما بوابل من الحجارة ، وجرى السلطان الصغير هارباً بحياته وفي أعقابه دنون يصيح بأنهم عفاريت الكنز المرصود !

ثم إن ديزه أخذ جيشه وسار إلى اسنا وكان مراد قد غادرها قبله بنصف يوم . . أما دنون فقد نام في أرمنت ومعه إدريس في المعبد الذي

---

(١) المعبد هو معبد الكرنك أضخم الآثار الباقية على وجه الأرض بعد الأهرامات، وكان ذلك صبيحة ٢٧ يناير ١٧٩٩ بالأقصر (طيبة) .

(٢) هذه المسلة الآن مقامة في ميدان الكونكورد بباريس . وكان من رأي دينون أن المعمار الفرعوني يشكل الفن في قمته وليس في مهده .

به رسومات الذئب[1] . . وعند الفجر رسم هذا الذئب ثم مضى يلحق بالجيش إلى اسنا ثم ادفو ثم أسوان ، وكانت فلول الغز قد غادر وها منذ يومين إلى ما وراء الشلال في براري السودان الشاسعة ، فما كان من العسكر إلا أن قعدوا على الأرض بالقروح في أقدامهم جميعاً وبآلام البطن وأوجاع العين . يتأملون بعيون كليلة الصحراء الشاسعة الممتدة إلى أقصى الغرب والجنادل تعترض مجرى النهر جنوباً بصخور وعرة ، وفي الشرق جزيرة الفنتين وكأنها الجنة بخضرتها ونخيلها[2] .

وكانت فرحة إدريس كبيرة ، أخيراً الراحة ، نهاية الصعيد وبعد ذلك السودان وطنه ، وهناك على بعد بعيد توجد قريته في الكردفان ، ودمعت عيناه ، ثم جلس يفكر في الهروب . . ومثله فرحت سارة الحبشية وزادت سعادتها عندما وجدت ديزه رائق البال بالليل فأخذته في حضنها وداعبت شعره مثل الطفل ، وهو يمرغ أنفه بين نهديها المتماسكين ويتكلم بلسان أهله ، وحدست أنه يتغزل في حسنها فأمتعته واستمتعت . .

لكن الراحة لم تدم إلا إلى اليوم التالي ، إذ أخذهم ديزه وكر عائداً شمالاً تاركاً حامية على رأسها رجل اسمه بليار ، وكان من حسن حظ ادريس أن وقف يلوح لهم مودعاً بعد أن اختار دنون البقاء في أسوان ضمن الحامية ، وما أن استراح أفراد الحامية حتى أحسوا بالملل

---

(١) الاله الفرعوني أنوبيس ، وحتى ذلك الوقت لم تكن اللغة الهيروغليفية قد حلت رموزها بعد ، لأن حجر رشيد اكتشف بعد ذلك واستغرق حل شفرته حوالي الثلاثين عام بمجهودات العالم شمبليون وغيره .

(٢) في هذه الأثناء كان نابليون قد خرج في حملته على الشام يوم ١٠ فبراير ١٧٩٩ .

فأنشاوا المقاهي وشربوا جعة البلح من صنع أهل الصعيذ، وصنعوا أوراق اللعب وانغمسوا يقامرون على ما غنموه من أسلاب المعارك ثم على رواتبهم، وفي الليل يكون السكون التام وصوت الصمت الرهيب إلا من أصوات التنفس، ومنذ الفجر تطير من فوقهم أسراب الحدأ وصغار النسور، التي كانت بدلاً من الهرب تتجمع على أصوات القتال انتظاراً لوجبة ما بعد المعركة!!

لكن ادريس لم يفهم أفعال بليار كبير اسوان، ذلك أنه ذهب إلى جزيرة الفنتين بالحاح من دنون لرسم الآثارات هناك، فإذا بصيحات الأهالي تحذرهم من الاقتراب، والنسوة يحثون الرجال على القتال فيلقون الطوب والحراب، والرجال في عرى كامل والنساء بقطع تتدلى إلى ما فوق الركب، فتراجع بليار ثم أخذ في صنع عوامات لنقل العسكر وهاجم الجزيرة بالرصاص، فإذا بالرجال والنساء يخوضون الماء ويقاتلون حتى الغرق، والنساء يغرقن بناتهن حتى لا يأسرهن الفرنجة، واستمر الصراع وشهقات الغرقى مدة لم تطل، ثم عثر دنون على فتاة في السابعة من عمرها جفلت منه، فتقدم ادريس يلاطفها فاستكانت، لكنها في الصباح كانت تبكي وجسدها يرتجف فعرضوها على طبيب، فإذا به يخرج محتاراً في غير فهم، وكانت أم الفتاة قد خاطت شفرتي فرجها ضماناً لعفتها ولكنها بالغت في الحذر فمنعتها الخياطة من قضاء حاجتها، رغم ذلك فقد سباها دنون وأخذها جارية له[1].

---

(١) يقال أن دينون قد تبنى هذه الفتاة وأخذها معه، وهو الذي أصبح بعد ذلك أول مدير لمتحف اللوفر، وأنشأ به جناح العاديات المصرية، واحتلال الجزيرة تم في ٢١ فبراير.

لكن الذي غاظ ادريس أن بليار بعد أن استولى على الجزيرة وقتل من قتل تركها ولم يعد إليها ثانية، وكأن كل غرضه أن يرسم دنون ما بها من حيطان عتيقة . . ولما عرف بعد عدة أيام من جواسيسه أن مراد بك صار يعاني من نقص الغلال وراء الشلال قام بحرق قمح أهالي أسوان أمام أعين زارعيه، فما كان من الشمس إلا أن سلطت حرارتها على أدمغة عسكره وقتلت ثلاثة منهم بضربة الشمس، شعر كل واحد بغتة باضطرابات في دقات قلبه أعقبه إغماء فالاغماء الأبدي!

أما عن الريس مرسي فقد حمل غيظه بداخله من سمهود إلى أسوان إلى ما وراء الشلال، ومراد بك لا يقودهم إلا إلى الفرار أو الهزيمة السريعة فهجره عدد كبير من أتباعه، وقرر مرسي العودة إلى أهله، وقبل أن يهرب كانت مؤن الطعام قد نفدت، ولما لم يجد مراد المزيد ينهبه من الأهالي وعرف أن بليار أحرق قمح أسوان قرر العودة إلى أسيوط عن طريق الصحراء الغربية، بقصد أن يلتف ويقطع طريق العودة على ديزه ويحرمه من امدادات بونابرته . لكن ديزه المكار كانت له عيون في كل مكان، فعرف أن مراد بك يجتاز الصحراء بالجمال، يسير ليلاً بإرشاد النجوم وينام نهاراً تحت الخيام، وكان قريباً من قنا، فأخذ مشاته وفرسانه وسارة وسارع براً إلى أسيوط تاركاً أسطوله يتبعه على مهل، وجميع ذلك كي تنقضي آجال نوتية هذه السفن، فتشاء عجائب الاتفاق أن يصل إلى شط النيل ألفان من عسكر الانكشارية القادمين من مكة عبر البحر ثم الصحراء، نزلوا ليرتووا من النهر المبارك فشاهدوا الأسطول يتهادى بطيئاً مثل البط فوق المياه، تتوسطه السفينة الكبيرة ايتاليا مثقلة بالذخائر وبحارتها المائتين إلى جانب ثلاثمائة من الجرحى

وعميان الرق، وفرقة موسيقى جيش ديزه التي كانت تحث الجنود وتحمسهم. ورأى الانكشارية أهالي الصعيد يتحينون الفرصة للانقضاض على الأسطول، فاستقلوا القوارب معهم وجدفوا صوب الفرنسيس، وانهال الرصاص من الجانبين فماتت أعداد غفيرة وغرقت قوارب عديدة، لكن الانكشارية واصلوا الهجوم واستولوا على صنادل صغيرة اقتربوا بها من ايتاليا، وداروا من حولها وناوشوا وناوروا ثم اندفعوا صاعدين إليها رغم وابل الرصاص، فلما يئس ربانها ورآها تجنح إلى الشاطىء حيث مئات الأهالي هناك أمر باخلائها واحراقها، وبمجرد أن أمر بذلك صرعته أكثر من عشرة طلقات، وقبل أن تفارقه الروح أشعل النار في مستودع البارود بينما رجاله يقفزون إلى الماء، فانفجر البارود ونسف السفينة وجميع ما حولها وعدداً كبيراً من الطرفين. ثم انتهى القتال بوقوع باقي الفرنسيس في أسر الانكشارية، فأخذوهم إلى الشاطىء وأجبروا الموسيقيين على عزف مارشاتهم، وعلى نغماتها راحوا يتشفون بقتل الأسرى ثم العميان والجرحى ثم فرقة الموسيقى ذاتها[1].

وما أن علم بليار بهذه النازلة حتى أخذ حاميته وعبر بحر النيل ومعه دنون وادريس الكردفاني، وتوجه إلى ملاقاة جيش الانكشارية، ويوم اختبار الرجال قابلهم وهو يعلم أنهم أقوياء بواسل في حوزتهم المدافع

---

(١) ٣ مارس ١٧٩٩ وكانت السفينة ايتاليا سفينة نابليون الخاصة بالقاهرة، وكان قد بدأ حملته على الشام ويحاصر عكا عندما عرف بغرقها فحزن وقال: «إن فرنسا قد فقدت إيطاليا، أن شعوري لا يكذب» يقصد ايطاليا الدولة والتي كان قد فتحها قبل حملته على مصر وكان فتحها سبباً في ذيوع صيته، والمعروف أن حملته على الشام فشلت عند أسوار عكا فارتد.

الثقال التي غنموها من السفينة ايتاليا، بينما هو يمتلك مدفعاً واحداً خفيفاً، لكنه تقدم في مربعهم المحكوم بنظامهم المرسوم، وحدث التراشق فوقعت الفوضى في صفوف الانكشارية الأقوياء وتساقط منهم الكثير، وبعد كر وفر ذابت حماستهم الزائدة وتقهقروا يحتمون بالفلاحين من أهالي أبنود، ثم انحسروا في بيت أحد المماليك يقاومون في بسالة حتى هبوط الليل، وتناثرت في حوش الدار جثثهم، والفرنسيس يضغطون وقد فقدوا العشرات، وكادت الذخيرة تنفد من محاربي البيت المملوكي فنقبوا جداراً ليهربوا فتلقفتهم الرصاصات الفرنساوية، وعند الفجر كانوا جميعاً قد قتلوا عدا ثلاثة من أهل تونس أسروهم للاستجواب والتقرير[1].

كل هذا يحدث في الوادي بينما مرسي يتحرك خلف مراد بك يسابقون الريح في الصحراء الغربية، ومن فوقهم الشمس الحامية ومن تحتهم الرمال الساخنة، وبالليل البرودة القاسية، حتى قطعوا من الأميال ثلثمائة والقصد قطع الطريق على ديزه الماكر، فإذا بهم يجدوه في انتظارهم يقطع عليهم الرجاء والأمل، . فما كان من مراد بك إلا أن لجأ إلى خيبته المتأصلة فوضع الأهالي بينه وبين الفرنسيس ثم لاذ بالفرار صوب الواحات الخارجة في عمق الصحراء، فكانت هذه آخر علاقة له بالريس مرسي الذي جعل وجه فرسه صوب الشمال وسار قاصداً أسرته، يسير الليالي وينام النهارات محاذياً لبحر يوسف، يأكل القليل ويرتوي من مياه الترعة الآتية من النيل المبارك.

---

(١) ٨ مارس ١٧٩٩ ويقال أن الانكشارية زاد عددهم عن الألفين ومعهم ٣٥٠ مملوكي.

- ١٩ -

وذات نهار كان الأطفال يلعبون أمام بيت أم الخير فإذا بغبرة صغيرة تأتي على مهل من عند الغرب ، ما أن اقتربت ووصلت أمام الدار حتى أنهار فارسها هابطاً ليدخل الدار ولتأخذه أم الخير بالأحضان، ولتفرح به زوجته مبروكة . . وبعد أن أكل وشبع نام طويلاً، وبعد أن استراح قام ليعرف أن جواده الأصيل مات من التعب، وليتعجب من تصاريف القدر إذ يذهب هو فيجيء أخوه، يذهب حتحوت فيأتي هو!

أما حتحوت فما أن وصل بالمركب إلى أسيوط حتى راح يسلم البضائع الخاصة بتجارها، وفي نفس الوقت يتقصى مع الشاطر أخبار مراد بك لأنه إن عثر عليه عثر على أخيه ، فعلما أنه غادرها منذ حين إلى جهة قنا، فعادا إلى المركب وأقلعوا جنوباً حتى وصلوا جرجا، وبعد أيام رحلوا إلى قنا فعلموا أن مراد بك ذهب إلى أسوان ، فعزم حتحوت على الرحيل إليها لكن بحارته عصوه وأعلن أكبرهم سناً أنهم لا بد وأن يرجعوا إلى مدينة المنيا بعد أن سلموا جميع البضائع وأنهم لن يكرروا غلطة مدينة مصر أيام حرب أمبابة ، وأن هذه هي تعليمات الريس جابر لهم ، فجلس حتحوت يفكر ويدبر، وقبل أن يتخذ قراره سمع عن معركة

النيل الكبرى التي احترقت فيها مركب بونابرته المسماة ايتاليا، وعن هزيمة الانكشارية في أبنود، فظن أن مراد بك قد عاد إلى قنا، ولهذا أمر النوتية بالعودة إلى المنيا من غيره، فارتحلوا وذهب هو إلى المدينة وبصحبته الشاطر الذي سايره من غير اقتناع، لكن حتحوت قال له :

- مرسي هنا، وسنقابله ونعود بعد أيام .

لكنهما بدلاً من ملاقاة مرسي قابلاً جيش بليار وكان معه دنون وصاحبهما ادريس الكردفاني، وكان هو الذي رآهما يحومان قرب المعسكر، فانتعشت ملامحه السمراء واتسعت بسمته وتسلل وراءهما حتى لحق بهما، ففرحا به واحتضناه وبعد حديث وحكايات أخبرهما بأنه أخيراً قرر الهرب من دنون والرحيل معهما، واتفقا على مكان يلتقيان به بعد حلول الظلام، ثم عاد إلى المعسكر وهناك جمع كل ما يمكن حمله من الأدوات الفرنسية ذات الأعاجيب والحيل الصناعية، ثم أخذ بعض البارود وقوارير الدواء الشافي وتسلل إلى صاحبيه، بينما دنون يغط في النوم بين أوراقه وأقلامه !

وعلى الفور يمم الثلاثة وجوههم صوب أسوان على أمل لقاء الريس مرسي، وكان ادريس يظن أن الغز ما زالوا وراء الشلال بعد أسوان، ولم يكن يعرف أنهم ارتحلوا إلى أسيوط عبر الصحراء الغربية ثم إلى الواحات الخارجة .

أما عن مرسي فقد توقع أن تأمره أم الخير بالخروج من جديد لاحضار حتحوت ، لكنه وجدها هادئة قريرة العينين وليس بداخلها أدنى قلق على ولدها الغائب، بل على العكس قالت في ارتياح :

ـ ها هو يتغرب جنوباً.

فاطمأن باله وراح يلاعب ابنته زهرة وأولاده منصور ومندور ومسرور، وينتظر لحظات الإختلاء بزوجته مبروكة الصابرة. لكنه بعد أيام وجد حالة القرية في كرب شديد وفقر مميت، بعد أن تعلم الفرنسيس فنون السلب وصاروا مثل الغز المماليك على دراية بجميع حيل الأهالي في المراوغة، فعصروا القرية حتى آخر نصف فضة بحيث طفش العديد وهجروا زراعاتهم ونزحوا إلى مدينة المنيا يتسولون، ومرسي يتمنى مساعدتهم لكن العين بصيرة واليد قصيرة..

ثم إن نفسه ضاقت بالقعود وبمشاهد البؤس والركود وتاقت إلى الترحال وحنت إلى التجوال، فأخذ الحمارة السريعة ونزل بها إلى مدينة المنيا يزور عمه الريس جابر ويطمئن على مركبه، وبعد السلام والتحيات دار الحديث عن سوء الأحوال فنصحه جابر بالصبر على الأهوال، فلعن مرسي مراد بك بأفظع اللعنات وقال:

ـ لولاه ما حدث ما كان، غبي لا يصمد ولا يفكر، لا علاقة له بفنون الحرب، أرعن دائم الفرار.. لقد خبرته عن قرب، يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش، لم أعهد فيه أنه انتصر في حرب باشرها، على ما فيه من ادعاء وغرور وخيلاء وظلم، أسد علينا وفي الحروب نعامة، يأخذ الشيء من مستحقه ويعطيه لغير مستحقه، ويحظى بالمكاسب عنده كل غشوم عسوف ظلوم!

ترك حمارته وسار يتمشى وحيداً بلا هدف، فرأى الهاربين من قريته وقد صاروا شحاتين بعد أن كانوا فلاحين، بعد أن عجزوا عن دفع

الأموال للفرنسيس مرة وللغز الفارين من الحرب مرة أخرى . . وظل هائماً في الطرقات يعاينها ويدرس أزقتها ومداخلها ومخارجها، ثم اقترب من سور المدينة ومر على بواباته وعلى بيت الكاشف الذي صار يقطنه قائد حامية الفرنسيس واسمه ترس[1] . . ولأمر ما لاحظ أن عدد العسكر قليل فأدهشه ذلك، وعاد إلى المرفأ وأخذ حمارته عائداً إلى قريته تلة، وبينما هو في الطريق جاءته فكرة أن يحارب قوة الفرنسيس المتمركزة في المنيا، والسبب في هذه الفكرة أنه أثناء عمله مع مراد بك لمس جهله بفنون القتال والعراك ورآه يقع في أخطاء فظيعة، بحيث أنه تمنى في كل مرة أن يكون مكانه يقود جيشه إلى الفوز . .

وظلت هذه الفكرة تشغله حتى وهو يلاعب أطفاله، وتمنى لو نازل الفرنسي «ترس» . . لكنه صرف الفكرة عن ذهنه إلى أن أتى يوم موعود وفي كتاب الغيب مرصود، عندما ظهرت غبرة الشؤم بالصراف والعسكر الفرنساوي يطلبون مزيداً من الأموال، وكان هذا ضرباً من المحال بسبب افلاس جميع الرجال . . وعندئذ استيقظت بداخله الفكرة النائمة، وراح يحرض الناس على نزال عسكر الفرنسيس الهائمة، وكان الأهالي يعرفون ذكاءه وحنكته، وهو الذي أنقذهم من براثن الغزى مراد بك، فالتفوا من حوله وقتلوا الصراف والعسكر الفرنسيس وكانوا خمسة، ثم كف الهاربون عن التسول وجاءوا وانضموا وظهرت الأسلحة المخبوءة، بحيث تجمع ما يقرب من الاربعمائة، وبعث

(١) واضح أن المقصود «ديترس» وكان قائداً لحامية المنيا التي خصصت للمدينة بعد تكرار خروجها عن طاعة الفرنسيس .

مرسي برسول إلى شيخ البلد لمدينة المنيا طالباً نصرته، لكن قائد الحامية ترس الداهية أخذ علماً، فترك فصيلة صغيرة بالمدينة وقصد إلى القرية، وما أن اقترب حتى برز له الفلاحون من كل مكمن، فعمل مربعاً وسلط مدافعه، وكان مرسي يتوقع ذلك فاستمر القتال أربع ساعات.

ولم يفر مرسي مثلما يفعل مراد بك، وإنما ناوش وهاجم من كل اتجاه حتى اضطر الفرنسيس إلى الانسحاب هلعاً والأهالي يتعقبونهم، إلا أن ترس سبقهم وتحصن خلف أسوار المدينة، وكان الليل قد أقبل بظلامه..

ومع الفجر جعل عسكره يتسللون إلى مواقع منيعة خارج السور تحميهم المقابر والغيطان الموحلة، وأوقف رماته خلف أكمة عالية.. وهاجم الأهالي وقد زادوا عدداً بانضمام القرى المجاورة، فدافع الفرنسيس عن أنفسهم لمدة ساعتين زمنيتين ثم كانت الخيبة من نصيبهم فانسحبوا إلى داخل المدينة، فلم يمهلهم مرسي الهمام، وقبل أن يغلقوا أبواب السور أمر رجاله بالاقتحام فدخلوا إلى كل صوب وملأوا الشوارع، وترس اللعين يطلق عليهم النيران بحيث أنه قتل منهم خمسين فتراجعوا من قبيل المناورة وجمع الشمل.

ثم كان اليوم الثالث، ودارت حما المعارك، وكاد النصر يكلل مرسي ورجاله لولا وصول نجدة كبيرة انقذت ترس اللعين وعسكره من موت محقق.. وعرف الريس مرسي مكمن الضعف، فلولا النجدة لانتصر، ولو أن جميع القرى هبت في وقت واحد لما تمكن الفرنسيس من نجدة بعضهم البعض!!

ثم أن الغل وحب التشفي دفعاً ترس اللعين إلى محاصرة قرية تلة، ودام القتال من دار إلى دار حتى أضنى التعب الفرنسيس وخنقهم الحر، وتحصن الأهالي بالمضيفة الكبيرة ودام القتال ست ساعات أخرى فقد فيها ترس ستين من رجاله عدا الجرحى، ولم يرحمه إلا مجيء الليل بظلامه، ثم استؤنف القتال عند الفجر، واقتحم الفرنسيس سور المضيفة وشقوا طريقهم إلى الحوش، وجاء ليل جديد بظلامه والمقاومة مستمرة حتى تناثرت الجثث في الحوش وانفض القتال في هدنة أخيرة . .

وبالليل نجح الأهالي في نقب الجدار الخلفي وهربوا، ومن جملتهم مرسي الهمام ووالده رضوان، فاغتاظ الفرنسيس في الصباح وأحرقوا القرية جميعها، فاحترق معها ثلاثة من كبار السن، ومات سبعة في فوضى الهرب من النيران العاتية من بينهم الطفل مسرور أصغر أبناء مرسي ومبروكة، وبعد انقضاء الحريق أخذ الفرنسيس رؤوس العائلات وشيخ القرية رهينة لديهم بالمنيا لضمان عدم تجدد الوقائع [1].

أما أم الخير ومبروكة ونساء القرية فكانت مهمتهن مد الرجال بالطعام والماء وتطبيب جراح المصابين بكبسها بالبن أو بطمي النيل المبارك، وساعة الحريق أخذت كل أم أطفالها، ونجت أسرة رضوان جميعها عدا مسرور المسكين، وبينما جلست أمه مبروكة تنوح في العراء انهمكت أم الخير في خدمة الجميع، كل ذلك وجميع النسوة تولول والقرية تحترق

---

(١) ثورة المنيا وقد بدأت حسب تاريخ الرافعي يوم ٢٣ ابريل ١٧٩٩ .

طوال الليل بنيران مسعورة، فكانت ليلة شنيعة تلاها صباح كله تشريد وفجيعة!

بعد ذلك أفاقوا من هول الصدمة، ودفعهم البرد إلى إعادة بناء البيوت بالطين والبوص والجريد، فكانت في بداية أمرها أشبه بالأكواخ والعشش، إلى أن جاء من يحذر مرسي الهمام بأن ترس اللعين عرف من جواسيسه بأنه وراء هذه الحرب، فما كان منه إلا أن أخذ أسرته جميعها وارتحل قاصداً الغرب، لكن أصول التخفي جعلت الطريق ينحرف به ما بين الغرب والجنوب، وكانت ارادة الواحد القهار أن يستقر عند أطراف قرية في غرب مدينة ملوى هي الأشمونين، وهي التي قال عنها الريس جابر أن بناة الأهرامات العجيبة جاءوا منها، وكان ذلك أثناء رحلة مرسي الأولى إلى مدينة مصر ومروره لأول مرة في حياته أمام الجيزة.

هذا ما كان من أمر رضوان ومرسي والأسرة الكريمة وما كان من أمر مراد بك مع السلطان الصغير ديزه الذي ظن أنه نال مأربه.. أما ما كان من شأن السلطان الكبير بونابرته فهو قبل حريق تلة المشؤوم بحوالي الشهرين والنصف كان قد اختار خيرة عساكره وتوجه بهم قاصداً احتلال فلسطين والشام من أجل التوغل إلى اسطنبول ذاتها وكسر شوكة السلطان الرومي واذلاله في عقر داره، وكانت قد سبقته الفرق لتمهد السكة أمامه[1].. فاحتلوا العريش وغزة ثم يافا التي كان لها ثلاثة

(١) حملة الشام ١٠ فبراير ١٧٩٩ وتكونت من ١٣ ألف جندي وبعض الحريم لضباطه، ومدام فوريه تلك المرأة التي أخذها من زوجها الضابط فوريه وأسماها معاونوه كليوبترا.

آلاف عسكري عثماني قتلهم جميعاً رغم استسلامهم له وكان بها من المصريين أربعمائة منهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف الهارب، فلم يتعرض لهم بسوء وأعادهم إلى مصر، ثم زحف شمالاً حتى حيفا فأخذها وتوجه لحصار عكا، لوقتها تحالف ضده الانجليز مع الأتراك والأهالي وواحد من أبناء جلدته كان تلميذاً معه في مدرسة الحرب وكرهه منذ الصبا[1].

وظل بونابرته يحاربهم جميعاً والطاعون يفتك بعسكره حتى سلم بفشله وكر عائداً بأذيال الخيبة بعد أن فقد الكثير، ودخل مدينة مصر من باب النصر، ولمداراة نكبته جعل الطبول تقرع والزينات تقام، وظل موكب عسكره يسير في الشوارع خمس ساعات متوالية، بعد أن أمر بأن تدخل الجند المدينة من باب وتخرج من باب آخر ثم تعود وتدخل ثانية من الباب الأول[2]!

لكنه في الليل كان يجلس حزيناً مهموماً لا يستجيب لاغراءات زوجة

---

(١) هو فليبو الذي حارب مع الملكية ضد الجمهورية في فرنسا بحكم نشأته الارستقراطية على عكس نابليون. . وقد ساعد الجنرال والي عكا في تحصين المدينة بحيث صارت قلعة منيعة هدمت أحلام نابليون. . أما قائد أسطول الانجليز فكان سيدني سميث وهو غير الكاتب الذي يحمل نفس الاسم.

(٢) فقد نابليون في حملة الشام خمسة آلاف ما بين قتيل حرب وصريع وباء وجريح باصابة قاتلة، ومن بينهم الجنرال كفاريللي الذي كان بساق خشبية فأسماه العامة «أبو رجل خشب» ثم قلبوا اسمه إلى «اللي كفر» والذي فقد أحد ذراعيه ثم مات بالطاعون. . وكذلك فنتور الذي قال عنه الجبرتي بأنه ترجمان ساري عسكر (أي نابليون) وكان ليبيا متبحراً يعرف التركية والعربية والطليانية والفرنسية، ودخل نابليون القاهرة ببقايا جنده في ١٤ يونيو ١٧٩٩ بعد أن وزع جرحاه على أماكن متفرقة بعيدة عن أعين القاهريين.

الضابط الخائنة كليوبطرا، لأنه يعرف الحقيقة التي أخفاها عن الناس، ويفكر في «طريقة يستعيض بها الجنود الذين ماتوا بينما هو في حالة انقطاع عن بلده»، لذلك جلس وكتب رسالة إلى ديزه يأمره بشراء مئات الزنوج الذين لا تزيد أعمارهم على السادسة عشرة لتجنيدهم، ولأن ديزه تعجب فقد أخبر من حوله وفشا الخبر في معسكر الصعيد بحيث عرفه دنون الرسام والضباط والعبيد والجواري وسارة الحبشية واسماعيل المملوكي وباقل الغلام الأسود، واغتاظ ادريس وأدرك أنه ما أن يبلغ السادسة عشرة حتى يجندوه ويجعلوه يقتل المصريين، وعندئذ تخلى عن تردده وقرر الهرب بمجرد أن يجد الفرصة سانحة إلى أن فر مع حتحوت والشاطر[1].

وبعد شهر لا يزيد ولا ينقص نقل السلطان الكبير بونابرته مقره إلى الجيزة بسبب علمه أن مراد بك قد ظهر في وادي الأهرامات ومعه ثلاثمائة من مماليكه بعد أن غادر الواحات الخارجة وسار في طرق متعرجة بحيث راوغ جميع القوات التي حاولت اعتراضه، فصدقت

---

(١) كتب نابليون في خطابه إلى ديزيه قائلاً: «أود أيها المواطن الجنرال أن اشتري من ألفين إلى ثلاثة آلاف زنجي لا تزيد أعمارهم على السادسة عشرة». . كما كتب إلى سلطان دارفور قائلاً: «أرجوك أن ترسل لي مع القافلة التالية ألفين عبد أسود لا تزيد أعمارهم على السادسة عشرة بشرط أن يكونوا أقوياء أصحاء وسأشتريهم كلهم لحسابي». . أي أنه كان ينوي أن يفعل فعل المماليك! وهو لم يكن ينوي انشاء كتائب ملونين في الجيش مثلما فعل الانجليز بالعساكر الهنود، وإنما وكما شرح لديزيه كان يريد أن يدمج مائة زنجي في كل أورطة فرنسية. . وكان ينوي ايفاد الرسل إلى سنار ودارفور بالسودان وإلى الحبشة لشراء عشرة آلاف عبد صغير كل عام بحيث يدمجون عند بلوغهم في جيش الحملة بمعدل عشرين عبداً لكل كتيبة على أن يؤلف الباقون جيشاً احتياطياً يكون ضباطه وأركان حربه من الفرنسيين!!

عليه العبارة القائلة بأنه مثل القطط بسبعة أرواح، وأدرك بونابرته أنه يريد الاتصال بالقوات التركية التي كانت على وشك الوصول بالبحر إلى الاسكندرية، لكنه عندما وصل إلى الجيزة لم يجد مراد بك، بينما كانت ستون سفينة تركية تنزل جيشاً كبيراً في أبي قير وتحت حراسة الانجليز وكبيرهم الذي سبق وحارب بونابرته في مياه عكا، وما أن نزل الأتراك إلى البر حتى ذبحوا الحامية الفرنسية عن آخرها[1].

فما كان من بونابرته إلا أن جمع عشرة آلاف من عسكره وصل بهم إلى مشارف أبي قير بعد تسعة أيام من نزول الترك، وفي صباح اليوم العاشر نازلهم، وما هي إلا ساعات قليلة حتى صارت المعركة مذبحة للجنود الأتراك، ومن حاول الفرار إلى المراكب غرق، فنجا القليل ومن بينهم ثعلب ألباني مكير اسمه محمد على سوف يكون له شأن عظيم في تاريخ الديار المصرية.

وعاد السلطان الكبير بنصره السريع إلى مدينة مصر، وفي يوم معلوم أخفاه عن جميع الناس تسلل سراً من ثغر بولاق إلى ثغر الاسكندرية عائداً إلى بلاده، آخذاً معه مملوكه رستم رضا الذي كان عبداً مملوكاً من قبل للشيخ البكري كبير الأشراف يقوم مقام المحظية له، وكذلك الكيميائي مونج، والرسام دنون من غير إدريس الكردفاني لأن المكتوب له والمقدر أن تكون سكة سفره مغايرة[2].. وبعد ابحار سبعة

(١) الانجليزي هو سيدني سميث، وعدد الحامية الفرنسية ثلاثمائة فقط بينما الترك يزيد عددهم عن السبعة آلاف.

(٢) ١٧ أغسطس من القاهرة وليلة ٢٢ من مكان بين نادي اسبورتنج وقصر المنتزه حالياً بالاسكندرية.

وأربعين يوماً بالبحر المالح وصل إلى بلده، وبعد أسابيع صار الكبير فيها له النقض والأبرام، وصار يحارب جيرانه ويحاربونه، وهو عند رحيله أمر بأن يكون كليبر[1]. هو خليفته وساري عسكر الفرنسيس في بر مصر، وبأن يظل ديزه أميراً للصعيد على أن يلحقه إلى بلاده بعد نصف عام لغرض لم يفصح عنه.

وكان كليبر الطويل يعرف عن يقين أن القطر المصري لا يريد الفرنسيس، وأن بونابرته لن يرسل له الامدادات بسبب حصار الانجليز لشواطىء مصر، فاتفق مع الأتراك على الانسحاب، وجاء هؤلاء بعسكرهم الأرازل وصاروا يحتلون مواقع الفرنسيس تباعاً، فتسلل المماليك إلى الناس يحرضوهم على الهياج ولم يكونوا في حاجة إلى تحريض، فثار الناس أسبوعاً كاملاً، وعندئذ فهم ساري عسكره كليبر الطويل الملعوب فتراجع عن الانسحاب وأحاطت عسكره بالمدينة وبولاق إحاطة السوار بالمعصم، ومنعوا الدخول والخروج، وعند ذاك اشتدت الحرب وعظم الكرب وأكثروا من الرمي المتتابع بالمكاحل والمدافع، وواصلوا اطلاق القنابل والبمبات من أعالي التلال والقلاع أثناء الليل والنهار، واستمر الحال بين الهدم والحرق وصراخ النساء ومقتل الأطفال، حتى كان الناس لا يهنأ لهم النوم ولا الراحة وهم في عدم طمأنينة، إلى جانب ما حدث من غلبة الجهلاء على العقلاء وقتل نصارى الشام والقبط ومن جاورهم من المسلمين على وجه السواء، وما كان من ايذاء عسكر الترك العثمانية للرعية وخطفهم

(١) الاسم صحيح في التغريبة، لكن الجبرتي يسميه كلهبر. وقد أسماه المصريون الطويل لأنه لم يكن قصيراً مثل نابليون.

ما يجدونه معهم حتى تمنوا زوالهم ورجوع الفرنسيس وهم يصرخون «يا رب يا متجلي أهلك العثمانلي»(١) . . فإذا بالفرنسيس يهجمون على بولاق من ناحية النيل وبوابة أبي العلاء ، حتى ملكوها وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله الغلمان ، وصارت القتلى مطروحة في الطرقات ، ونهبوا منها مخازن السكر والغلال والأرز والدهون والعطور وما لا تسعه السطور . .

جميع هذا يحدث بينما مراد بك يتفرج من عند طره ، والفرنسيس يداومون الضرب على بيوت المدينة الكبيرة فانهدمت البيوت المطلة على البركة والفوالة بأسرها والرويعي ومافي ضمن ذلك من البيوت إلى حارة النصارى ، وصارت كلها تلالاً وخرائباً ، كذلك حارة المقس إلى باب الحديد ، حتى استسلم الناس ، وأخرج الفرنسيس الترك من أرض مصر مثل النعاج وعادوا إلى احتلال ما كانوا قد تركوه . . وآنئذ تصالح مراد بك مع ساري عسكر كليبر وهو الذي ساهم في إثارة الناس ، فصالحه على قاعدة أن يعمل تحت أمرتهم حاكماً على الصعيد الأعلى من جرجا إلى أسوان مقابل أن يدفع خراجاً قدره مائتين وخمسين كيساً عندما كان الكيس يساوي خمسمائة قرش ، علاوة على خمسة عشر ألف أردب من القمح وعشرين ألف أردب من الشعير والحبوب ، على أن يخصص لمراد بك على سبيل الأجرة إيراد جمرك القصير واسنا ، فبعد أن كان يتحكم في مصر المحروسة قبليها وبحريها صار ملتزماً

(١) يقول الجبرتي أن كتائب الجنود العثمانية بقيادة ناصف باشا التركي وجماعة الحجازية والمغاربة هم الذين ارتكبوا المنكرات من نهب وقتل .

مرؤوساً للفرنسيس، وفي هذا عبرة للمعتبر[1].

ثم إن الفرنسيس دخلوا مدينة مصر المحطمة بالطبول والزمور من خيالة ومشاة تليهم الأعيان والمشايخ ثم صارى عسكر كليبر الطويل ووراءه البرديسي بك والأشقر بك مندوبين عن سيدهما مراد بك إمعاناً في إظهار الخنوع والولاء، لأن هذا هو حال المماليك أن يخضعوا للقرد في زمانه!

وكانت قرية تلة قد بدأت ملامحها تعود إلى الظهور، فأخذت الأكواخ تأخذ شكل البيوت، جميع الأسر شيدت ديارها عدا دار رضوان الحتحوتي الذي بقي شاهداً على فجيعة الحريق، بسبب رحيل الأسرة إلى قرية الأشمونين. . أما الأسرة ذاتها فقد أقاموا غرب القرية، وفي البداية نظر إليهم السكان نظرة شك وارتياب، فلما عرفوا قصتهم من الأول إلى الآخرتعاطفوا معهم وصاروا يساعدونهم ويتسترون عليهم، ثم عرض شيخ طيب على رضوان ومرسي العمل في أرضه مقابل الأكل والكساء والايواء فرحبا شاكرين، فصارت للأسرة داراً تجمعهم، وأم الخير ترعى الجميع في جلد وصبر وتنتظر قدوم رسول من قرية تلة يخبرهم بعودة حتحوت، وعندما عرفت أن المركب عادت من غيره لم تجزع هذه المرة، وقالت هي آفة تتحكم في نسلها، يركبون النهر فيحبون الترحال ويسلون أهاليهم . . وصار مقر المركب مدينة ملوى على النيل القريبة من قرية الأشمونين، وصار الريس مرسي يفرد قلاعها في رحلات العمل وحسب ما يقتضيه السعي وراء الرزق، وكلما ارتحل بها جنوباً يسأل عن أخيه فلا يجد من يعرفه، ويعود ليواجه

(١) تم الصلح بين مراد بك وكليبر في ٥ ابريل ١٨٠٠.

نظرات أمه المتسائلة فينكس رأسه يأساً، لكنها تبتسم في اطمئنان وتقول :

ـ مضى عام عليه لكنه سيعود، أعرف ذلك، بعد عام أو عامين أو خمسة سوف يعود سليماً بإذن الله وظافراً بحكمة الشيوخ كما قالت الغجرية .

ثم أنها اصطنعت منسجاً جديداً راحت تنسج عليه وتبيع وتقايض وتهدي إلى حريم الشيخ الطيب الذي استضافهم .

أما عن حتحوت والشاطر فبعد أن انضم إليهما ادريس ويمموا وجوههم إلى الجنوب ظلوا سائرين طوال الليل من غير نوم كي يبتعدوا عن معسكر الفرنسيس الذي به دنون حاملين معهم جراب ادريس الذي به المسروقات من بارود وزاد وأدوات فرنسية ذات حيل صناعية. . فلما استيقظ دنون عند الفجر ونظر حوله ولم يجد ادريس بحث عنه في كل مكان قريب، وكان يحبه وخشي أن يكون قتل أو خطف، وعلى الفور خرج العساكر يبحثون عنه وجميعهم يعرفون شكله واسمه . . ولم يكن هذا الأمر بغائب عن أذهان الأصحاب الثلاثة، لكنهم مع انبلاج الصباح شعروا بالتعب فدخلوا إلى كوخ مهجور وتساقطوا على الأرض نائمين، وبعد حين استيقظوا على يد تهزهم فهبوا مذعورين ليجدوا فلاحاً لونه في لون القمح يواجههم شاهراً فأسه، فخاطبه حتحوت بسليم الكلام وحكى له جميع ما جرى، وعطف الرجل عليهم وأطعمهم ثم أخبرهم بضرورة الرحيل لأنه شاهد العسكر الفرنساوي يبحثون عن شخص ضائع، ودلهم على سكة متوارية غير مطروقة من الفرنسيس لخطورتها، ففهموا كلامه وشكروه واتجهوا حسبما أشار،

بينما حتحوت يفكر في أم الخير وقد غاب عنهم مدة فشل في معرفتها على وجه التحديد، ولم يكن يعلم أن الفرنسيس أحرقوا قريته، وأن عائلته الكريمة تنام الآن لاجئة في دار عجوز الاشمونين الطيب!

أما عن السلطان الصغير ديزه فما أن مرت الشهور الستة التي حددها له بونابرته حتى غادر الاسكندرية آخذا معه اسماعيل المملوكي الصغير وباقل الغلام الأسود[1] . . وبعد أن وصل وجد بونابرته في نزال وحروب مع بلاد النمسا والمجر، وقد دارت الدائرة عليه لولا وصول ديزه بقواته لنجدته فقلب الهزيمة نصراً، لكنه مات ولم يبكه سوى اسماعيل وباقل، وتظاهر بونابرته بالحزن عليه وأمر بدفنه على طريقة العظماء. . وتشاء عجائب الزمن أنه في نفس يوم دفنه أمسك شاب صغير قادم من حلب اسمه سليمان بسكينه وغرسها في قلب كليبر الطويل في مدينة مصر فقتله من فوره.

وبعدها توالت الأحداث الجسام، فتكالب الترك براً وبحراً قادمين من جهة الشام، وحط الانجليز على شاطىء الاسكندرية، فتحرك مراد من آخر الصعيد لمساعدة الفرنسيس وكبيرهم الجديد مينو، لكنه لم يكد يصل إلى سوهاج حتى أصابته كبة الطاعون فمات[2].

---

(١) ٣ مارس ١٨٠٠.

(٢) قتل كليبر في ١٤ يونيو ١٨٠٠ . . ومات مراد بك ودفن بسوهاج في ١٨ ابريل ١٨٠١ وقد شيعه الجبرتي في تاريخه قائلاً: «ومن أفاعيله القبيحة أنه كان يجرد سيفه ويضرب رقاب الحمير زاعماً أنه يقطعها في ضربة واحدة . . . وبالجملة فمناقبه لا تحصى وأوصافه لا تستقصى، فهو كان من أعظم الأسباب في خراب الأقليم المصري بما عهد منه ومن مماليكه وأتباعه من جور وتهور. . فلعل الهم يزول بزواله!»

وبعد جميع هذا الخراب والدمار انكسرت همة الفرنسيس وخرجوا من الديار المصرية جملة وتفصيلاً آخذين رمة كليبر الطويل معهم، وارتحل معهم جماعة من القبط وتجار الفرنجة والتراجمة وبعض المسلمين ممن تداخلوا معهم والأروام مثل برطلمين المعروف باسم فرط الرمان وعبد العال الأغا الذي طلق زوجته وصنع له برنيطة طرزها بعلامة الجيش الفرنساوي. . وبهذا تكون مدة بقاء الفرنساوية في أرض مصر المحروسة ثلاث سنوات بالعد والحصر وما يقل عن الشهر[1].

وبخروجهم توجه عدد من رجال قرية تلة الأفاضل إلى رضوان وطالبوه بالعودة إلى مسقط رأسه بعد أن حدث الأمان للريس مرسي، وأفهموه بأنهم بنوا داره لأن الكريم الهمام لا تذهب أعماله هباء، ففرحت أم الخير وقالت:

- نرجع إلى دارنا وزرعنا، فإن عاد حتحوت وجدنا حيث تركنا.

فتعجب رجلها رضوان من ثقتها بنجاة ابنها الذي طالت غيبته أكثر من عامين ونصف؟. وبعد أن شكروا شيخ الأشمونين الطيب على جميل صنيعه، ارتحلوا إلى الشاطىء أمام ملوى ليدفع تيار النيل المبارك مركب الريس مرسى إلى موردة الحنش ميناء المنيا، ومنها بالجمال والحمير إلى قريتهم تلة، فاستقبلهم الناس بالطبول والزغاريد وبرفع الأعواد الخضراء.

وكانت مبروكة حاملاً من مرسي في شهرها الثامن، وما أن استقروا

(١) تم جلاء الفرنسيس في ١٨ أكتوبر ١٨٠١.

في دارهم حتى جاءها الوضع قبل تمام الشهر التاسع بعشرين يوم، وكان المولود ذكراً فرحت به وقالت:

- رزقني به الله عوضاً عن ولدي مسرور، إنه عوض من الله.

فأسموه عوض.

بينما كان حتحوت وصاحباه الشاطر وادريس الكردفاني قد التزموا الطريق الجانبي، وحتحوت يحدثهما عن أم الخير والشاطر يدفعه إلى الحديث عن زهرة المليحة ذات العيون الآسرة والتي راقته وأحبها، أيام كثيرة وأسابيع طويلة نسوا عددها، وهم يبالغون في الحذر ويتجنبون الطرق المطروقة ويسلكون المسالك البعيدة عن العمار حتى اجتازوا منطقة شاسعة، فركن ادريس جرابه الذي به البارود والزاد والأدوات الفرنسية ذات الحيل الصناعية، واقتسموها فيما بينهم وخبأوا معظمها برباطات تحت الثياب، ثم راح ادريس دون ملل يحرضهما على اكمال السير إلى الكردفان حيث الصندوق المسحور الذي يرى من يجلس بداخله ما يحدث في الجهات الأربع، وحيث تبر الذهب يغطي جبال القمر، وتحمس الشاطر، وتردد حتحوت ولم يكن يدري أنه تغرب عامين ونصف لأن الزمن اختلط في أذهانهم تحت رهبة المطاردة والخوف من قطاع الطرق والفرنسيس، وهم لو كانوا دخلوا إلى مدينة كوم أمبو المجاورة لما وجدوا واحداً منهم ولعلموا أن طائفة الفرنساوية قد رحلت تماماً عن الأقليم المصري، وأن طائفة الأتراك العثمانية قد عادت تعيث في ارزاق الناس فساداً.. ولهذا توغلوا في البقاع القريبة وقد ضلوا الطريق، لأن المكتوب لهم أن يصادفوا من الأهوال ما يفوق كل الظنون ولا يطرأ على بال عاقل أو مجنون..

أما ما كان من طائفتي الترك والمماليك فبعد رحيل الفرنسيس درجت كل طائفة على اعتبار الأقليم المصري غنيمة خالصة لها! . . وسرعان ما انتشر جنود الترك في المدن والقرى يفعلون بها كل قبيح، فيركب العسكري الحمار قهراً ويخرج به إلى جهة الخلاء ثم يقتل صاحبه المكاري ويذهب يبيع الحمار في سوق الحمير، وتسلطوا على الناس بالسب والشتم ويتهمونهم بأنهم كفرة أو فرنسيس وغير ذلك، فتمنى أكثر الناس من يأسهم عودة حكم الفرنسيس وخصوصاً الفلاحين! . . وتذهب الجماعة منهم إلى أهالي أي قرية وبيدهم ورقة مكتوبة باللغة التركية ويوهموهم أنهم حضروا إليهم بأوامر ثم يطلبون «حق الطريق» مالاً كثيراً على سبيل نفقات انتقال رغم أن أحداً لم يطلب منهم الانتقال. أما النساء اللائي خالطن الفرنسيس فقد تحجبن وتنقبن على طريقة الروم ورحن يصاهرن عساكر الترك. . أما زينب بنت السيد البكري التي تبرجت مع بونابرته فقد طلبوها وأحضروا والدها، فقالت أنها تابت عما فعلت وقال والدها إنه بريء منها فكسروا رقبتها!

وزاد تسلط العسكر على الناس، فيأخذون الخبز الغالي من غير ثمن، ولا تسري عليهم أحكام الشرطة. وتعرضوا للسكان في منازلهم، فيأتي بعضهم ويدخلون الدار ويأمرون أهلها بالخروج منها ليسكنوها، فإن شكا صاحب الدار قوبل بالتبكيت ويقال له:

ـ ألا تفسح مكاناً لأخوتك المجاهدين الذين أنقذوكم من الكفار؟

فلا يسع المسكين إلا أن ينفق عليهم، فإن أسعفته العناية الإلهية وانصرفوا أتى غيرهم! . .

أما عن مدينة المنيا ذات التاريخ المجيد والتي هي عروس الصعيد لحسن بهائها ونقاء هوائها فقد كان الترك في هذا الوقت قد حكموها، فسافر إليها البرديسي بك تابع مراد بك الميت بالطاعون وحارب الترك لمدة أربعة أيام حتى احتلها بقصد منع غلال الصعيد عن مدينة مصر والأقاليم البحرية، ثم راح يمارس عادتهم المأفونة وبدأ يجمع المال من الأهالي فكانت النسوة تولولن صارخات: «ماذا تأخذ يا برديسي من تفليسي؟!».. فأطلق النار على الرجال ولم ينج إلا من سبح بحر النيل إلى البر الشرقي أو كان قد هرب قبل ذلك[1].

ثم طافوا على القرى يجمعون الميري والفرد وما شابه، ومن جملة هذه القرى قرية تلة فدفعوا ما لديهم هذه المرة صابرين على مر الزمان، ومن بين من دفعوا رضوان بن حتحوت.. وكان ذلك كله بعد أربعة سنوات من رحيل ابنه حتحوت والشاطر، وأم الخير لا تكف عن الالتفات صوب الطريق الآتي إلى القرية عل ولدها يكون راجعاً.. وفي هذه الأثناء رزقت مبروكة من مرسي بولد جديد فرحت به وقالت:

ـ هذا هو العوض الثاني لفقد مسرور.

وعلى الفور أسموه عوضين، وكان منصور قد بلغ الخامسة عشرة من عمره فراحت أم الخير تبحث له عن عروس ملائمة، أما شقيقته زهرة فكانت قد تزوجت وصارت حاملاً في شهرها الثالث وهي التي حلمت كثيراً بالزواج من الشاطر جميل الطلعة، لكن رجلها الذي رضيت به

(١) وقعت مدينة المنيا في يد البرديسي بك في ١٧ ابريل ١٨٠٣ وهو من مماليك مراد بك.

كان شهماً وأصيلاً، فهو أحد أنجال شيخ الأشمونين الطيب الذي آواهم وحماهم وقت الشدة، واستقرت معه في بيت أهله، وبينما هي تلد بعد ستة أشهر كان الثعلب المكير المسمى محمد علي يحاصر مدينة المنيا على رأس ثلاثة آلاف من أتباعه الألبان، وولدت زهرة واحتفلت بالسبوع وهو ما زال يحاصر المنيا بحيث أن الحصار استمر ستة وخمسين يوماً، حتى نفذ منها الزاد وكاد الناس يهلكون جوعاً فهاجوا على البرديسي ومماليكه.

وبعد ذلك عاد الثعلب المكير إلى مدينة مصر ليجد أن الأمر والنهي بها كاد يصبح بيد الأهالي المصريين الذين تعلموا صنع السلاح واتقنوا استعماله وعلى رأسهم نقيب الأشراف السيد عمر مكرم، والذي كان قد هرب عند مجيء بونابرته ثم أعاده من قلعة العريش.. فظل الثعلب المكير يتودد إليه ويترقب سير الأحداث، حتى جاء يوم اجتمع الناس فيه بدار محكمة القضايا بحارة عابدين، وقال السيد عمر مكرم:

- إن العادة جرت من قديم الزمان أن أهل البلد يعينون الولاة ويعزلوهم، حتى الخليفة أو السلطان إذا سار في الناس بالجور يعزلونه ويخلعونه.

ولهذا خلعوا الوالي المعين من قبل الترك، فأبى ورمى بالمدافع والقنابل على المدينة وبيت محمد علي وجهة الأزهر من أول النهار إلى ما بعد الظهر، فلم ينزعج أهل البلد من ذلك لما ألفوه من أيام الفرنسيس وحروبهم السابقة، ونازلوا الترك حتى رضخ سلطانهم الذي يسكن الأستانة وأرسل يطلب من واليه أن يترك قلعة الحكم لمحمد

علي، الذي أعلن قبوله لشروط الناس على لسان عمر مكرم بأن يسير العدل ويقيم الأحكام والشرائع ويقلع عن المظالم، وبأن لا يفعل أمراً إلا بعد المشورة، وإن خالف الشروط عزلوه[1]..

وبينما الثعلب المكير محمد علي يجلس على مقعده الوثير بالقلعة كان المكتوب على حتحوت والشاطر وادريس الوقوف في انبهار وخشوع على مرأى من مسقط عظيم في النهر تتطاير منه المياه في الهواء رذاذاً، وبهذا يكون الشاطر وحتحوت المصريان هما أول من وصلا إلى منابع النيل المبارك من غير سكانها، لكن التاريخ لا يذكر ذلك!!

وبعد عشر سنوات أخرى ومن غير أن تيأس أم الخير سوف يعود ولدها حتحوت إلى حضنها ليحكي للناس عن رحلته التي صعد فيها إلى قلب أفريقيا، حيث عاشر السباع وسبح بين التماسيح ورأى أنهاراً من الدماء وأمطاراً غزيرة ووابلاً من السهام والنبال، وجبالاً قمتها في القمر، ومياهاً تتطاير في الهواء رذاذاً رسمت فيه الشمس ألوان قوس قزح البديعة.

(١) ٥ أغسطس ١٨٠٥.. وكان المصريون قد اتقنوا صنع الأسلحة من قبل الجلاء الفرنسي وذلك باعتراف كليبر إذ كان قد كتب في يومياته أن الأعداء (يقصد المصريين) أخرجوا أسلحة كانت مدفونة في الأرض، وأنشأوا معامل للبارود ومصانع لصب المدافع وعمل القنابل!!

كتب للمؤلف

ستوك يصل إلى القمر ـ	قصص	١٩٦٧
مس جرائد لم تقرأ ـ	قصص	١٩٧٠
يام التالية ـ	قصص	١٩٧٢
إثر عدم الامكان ـ	رواية طبعة أولى	١٩٧٢
	طبعة ثانية	١٩٧٥
اء الصمت ـ	رواية طبعة أولى	١٩٧٤
	طبعة ثانية	١٩٨٤
إائب الملوك ودسائس البنوك		
تكايات حول قناة السويس)		
ؤلاء ـ	رواية طبعة أولى	١٩٧٦
	طبعة ثانية	١٩٨٣
رليف ـ	قصص	١٩٧٨
رفة المصادفة الأرضية ـ	رواية	١٩٧٨
ت عجيبة ـ (رواية للأولاد والبنات) .	طبعة أولى	١٩٨٠
ثانية		١٩٨٧
كشك الموسيقى ـ (رواية للأولاد والبنات)		١٩٨٠
حنان ـ	رواية	١٩٨١
ريم تصبغ شجرها ـ	رواية	١٩٨٣
عذراء الغروب ـ	رواية	١٩٨٦

١٥-الحادثة التي جرت -	قصص	١٩٨٧
تغريبة بني حتحوت إلى بلاد الشمال	رواية	١٩٨٨

رقم الإيداع : ٨٨/٢٦٩٥
الترقيم الدولى : ٣ - ٢٠٣ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

تغريبة بني حتحوت

إلى بلاد الشمال

حيث الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة

وعرض الأهوال وانقلاب الأحوال

وتسلط الفأر على القط وركوع الأسد للقرد



«مراد بك زعيم المماليك كما رسمه أحد الفرنسيين»

دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - ت ٧٧٤٥٧٨ / ٧٧٤٨١٤

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - ت ٣١٥٨٥٩ / ٨١٧٣١٢